أمهات المؤمنين

زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم

للشيخ

محمود المصري

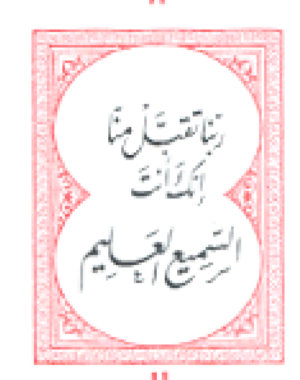
أبو عمار

للأطفال

مكتبة الصفا


أمهات المؤمنين
زوجات الرسول ﷺ
للأطفال

بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ٢٠١١/٣٧٨

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٦ ميدان الأزهر أمام الجامع الأزهر القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٣٠
الدراسة الأتراك خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠٤٣١١١٤ فاكس ٢٥١٤٧٩٧٦

أمهات المؤمنين

زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم

للأطفال

للشيخ

محمود المصري

أبو عمار

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع

تليفون ٢٥١٤٧٢٦٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فالإسلام هو دين الهدى والنور، الذى لا سعادة للبشرية ولا أمن لها، ولا سعادة فى الدنيا والآخرة، إلا عندما تهتدى بهداه، وتستضىء بنوره، مخلصة فى عبوديتها لله الخالق، تأتمر بأمره، وتتبع منهجه، نابذة كل منهج من المناهج الأرضية المخالفة له.

والأولاد أمانة فى أعناق الوالدين، والوالدان مسؤولان عن تلك الأمانة، والتقصير فى تربية الأولاد خلل واضح، وخطأ فادح؛ فالبيت هو المدرسة الأولى للأولاد، والبيت هو اللبنة التى يتكون من أمثالها بناء المجتمع، وفى

الأسرة الكريمة الراشدة التي تقوم على حماية حدود الله وحفظ شريعته، وعلى دعائم المحبة والمودة والرحمة والإيثار والتعاون والتقوى - ينشأ رجال الأمة ونساؤها، وقادتها وعظماؤها.

والولد قبل أن تربيه المدرسة والمجتمع - يربيه البيت والأسرة، وهو مدين لأبويه في سلوكه الاجتماعي المستقيم.

ومكتبة الصفا تقوم بدورها في توعية المجتمع بواجباته الدينية والاجتماعية كما تعودت دائمًا، فبعد أن وفقها الله لطباعة ونشر القرآن الكريم، ونشر كتب التفسير والحديث.

ونشر كتب الداعية الكبير فضيلة الشيخ «محمود المصري».

نقدم اليوم درة تضاف إلى مطبوعاتنا وهو كتاب «أمهات المؤمنين للأطفال» لفضيلة الداعية محمود المصري.

استطاع فيه - حفظه الله - أن يتحدث مع الأطفال بلغة عصرية جميلة.

يعلمهم فيه أصول دينهم.

وسترى أخي القارئ الكريم مدى السلاسة والسهولة

التى تميزت بها عبارات هذا الكتاب حتى يناسب عقول رجال المستقبل.

ونعدكم أخى القارئ الكريم بمزيد من المطبوعات فى كافة المجالات، التى نرجو من الله عز وجل أن يتقبلها منا قبولاً حسنًا وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكتبة الصفا

جعلها الله مناراً لخدمة العلم والدين

بين يدى الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٣).

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٠٢).
(٢) سورة النساء: الآية: (١).
(٣) سورة الأحزاب: الآيتان: (٧٠، ٧١).

أما بعد:

حبايبي الحلوين: كنت قد تشرفت بكتابة مجموعة من الكتب القصصية الهادفة التي جعل الله لها القبول في قلوبكم وكان من بينها: كتاب حكايات عمو محمود (الجزء الأول والثاني) - قصص القرآن للأطفال - قصص الرسول للأطفال - قصص الأنبياء للأطفال - سيرة الرسول للأطفال - أخلاق الرسول للأطفال - أصحاب الرسول للأطفال - تفسير جزء عم للأطفال... وها أنا اليوم أقدم لكم كتاب: أمهات المؤمنين للأطفال... لنتعرف من خلاله على أزواج النبي ﷺ (أمهات المؤمنين رضي الله عنهن) حتى نستفيد من سيرتهن العطرة ونعرف كيف عشن مع النبي ﷺ وكيف كانت حياتهن وزهدهن وعبادتهن فنقتدي بهن.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع سيرة أمهات المؤمنين.

وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى وآله وصحبه وسلم.

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

عمو / محمود المصرى

أبو عمار

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

حبايبي الحلوين:

ومع أول كوكبة من كواكب المجموعة النبوية نلتقي مع رمز الطُهر والعفاف والتُقى ... مع الزهرة التي فاح أريجها وعبيرها فملأ أرجاء الكون كله بعبير الإيمان والتضحية والبذل والفداء.

مع أول من آمنت بالله – من النساء – ... وأول من صلَّت مع رسول الله ﷺ ... وأول من رُزق منها الأولاد... وأول من بشَّرها بالجنة من أزواجه... وأول من أقرأها ربها السلام... وأول صِدِّيقة من المؤمنات وأول زوجات النبي ﷺ وفاة... وأول قبر نزل فيه النبي الكريم ﷺ بمكة... آمنت به حين كفر به الناس وصدقته حين كذَّبه الناس وواسته بمالها حين بخل الناس ورزقه الله منها الولد.

إنها العاقلة اللبيبة المصونة الكريمة التي كانت تُدعى

في الجاهلية «الطاهرة» فكيف بها في ظل الإسلام؟!

إنها سكن النبي ﷺ التي آزرته ووقفت بجواره ليبلغ دعوة ربه (جل وعلا) وهيأت للحبيب ﷺ كل أسباب السعادة والنعيم. وساندته في أحلك أوقات المحنة حتى استحقت بكل جدارة أن يأتيها السلام من عند السلام (جل وعلا) من فوق سبع سماوات بل وتأتيها البشرى ببيت في الجنة من قصب لا صَخَب فيه ولا نَصَب.

إنها سيدة نساء العالمين وزوجة سيد الأولين والآخرين ﷺ ... إنها خديجة رضي الله عنها التي سطع نجمها في عالم الإيمان والطُهر والعفاف والنُبل والعطاء والوفاء.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع أعظم أمٍّ في الكون كله لنعلم قدرها ومكانتها ومنزلتها عند الله وعند رسول الله ﷺ ولنسعد بسيرتها العطرة التي نقدم من خلالها أعظم قدوة لنسائنا وبناتنا وأخواتنا بل وأمهاتنا.

فهيا لنعطر قلوبنا بسيرتها المباركة[١].

* * *

---

(١) صحابيات حول الرسول ﷺ/ للمصنف (ص: ١٥- ١٦).

من هنا نبدأ..

وُلدت خديجة رضي الله عنها في مكة قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة تقريبًا... ونحن نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وُلد في عام الفيل وبذلك تكون خديجة قد وُلدت قبله بخمس عشرة سنة.

والدها خويلد بن أسد، رجل من أشراف قريش، ومن كبار رجالها، بل ومن وجهائها المعروفين، وقد استَشهد المؤرخون على مكانته ووجاهته بأنه كان في الوفد الذي أرسلته قريش إلى اليمن ليهنئ ملكها العربي سيف ابن ذي يزن، عندما طرد الأحباش من بلاده وبلاد العرب في اليمن، وانتصر عليهم، وكان ذلك بعد عام الفيل بعامين، وقد تكوَّن وفد قريش من عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم، وأمية بن عبد شمس، وخويلد بن أسد والد خديجة في عدد من وجوه قريش من أهل مكة، فأتوه بصنعاء في قصرٍ له، يقال له: غمدان[1].

* وفي حرب الفجار التي دارت بين قريش وبين قبيلة أخرى تُسمى (قيس عَيلان) مات خويلد بن أسد والد خديجة.

وسُميت تلك الحرب بحرب الفجار لأنها كانت في

---

(١) أخبار مكة/ للأزرقي (١/ ١٤٩).

الأشهر الحُرم ولأنهم استحلوا فيها الكثير من حُرمات مكة التى كانت مقدمة عند العرب.

* وكادت (قيس عيلان) أن تُهزَم هزيمة منكرة لولا أنه تدخل بعض الناس للصلح بينهم عل أن يُحصوا عدد القتلى من الفريقين فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية العدد الزائد من القتلى. فكان لقيس زيادة فى القتلى فأخذوا ديتها من قريش.

* وكان النبى ﷺ فى تلك الحرب قد بلغ العشرين من عمره.. ولم يقاتل فيها بل كان يجمع النبال التى يرميها أعداؤهم ثم يُعطيها لأعمامه.

* ولم يقاتل النبى ﷺ لأنها كانت حرب فجار وكانوا كُفاراً ولم يأذن الله لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هى العُليا.

* أما أمها فهى فاطمة بنت زائدة بن الأصم، يمتد نسبها إلى لؤى بن غالب الذى تنتسب إليه قريش، وبه تلتقى بنسب النبى ﷺ.

وقد تزوجت خديجة قبل أن تتشرف بالزواج بالرسول ﷺ.

ذكريات مؤلمة

كانت سيدة نساء قريش خديجة ابنة خويلد رضي الله عنها تطوف مع النساء، وتبتهل إلى رب البيت العتيق أن يبارك لها في تجارتها... وفي مالها.

كانت خديجة راضية النفس، راضية القلب بما حققته من نجاح في تجارتها، فقد باتت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش... كانت سعيدة بما بلغته في دنيا التجارة، وكانت مسرورة بما وصلت إليه في سُلطان المال، وفي سلطان الجاه....

ويبدو أن فكرة اعترضت في ذهن خديجة وهي في طوافها، برزت الفكرةُ بشكلٍ واضح، ونقلتها إلى ظلال الماضي القريب، إلى ذكريات أخذت مساحة واسعة من ذهنها.

صحيح أنها سعيدة - الآن - في تجارتها إلا أن سعادتها في حياتها الزوجية قد تعثرت وتمزقت أكثر من مرة، ولم تعرف إلى قلبها الكبير سبيلاً، بل ضلت السبيل منذ بدايتها؛... كان قلب خديجة يرنو إلى حياة زوجية رفيعة، فيها سمو وبذل وتضحية وكفاح في سبيل تحقيق

غاية سامية نبيلة.

تزوجت أبا هالة بن زُرارة التـميـمى ولم تبلغ ربيعـها الخامس عـشر، راحت تجـاهد ليكون زوجـها سيـداً بين السادة من الرجال، ليكون من رجـال قريش المعدودين فى الجاه والشـرف والسيـادة... ولكن المـوت لم يتـرك لأحلامـها مجالاً، فـقد اختطف زوجهـا أبا هالة قبل أن يصبح شيئًا مذكوراً وقـبل أن يسلك طريق المجد ويرتقى سلم الشهرة.

انقـضى زمن على مـوت زوجـهـا أبى هالة بن زرارة التميمى، فتقدم لها أحد أشراف قريش وهو عتيق بن عابد ابن عبـد الله المخزومى. فـتزوجت وأنجبت، ولكن هذا الزواج لم يَدُم طويلاً.

أصبـحت خديجة سـيدة نساء قـريش بلا زوج أيضًا، وقبل أن تبلغ من عمرها الخامسة والعشرين[1].

وظلت هكذا بلا زوج حتى بلغت الأربعين من عمرها فتزوجها النبى ﷺ.

❋ ❋ ❋

(١) نساء أهل البيت/ أ.احمد خليل جمعة - حفظه الله - (ص: ١٥- ١٦).

وها هى ترفض الزواج وتنشغل بالتجارة

وبعد أن اشتد عود الأبناء، وجدت الكثير من رجال قريش وأشرافها يتقدمون الواحد تلو الآخر لخطبتها، وكلهم كان حريصًا على نكاحها لو قدر على ذلك، وقد طلبوها وبذلوا الأموال لها[1]، لشرفها وجمالها ومالها؛ وقابلت ذلك كله بالرفض والعزوف عن الزواج، وكأنها كانت قد استقبلت إلهامًا من الله عز وجل أن ترد كل هؤلاء الذين جاؤوا لخطبتها، وتُعرض عنهم، لتتشرف بعد ذلك بالزواج من النبى ﷺ.

وقد شغلت نفسها عن كل هذا بالنظر إلى مالها، وقررت أن تستثمره وتُنمّيه بالعدل والحلال وذلك من خلال مهنة التجارة التى دأبت قريش على الامتهان بها، حتى انتظمت من أجل هذه المهنة رحلتين: إحداهما تتجه صوب الشمال إلى بلاد الشام وسُميت برحلة الصيف، والأخرى تتجه صوب الجنوب وسُميت برحلة الشتاء، كما جاء فى قول الله عز وجل: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن

(١) سبل الرشاد فى سيرة خير العباد ٢/ ٢٢٣ .

جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[1].

ولعل هذه المهنة تُناسب الرجال دون النساء، فلم يكن في استطاعة خديجة أن تخرج على رأس تجارتها ومالها، ولكنها كانت تستعين بالرجال لكي يعملوا في تجارتها، فتستأجرهم لهذا الغرض.

وكان النبي ﷺ في تلك الفترة غارقًا في حياة التفكير والتأمل مع قليل من العمل في رعي الغنم، ولكن ليست هذه بالحياة التي تُدر على صاحبها الرزق، أو تفتح أمامه أبواب اليُسر والمال، إلا أن محمدًا ﷺ ما كان يهتم لذلك أو يُعنَى به، وقد ظل طوال حياته أشد الناس زهدًا في المادة ورغبة فيها.

وكان أبو طالب رغم ما كان لقبيلته وأهله من بني هاشم من المجد والسؤدد، ورغم ما كان لأبيه عبد المطلب من مكانة ومجد، إلا أنه كان رجلاً قليل المال، يعمل في التجارة ليكسب رزقه ورزق أولاده، ولكن فقره لم يمنعه من رعاية ابن أخيه محمد، ولم يمنعه أيضًا من أن يكون سيدًا في بني هاشم مُطاعًا بينهم، يُكِنُّ له أهل مكة

(1) سورة قريش.

الاحترام والإجلال، فى الوقت الذى ضعفت فيه رئاسة بنى هاشم، وخاصة بعد وفاة عبد المطلب جد النبى ﷺ[1].

النبى ﷺ يرعى الغنم

وكان النبى ﷺ ينظر إلى حال عمه أبى طالب الذى كان فقيرًا صاحب عيالٍ فأراد أن يساعده ويخفف عنه الحمل الثقيل... فقرر أن يبحث عن عملٍ ليساعد به عمه.

ويبدأ النبى ﷺ فى رعى الأغنام ليساعد عمه وليرد إليه شيئًا من المعروف الذى أسداه إليه.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم».

فقال أصحابه: وأنت؟

فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[2].

قصة بحيرا الراهب

لقد كان أبو طالب يحب النبى ﷺ أكثر من حبه لأولاده وكان لا يُطيق فراقه لحظة واحدة.

(١) أزواج النبى ﷺ / أ. عبد المنعم الهاشمى - حفظه الله - (ص: ٢٢).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٢٦٢) كتاب الإجارة.

وفي يوم من الأيام أراد أبو طالب أن يخرج إلى الشام في تجارة له فلم يستطع أن يسافر وحده ويترك محمدًا ﷺ . . . فأخذه معه في رحلته إلى الشام.

وكان في الطريق تنتشر صوامع الرهبان الذين كانوا يعرفون صفة نبي آخر الزمان فقد قرءوا صفته في التوراة والإنجيل.

وكان من بين هؤلاء الرهبان رجل اسمه (بحيرا) وكان رجلاً صالحًا يعرف صفةَ النبي ﷺ.

ونظر بَحيرا إلى القافلة التي قدم فيها أبو طالب ومحمد ﷺ فإذا به يرى غَمامة (١) في السماء تُظلل محمدًا ﷺ وتسير معه أينما سار، وهذه علامةٌ من علامات نبي آخر الزمان، وأراد «بَحيرا» التأكد من هذا النبي، والنظر في وجهه، فصنع طعامًا، ودعا القافلة جميعًا للأكل، فقالوا:

– يا بحيرا كنا نمر عليك فلم تصنع لنا طعامًا، فلماذا هذه المرة؟!

– قال: بل أنتم ضيوفي، فلتأتوا جميعًا ولا يتخلف منكم أحد.

(١) سحابة.

وجاءوا جميعًا إلا رسول الله ﷺ فنظر بحيرا فلم يجده، فقال: هل جئتم جميعًا؟

قالوا: نعم، إلا غلامًا صغيرًا، اسمه مُحمد جعلناه في رِحَالِنا.

فقال: إذن، ليذهب أحدكم وليأتني به.

وحضر محمد ﷺ، وجلس للطعام مع قَومِه فلما فَرَغ القومُ من الطَّعام، وبقي بحيرا ومحمد ﷺ وحدهما.

قال بحيرا: يا غلامُ أستَحلِفُك باللاتِ والعُزَّى، أن تُجيبني عمَّا أسألك عنه قال: لا تسألني باللات والعزى شيئًا، فوالله إني لأكْرَهُهُمَا.

فقال: إذن أسألك بالله.

قال: اسأل عمَّا بَدَا لَكَ.

فراح بحيرا يسأله عن أُمور نومه، وطَعامه، حتى كشف عنه كَتِفَه؛ فرأى خاتم النُّبوة على كَتِفِه، وهو بعض شعَراتٍ بين كتفيه، ثم انصرف رسول الله ﷺ.

فقال بحيرا لأبى طالب: مَن هذا الغُلام؟ فقال: ابنى.

قال بحيرا: لا، ما هو بابنك، ولكن ينبغى أن يكون أبواه قد ماتا.

قال أبو طالب: نعم، مات أبوه وأمه حُبْلى[1]، وماتت أمه.

فقال بحيرا: صَدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلدك، واحذر عليه اليهود، فلو عَرَفُوه ليقتلونه.

وعاد أبو طالب إلى مكة.

وقد تأكد أن لابن أخيه شأنًا بين الناس جَميعًا، وما زالت كلمات بَحِيرا فى أذنه: «احذر عليه اليهود»[2].

رؤيا نورانية

رأت الطاهرة خديجة في منامها أن شمسًا قد سقطت فى دارها، فأضاءتها وأضاءت ما حولها، ولم تستطع تفسير هذه الرؤيا: أهى بشرى تبتسم لها، وتعتز بها، أم

(١) حُبْلَى: أى حامل.
(٢) حياة محمد ﷺ للأطفال / أ. حامد أحمد (ص:٣٨-٤٠).

هى زيادة فى الحيرة، واستدامة للقلق والاضطراب؟.

نظرت حولها فإذا الليل لا يزال يُرخى أستاره على مكة، فلم تستطع أن تخرج فى هذا الليل البهيم إلى حيث دار ابن عمها ورقة بن نوفل - الذى كان قد هجر عبادة الأصنام، ودخل فى دين النصرانية- فانتظرت حتى أشرق الفجر، وسطع نوره على طرقات مكة، فحزمت أمرها، وخرجت مسرعة إلى دار ابن عمها.

وطرقت بابه فلما عرف صوتها عجب من سعيها إليه فى هذا الوقت الباكر من الصباح وأدرك أن أمرًا خطيرًا قد جاء بالطاهرة.

وما إن قصَّت عليه رؤياها حتى أشرق وجهه وأضاءته ابتسامة عريضة، وقال لها: أبشرى يا خديجة، إنها النبوة ستشرق من بيتك فتضىء العالم كله!

خرجت الطاهرة من بيت ابن عمها هادئة النفس مطمئنة القلب، تمشى إلى دارها فى خُطًى بطيئة، وذهنها مزدحم بالأفكار: أين هى من النبوة؟ إن ورقة كثيرًا ما حدثها عما يجده فى كتبه من أن نبيًا من العرب سيُبعث

وأن أوانه قد جاء، ولكن أين هي من ذلك كله؟ وما شأنها بهذا النبي العربي الذي أظل العالم زمانه؟ (١).

وتتأكد تلك الرؤيا في قلبها

وفي يوم من الأيام كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه عند الحرم، وفي أحد الأعياد، خرجت خديجة من بيتها نحو الكعبة، ثم طافت بالبيت العتيق، وراحت تبتهل إلى الله وتدعوه في صدق أن يحقق لها حلمها، ثم انطلقت نحو نسوة كن بالقرب من الكعبة، وجلست معهن يتجاذبن أطراف الحديث، وطرائف الأخبار.

في تلك الساعة، قطع أصوات النسوة صوت صارخ وقف بالقرب منهن، كان هذا الصارخ من اليهود، وقف بالقرب من النسوة وصرخ: يا معشر نساء قريش،... فالتفتت النسوة إليه وأصخن السمع فقال: يا معشر نساء قريش، إنه يوشك أن يظهر نبي آخر الزمان، فأيتكن استطاعت أن تكون زوجة له فلتفعل.

ويبدو أن نسوة قريش، حسبنه يهذي، فرماه بعضهن

(١) خديجة بنت خويلد/ د. علي عبد المنعم (ص: ٣-٤) ط. مكتبة سفير.

بالحصباء، وألقى عليه أخريات منهن سيلاً من الشتائم والسباب، وطردنه من ذلك المكان.

أما خديجة ابنة خويلد رضي الله عنها فقد خفق قلبها فى شدة، فحديث هذا اليهودى أعاد إلى ذاكرتها شريط حلمها الذى ليس هو ببعيد.. إنه أعاد إلى ذهنها حلمها الذى رأته، وذلك الحديث الشجى العذب الذى دار بينها وبين ابن عمها ورقة بن نوفل، حول خاتم الأنبياء.

إن ذلك اليهودى ليس يهذى، وليس بمجنون، إنه يعى ما يقول، فقد أعلن على الملأ أن نبيًّا قد اقترب ظهوره، وهو يدعو من استطاعت من نسوة قريش أن تكون زوجًا له، وخديجة قد رأت فى منامها أن الشمس هبطت من سماء مكة لتستقر فى دارها، أشياء كثيرة ازدحمت فى ذهن خديجة.. أفكار تصارعت فى مخيلتها تساءلت: أيكون ذلك كله عبثًا؟ كلا ورب هذا البيت.

خديجة تتمنى أن يخرج النبى صلى الله عليه وسلم فى تجارتها

كانت خديجة ابنة خويلد تعرف محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم حق المعرفة، فعمته صفية بنت عبد المطلب زوجة

أخيها العوام بن خويلد، وقد ترامت إليها سيرته العطرة وأخباره المباركة، فودَّت لو أنه عمل لها فى تجارتها، ولكنها كانت تعتقد أن فى تجارة بنى هاشم منفسًا له، وما علمت أن كثرة العيال قد ذهبت بتجارة أبى طالب، وأن حمزة بن عبد المطلب قد شُغل بالقنص والصيد والفتوة عن التجارة، وأن العباس بن عبد المطلب يخرج هو فى تجارته، وأن أبا لهب قد انغمس فى الفجور واللهو والشراب والعربدة والمقامرة.

ويبدو أن أبا طالب عم النبى ﷺ قد رغب إلى ابن أخيه محمد ﷺ أن يعرض نفسه على خديجة بعد أن ذكر له قلة ماله، وأن الزمان قد اشتد عليه، ونصحه أن يتاجر بمال خديجة فلعل الله أن يسوق له رزقًا حسنًا من مال خديجة الممدود[1].

وها هى تعرض عليه الخروج فى تجارتها

* كانت الطاهرة خديجة مثلاً رائعًا بين نساء مكة فى المكانة والشرف والمال، ولها تجارة واسعة، وتستأجر من

(١) نساء أهل البيت (ص: ١٩- ٢١) بتصرف.

الرجال في مالها ممن تثق بهم ليتجروا لها، وتتفق معهم على نصيب من الأجر تدفعه لهم.

في تلك الأثناء كانت الطاهرة خديجة تعرف الفتى الأمين محمد بن عبد الله الذي يلتقي نسبه مع نسبها في قُصي بن كلاب[1]. وعُرف عن خديجة أنها صاحبة نظرة ثاقبة، وفراسة صحيحة، فكانت ترى محمداً وتسمع أخباره العطرة من الغادي والرائح.

* وكانت أخلاق النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وصفاته الجميلة تعطر الدنيا وتدخل القلوب على اختلاف أصحابها، ولهذا رغبت في أن يتاجر لها بمالها، فأرسلت إليه وقالت: إنه دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك.

فقبل النبي ﷺ منها ذلك، .... ولما سمع أبوطالب بأعطية الطاهرة خديجة، قال لرسول الله ﷺ: «هذا رزق ساقه الله إليك»[2].

(١) قال الحافظ ابن حجر عن الطاهرة خديجة: وهي من أقرب نسائه ﷺ إليه في النسب.

(٢) نساء مبشرات بالجنة/ أحمد خليل جمعة (ص: ١٩).

زواج النبى ﷺ من خديجة رضي الله عنها

كان النبى ﷺ قد عُرف فى مكة بأنه الصادق الأمين.. حتى أنه كان كثير من سادة قريش يضعون أموالهم وأماناتهم عند النبى ﷺ ومنهم من كان يعطيه ماله ليتاجر به ويعطيه على ذلك جزءاً من الربح... فكان النبى ﷺ يأخذ الربح ليساعد به عمه أبا طالب.

* وكانت خديجة بنت خويلد امرأة غنية تتاجر بمالها... فقد كانت تزوجت قبل ذلك برجلٍ غنى فمات فترك لها مالاً كثيراً ثم تزوجت برجلٍ آخر فمات وترك لها مالاً وفيراً... فكانت تستأجر الرجال للعمل فى تجارتها.

ومن المعلوم أنهم كانوا يعيشون فى فترة جاهلية شديدة... فمن المؤكد أنها قد تعرضت للسرقة أكثر من مرة.

* **فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها:** من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج فى مالها

ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قَدِم الشام.

فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان، فاطَّلع الراهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة إذا اشتد الحرُّ يرى ملكين يُظلانه من الشمس، وهو يسير على بعيره، فلما قَدِم مكة على خديجة بمالها باعت البضاعة التي جاء بها من الشام فأصبح ربحها مضاعفًا... ولم يحدث في أي رحلة تجارية أن وربحت خديجة مثل هذا الربح فسألت غلامها ميسرة فأخذ يحدثها عن أخلاق النبي ﷺ وصدقه وأمانته.

بل أخذ يحدثها عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه.

* فذهبت خديجة إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل) وكان نصرانيًا قد قرأ كتب أهل الكتاب وعرف صفات نبي

آخر الزمان.. فبشرها بأن هذه هى صفاته وأنه سيكون نبى آخر الزمان.

* اجتمعت الدلائل عند خديجة أن محمداً سيكون نبى آخر الزمان فباتت ترجو أن يكون زوجًا لها... ولكن كيف ذلك وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وهى فى الأربعين من عمرها.

ومع ذلك لم تيأس لأنها كانت غنية وجميلة وكان كثير من الرجال يرغبون فى الزواج منها ولكنها كانت ترفض لأنها كانت ترى حرصهم على مالها. وفى نفس الوقت لم تجد الرجل المناسب الذى ترضى أخلاقه ورجولته.

لكنها لما رأت محمداً ﷺ عرفت أنها لن تجد مثله أبداً.

* وجلست فى حيرة تفكر كيف تفوز بزواجها من محمد ﷺ.

وفى غمرة الحيرة والاضطراب تدخل عليها صديقتها (نفيسة بنت مُنْيَه)، وتجلس معها تبادلها أطراف الحديث حتى استطاعت أن تكشف السر الكامن المرتسم على مُحياها وفى نبرات حديثها.

وهدأت نفيسة من روع خديجة وطمأنت خواطرها، وذكّرتها بأنها ذات الحسب والنسب والمال والجمال، واستدلت على صدق قولها بكثرة الطالبين لها من أشراف الرجال.

وما إن خرجت نفيسة من عند خديجة حتى انطلقت إلى النبي ﷺ وكلّمته أن يتزوج الطاهرة خديجة، وقالت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج.

فقال - عليه الصلاة والسلام -: **«ما بيدي ما أتزوج به»**.

قالت: فإن كُفيت ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة فهل تجيب؟

فردّ متسائلاً: **«ومَن؟»**.

قالت على الفور: خديجة بنت خويلد.

فقال: **«إن وافقت فقد قبلت»**.

وانطلقت نفيسة لتزف البشرى إلى خديجة... وأخبر - عليه الصلاة والسلام - أعمامه برغبته في الزواج من خديجة، فذهب أبو طالب وحمزة وغيرهما إلى عم خديجة (عمرو بن أسد)، وخطبوا إليه ابنة أخيه، وساقوا إليه الصداق.

فى ذلك المجلس اللطيف، قام أبو طالب يخطب.

ولما تم العقد نُحرت الذبائح، ووُزعت على الفقراء، وفُتحت دار خديجة للأهل والأقارب.

* وانتشر الخبر فى مكة كلها أن الصادق الأمين قد تزوج خديجة.

حكمتها ورجاحة عقلها

وليس شيء أدلّ على حكمتها وكياستها ورجاحة عقلها من أنها قد اختارت النبى ﷺ زوجًا رغم كونه إذ ذاك فقيراً وهى غنية ثرية يتطلع إليها أثرياء قومها وأشرافهم فتأبى، وما ذاك إلا أنها قد عرفت بحكمتها وكمال عقلها أن كمال الرجولة، وشرف المروءة، وسلامة الطبع أفضل من الغنى المادى، والعرض الزائل.

إنها تبحث عن نوع آخر من الغِنى والثراء!

إنه غِنى النفس، وثراء الضمير، ودماثة الخلق! وأين تجد ذلك كله على الوجه الأكمل فى غير محمد ﷺ، وإذا كان بعض الكُتّاب يذهب إلى أن الذى دفعها إلى الاقتران بالنبى ﷺ هو ما ذُكر لها من حسن تعاطيه

للتجارة بيعًا وشراءً، وما اتصف به في تجارته من صدق وأمانة وغير ذلك.

غير أننا إذا بحثنا عن السبب الحقيقي في زواج هذه المرأة بمحمد ﷺ، وهي في سن الأربعين أي: في اكتمال عقلها ورشدها فليست بالفتاة الطائشة، ولا العجوز الخرفة.... السبب الحقيقي هو بحثها عن الرجولة الكاملة.. الرجولة بكل معانيها من خُلق ومروءة وفتوة وإيثار وكرم خصال.

وما كان محمد ﷺ ليقبل زواج خديجة ولو كانت تملك مال الأرض كله، ولو كانت أبهى نساء الدنيا جمالاً، لولا ما رآه ﷺ فيها من رجاحة العقل وكياسته وما شهد به قومها لها من شريف الخصال، وحميد الفعال، وسلامة الجوهر، وعراقة المنبت وعفتها وصدقها وأمانتها.

هذا هو الصادق الأمين

ولقد كانت أمنا خديجة رضي الله عنها تعلم أخلاق النبي ﷺ جيدًا وتسمع عن مكارمه وفضائله ما يملأ القلب

بهجة وسرورًا. . بل كانت تعلم مكانته بين قومه الذين كانوا يُلقبونه بالصادق الأمين وكانوا يستعينون به لحل أعتى المشاكل التى كانت تحدث بينهم.

فها هى قبائل قريش قد اجتمعت لتُعيد بناء الكعبة المُشرَّفة فلقد كانت الكعبة قد أوشكت على الانهيار قيل: بحريق أصابها، وقيل: بسيلٍ جارف، وكان ذلك قبل بعثة النبى ﷺ بخمس سنوات على الراجح، فلم تجد قريش بُدًا من إعادة بنائها (١).

فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها، واتفقوا على أن لا يُدخلوا فى بنائها إلا طيبًا، فلا يدخلوا فيها مهر بَغىٍّ، ولا بيع ربًا، ولا مظلمة أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومى وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يُصبه شىء، ولم يزالوا فى الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ فى البناء، فجزَّؤوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها، فجمعت كل قبيلة حجارة على حده وأخذوا يبنونها، وتولى البناء بنَّاءٌ رومى اسمه (باقوم)، ولما بلغ

(١) صحابيات حول الرسول/ للمصنف (ص: ٢٥- ٢٦).

البنيان موضع الحجر الأسود، اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع ليالٍ أو خمسًا، واشتد حتى كاد أن يتحول إلى حربٍ ضَرُوسٍ في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يُحكِّموا فيما شجر بينهم أول داخلٍ عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداءً، فوضع الحجر وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده، فوضعه في مكانه(١).

السعادة ترفرف بأجنحتها على أعظم بيت

رفرفت السعادة بأجنحتها على بيت خديجة رضي الله عنها، فقد وجدت الطاهرة خديجة في الأمين محمد خير الأزواج، فهو لطيف المعشر، سابغ العطف، يحيط به كل إنسان وكل حي، وكل شيء، فأخلاق محمد ﷺ

(١) الرحيق المختوم (ص: ٥٩).

كانت تنبع من فطرته بنسبٍ متفقة متكاملة، فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته، وخصائصه ﷺ كثيرة في الفضل.

بل إنه من وفائه ﷺ لم ينسَ أبدًا تلكم المرأة العظيمة التي كانت له أمًّا بعد أمه - أم أيمن رضي الله عنها - فأخذها معه لما انتقل إلى دار الزوجية، وأكرمها وغمرها بحنانه وفاض قلبه الكبير رقة مسَّت قلوب أبناء خديجة، فكان (هند) ابن خديجة عند أمه بعد زواجها من محمد ﷺ، فكان ربيب النبي سعيدًا غاية السعادة أن يَشُبَّ وينشأ في كنف أصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وأكرمهم عشرة.

لقد وَسِعَ حُب محمد ﷺ زيد بن حارثة، ذلك الفتى الذي اشتراه حكيم بن حزام من سوق عكاظ، ووهبه لعمته خديجة، وقد تعلق محمد ﷺ بزيد، وأحب زيد محمدًا حبًا لم يحب أحدًا مثله من قبل. وقد فطنت خديجة إلى هذا الحب الأبوي، فوهبت زيدًا لزوجها فأعتقه، ولم يكتفِ بأن ردَّ إليه حريته السليبة، بل

شرَّفه ورقَّاه بأن نَسَبه إلى نفسه فكان زيد بن محمد.

أحبَّت خديجة رضي الله عنها زوجـهـا محمدًا ﷺ حبًا ملَك عليها كـل مشاعرها، حب الزوجة لزوجـهـا الكريم الذى تمثلت فيه مكارم الأخلاق ومعالى المكارم، فقد كانت على مَرِّ الأيام وطول العـشـرة، تزداد يقـينًا بأن الرجل الذى اخـتـارته لنفـسـهـا هو أصلح أهل الأرض لأداء رسالتـه، والنهوض بأمته.

كانت خديجة رضي الله عنها تهيئ لرسول الله ﷺ كل أسباب الراحة وكل أطـراف النعيم، إذا أشار لـبَّت إشارته متـهللة النفس، رضـية القلـب، كريمـة اليد، فـمـا كانت تـبـخل بأموالها أيضًا، وكانت سخية بعواطفها ومشاعرها وأموالها، بل لم تكن تبـخل بحبهـا على من يحب زوجهـا، وكانت تكرم من يحبه إكرامًا يملأ النفس رضى وسرورًا [١].

صاحبة القلب الرحيم

فى جلسـة غمـرتها أنوار ربانيـة كان مـحمـد ﷺ يتـحدث مـع خديجـة، فكان صـوته يمس أوتار فـؤادها

(١) نساء أهل البيت (ص: ٣٠- ٣١) بتصرف.

وتلك الحكمة المتدفقة من بين شفتيه تغمر روحها بسعادة عارمة مجنحة تسمو بها فوق وجودها الملموس، وتعيش في أفق نوراني.

في تلك اللحظات جاءت مولاة خديجة وقالت: مولاتي: إن حليمة السعدية تود الدخول، ولما سمع رسول الله ﷺ بحليمة السعدية، خفق قلبه الشريف حنانًا، وراحت الذكريات الحبيبة والحانية الدافئة تطفو على سطح ذهنه، .. ذكريات حبيبة إلى نفسه، .. تذكَّر بيداء بني سعد ورضاعته هنالك، كانت لحظة مُفعمة بالمشاعر الناعمة، لحظة أحيت - في مثل لمح البصر أو أسرع - أيام طفولته، وأيام نشأته بين ذراعي حليمة، وفي أحضانها.

قامت خديجة رضي الله عنها لتُدخل حليمة، فطالما حدثها عنها حديثًا يقطر حبًّا ورحمة ودفئًا وكرامة، وعندما وقع بصره الشريف عليها، مس سمع خديجة صوته اللطيف وهو ينادي في لهفة وحنان «أمي، أمي».

نظرت خديجة إلى رسول الله ﷺ فوجدته قد فرش لها رداءه، ومرر يده عليها في حنان دافق، وقد ترقرقت في وجهه سعادة عارمة، وتألق في عينيه فرح فياض،

لكأنما كان يحتوى فى أحضانه أمه آمنة بنت وهب، وقد بُعثت من مرقدها.

وفى غمرة اللقاء الحار بين رسول الله ﷺ وحليمة، سألها عن حالها، فراحت تشكو إليه قسوة الحياة والجدب الذى نزل ببادية بنى سعد، ثم شكت ضيق العيش، ومرارة الفقر، فأفاض عليها من كرمه.

وبعد ذلك حدث النبى ﷺ زوجه خديجة فى تأثر واضح بما ألمَّ بمرضعته حليمة من ضيق، وما حاق بها وبقومها من كرب، فتدفقت كنوز فؤاد خديجة بالعطف والرحمة، وأعطتها عن طيب خاطر أربعين رأسًا من الغنم، كما وهبتها بعيرًا يحمل الماء، وزودتها بما تحتاجه فى رجوعها إلى باديتها، وكانت خديجة رضي الله عنها متأهبة على الدوام لتجود بكل أموالها، إرضاءً لزوجها محمد ﷺ، فشكر لها كرمها، ثم انطلق ليضع بين يدى مرضعته ما جادت به خديجة[1].

* * *

(١) نساء أهل البيت (ص: ٣١- ٣٢).

فى رحاب الذرية المباركة

وهكذا كان هذا البيت المبارك قائمًا على المودة والرحمة والحب فلم تكن خديجة ﵂ تدّخر جُهدًا فى أن تُدخل السعادة والسرور على قلب الحبيب ﷺ ، وفى يوم من الأيام عاد النبى ﷺ إلى البيت وكانت زوجه الحنون تحمل له بشرى عظيمة فلقد أخبرته بأنها حامل فاهتز قلب الحبيب ﷺ فرحًا بتلك البشرى الغالية.

وكانت خديجة فى غاية البهجة والسعادة والسرور لأنها تشعر بل وتوقن بأن زوجها ﷺ سيكون له شأن عظيم فكانت تتمنى أن يرزقها الله منه بالولد وجاءت اللحظة السعيدة التى ولدت فيها خديجة أول مولود للحبيب ﷺ وهو القاسم - الذى كان يُكنّى به الحبيب ﷺ - ثم تتابعت بعد ذلك الذرية المباركة فولدت له بعد ذلك زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وكان ذلك قبل النبوة ثم ولدت له بعد النبوة عبد الله - الذى كان يُسمَّى بالطيب والطاهر -.

وقد ذكر ابن عباس ﵄ أولاد رسول الله ﷺ من

الطاهرة الولود خديجة فقال: ولدت خديجة لرسول الله ﷺ غلامين وأربع نسوة، القاسم وعبد الله، وفاطمة وأم كلثوم وزينب ورقية[1]. أما إبراهيم فهو من مارية القبطية رضي الله عنها. . . ومات بنوه كلهم في صغرهم. أما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، فرقية وأم كلثوم تزوجتا عثمان بن عفان رضي الله عنه. . . وزينب زوجة أبي العاص بن الربيع وفاطمة زوجة علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين[2].

وقد أدركتهن الوفاة في حياة النبي ﷺ إلا ابنته فاطمة فقد توفيت بعده بستة أشهر.

وكان النبي ﷺ ينظر إلى أسرته المباركة بصدر منشرح، فقد كانوا جميعًا يعيشون حياة هادئة جميلة في غاية الصفاء والسعادة.

فخديجة رضي الله عنها زوجة مثالية علمت كيف تُدخل السعادة على قلب زوجها ﷺ وأولادها وكانت كلما طالت عشرتها مع الحبيب ﷺ ازدادت حبًّا له وإعجابًا به فهو

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٧٠).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦).

العابد الزاهد الذى تعلق قلبه وتعلقت جوارحه بالله (جل وعلا) ومن هذا البيت المبارك خرجت فاطمة التى أضحت فيما بعد سيدة نساء أهل الجنة وأم الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وزوجة واحد من العشرة المبشرين بالجنة ... فيا له من بيت مبارك نشر البركة وعبير الإيمان على الكون كله.

كرم وإيثار

ولقد كانت خديجة رضي الله عنها فى غاية الكرم والجود وكانت تحب كل ما يحبه زوجها ﷺ وتضحى بكل ما تملك من أجل إسعاد زوجها ﷺ فلما كفل الحبيبُ ﷺ ابن عمه على بن أبى طالب وجد فى بيت الطاهرة الرحيمة (خديجة) قلبًا حانيًا وأُمًّا عطوفًا جعلته يشعر أنه مع أمه التى ولدته فكانت تُحسن إليه غاية الإحسان.

* وكذلك لما أحست خديجة رضي الله عنها بأن الحبيب ﷺ يحب مولاها زيد بن حارثة وهبته له فازدادت بذلك منزلتها فى نفس النبى ﷺ.

* * *

ما أنا بالذى أختار عليك أحداً أبداً

ولقد رأت خديجة من حُب زيد للحبيب ﷺ موقفاً لا توازيه الدنيا بكل ما فيها من متاع زائل.

فلقد كان (زيد) خرج مع أمه وهو صغير فى زيارة لقومها فأغارت عليهم الخيل فاحتملوا زيداً وباعوه في سوق عكاظ فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بأربعمائة درهم فظل أبوه يبحث عنه في مشارق الأرض ومغاربها حتى تفطَّر قلبه حزنًا عليه وأخذ يصوغ حنينه إليه شعراً حزينًا تتفطر له الأكباد.

* وفي موسم من مواسم الحج[1] قصد البيت الحرام نفر من قوم زيد، وفيما كانوا يطوفون بالبيت العتيق، إذا هم بزيد وجهًا لوجه، فعرفوه وعرفهم وسألوه وسألهم، ولما قضوا مناسكهم وعادوا إلى ديارهم أخبروا حارثة بما رأوا وحدثوه بما سمعوا.

فما أسرع أن أعدَّ حارثة راحلته، وحمل من المال ما يفدى به فلذة الكبد، وقرة العين؛ وصحب معه أخاه

(١) كان ذلك فى الجاهلية.

كعبًا، وانطلقا معًا نحو مكة، فسألا عن النبي ﷺ فقيل: هو في المسجد فدخلا عليه فقالا: يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك فامنن علينا وأحسِن إلينا في فدائه، فإنا سنرفع لك في الفداء. قال: «ما هو؟» قالوا: زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «فهلا غير ذلك؟» قالوا: ما هو؟ قال: «ادعوه **فخيِّروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدًا»**، ... قالوا: قد أكرمتنا وأحسنت إلينا.

فدعاه فقال: «هل تعرف هؤلاء؟» قال: نعم، هذا أبي وهذا عمي، قال: «**فأنا من قد علمت، ورأيت محبتي لك فاخترني أو اخترهما**»، فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنت مني بمنزلة الأب والعم. فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك، وأهل بيتك؟ قال: نعم. إني قد رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجر فقال: «يا من حضر

اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه...» فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا.

فدُعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام، فزوَّجه رسول الله ﷺ زينب بنت جحش فلما طلقها تزوجها النبي ﷺ فتكلم المنافقون في ذلك وقالوا: تزوج امرأة ابنه فنزل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾(1) الآية وقال: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾(2) فدُعي يومئذ زيد بن حارثة(3).

شمس النبوة تشرق على أرض الجزيرة

وفي تلك الفترة التي كانت قبل البعثة كان النبي ﷺ يعبد ربه على دين إبراهيم (عليه السلام).

ولما اقترب من سن الأربعين حُبِّب إليه الخلاء فكان يذهب إلى غار حراء في جبال مكة وكان يمكث شهر رمضان في ذلك الغار يتعبد ويتفكر في بديع خلق الله (جل وعلا).

* وفي هذا الوقت حدثت أشياء عجيبة... فقد كانت

---

(1) سورة الأحزاب: الآية: (40).
(2) سورة الأحزاب: الآية: (5).
(3) صحابيات حول الرسول (ص: 27- 33).

الشياطين تتجسس وتسمع أخبار السماء.. ولكنها الآن لا تستطيع ذلك فإن النجوم والشُّهُب تطارد كل شيطان يحاول أن يقترب ليعرف أخبار السماء فتحرقه وتقتله.

* وبدأ النبى ﷺ يحكى لخديجة أنه يرى ضوءاً ويسمع صوتًا فكانت خديجة تسأل ابن عمها ورقة بن نوفل فيقول لها: إن يكن صادقًا فإن هذا الوحى الذى كان يأتى موسى (عليه السلام).. فإن بُعث وأنا حى سأنصره وأؤمن به.

* وكان النبى ﷺ فى تلك الفترة يرى الرؤيا الصادقة فى النوم.

وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

فكان يتزود بالطعام والشراب ويذهب إلى الغار ليتعبد ثم يعود بعد فترة ليتزود مرة أخرى.

* وبدأت أيام شهر رمضان المباركة تُطِلُ على أهل مكة وخرج النبى ﷺ كعادته إلى غار حراء ليتعبد لربه (جل وعلا) ويتأمل فى بديع خلق الله.

وبينما كان النبى ﷺ فى تلك الحالة الإيمانية الفريدة وإذا به فجأة يرى مخلوقًا لم ير مثله قبل ذلك أبدًا.

وبدأ يقترب من النبي شيئًا فشيئًا حتى جذبه بشدة وضمَّه بقوة وقال له: «اقرأ».

فقال له النبي ﷺ: «ما أنا بقارئ»... فقد كان النبي ﷺ أميًا لا يقرأ ولا يكتب.

فجذبه الملك وضمه بقوة مرة أخرى وقال له: «اقرأ».

فقال النبي ﷺ: «ما أنا بقارئ».

ثم جذبه الملك للمرة الثالثة وضمه بقوة حتى تعب النبي ﷺ من ذلك تعبًا شديدًا فقال له الملك: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

ثم تركه الملك وعاد إلى السماء مرة أخرى بعد أن ترك النبي ﷺ خائفًا مرعوبًا قد تصبب العرق على جبينه وجسده.

* فأسرع النبي ﷺ عائدًا إلى خديجة وهو يقول: «زمِّلوني زمِّلوني»[2].

* فقامت خديجة لتغطية وتُهدئ من روعه.

(١) سورة العلق: الآيات: (١-٥).

(٢) أي: غطوني.

وبدأت خديجة تسأله عما حدث.. فأخبرها النبي ﷺ بما حدث ثم قال لها: **«لقد خشيت على نفسي»**.

فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ[(١)]، وتكسب المعدوم[(٢)]، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق[(٣)]، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى (ابن عم خديجة)، وكان امرأ تنصرَّ في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربى، فيكتب الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيراً قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عمى اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى: فقال له ورقة:

هذا الناموس - أى: جبريل أو الوحى - الذى نزّل الله على موسى، ياليتنى أكون شابًا قويًا عندما يُخرجك قومك.

---

(١) تحمل الكل: تنفق على الضعيف واليتيم والعيال، والكل: أصله الثقل والإعياء.

(٢) تكسب المعدوم: تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق.

(٣) تعين على نوائب الحق: أى: إنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل.

فتعجب النبى ﷺ وقال: «وهل مُخرجىّ هم؟» .

فقال له ورقة: ما جاء رجل بمثل ما جئت به إلا عاداه قومه وأخرجوه ولو كنت قويًا فى ذلك الوقت لأنصرنَّك نصرًا قويًّا [1].

* وعاد النبى ﷺ إلى بيته يفكر فيما قاله ورقة ابن نوفل فعلم أن الأيام تُخبئ له أحداثًا عظيمة. ولكنه كان على يقين وثقة أن الله لا يخذله.

حزن النبى ﷺ لفتور الوحى

عاد النبى ﷺ بعد ذلك إلى غار حراء لعله يرى الملك الذى نزل عليه قبل ذلك وقال له: اقرأ... لكن الملك لم يأت إليه مرة أخرى... ويمر اليوم وراء اليوم.. والنبى ﷺ ينتظر والملك لا يأتى.

فحزن النبى ﷺ على فتور الوحى وعدم نزول جبريل وخشى ألا ينزل عليه مرة أخرى.

وبينما هو عائد من الغار وإذا به يرى جبريل (عليه السلام) جالسًا على كُرسيه بين السماء والأرض فخاف

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤) كتاب بدء الوحى، ومسلم (١٦٠) كتاب الإيمان.

منه النبي ﷺ وامتلأ قلبه رُعبًا من هول المنظر . . . وأسرع بالعودة إلى خديجة وهو يقول: «زملوني زملوني..» فجاءه جبريل مرة أخرى وهو يقرأ عليه: ﴿يا أيها المدثر ۞ قم فأنذر ۞ وربك فكبر ۞ وثيابك فطهر ۞ والرجز فاهجر﴾[1].

* ففزع النبي ﷺ وقام من نومه فقالت له خديجة: نم يا محمد واسترح.

فقال لها: «لقد مضى عهد النوم يا خديجة».

الدعوة السرية

لما نزل على النبي ﷺ قول الله (جل وعلا): ﴿يا أيها المدثر ۞ قم فأنذر﴾.

علم النبي ﷺ أنه تحمَّل مهمة شاقة ومسئولية كبيرة: وهي أنه لابد أن يقوم ليدعو الناس جميعًا إلى عبادة الله (جل وعلا) وإلى ترك عبادة الأصنام.

* وبدأت الدعوة إلى الإسلام سرًا.

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام

(1) سورة المدثر: الآيات: (١-٥).

أولاً على ألصق الناس به وآل بيته، وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه.

وفي مقدمتهم زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه علي بن أبي طالب - وكان صبيًا يعيش في كفالة الرسول ﷺ[1].

* ودعا صديقه الذي هو موضع ثقته وأمين سره ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾[2]. أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلم يتردد وكان أول داعية في الإسلام، وكان ببركة إسلامه ودعوته ثلة مباركة دخلت في الدين وكانت من السابقين الأولين وكان لهما في الإسلام أعظم بذل وبلاء، فرضي الله عنهم أجمعين. . . منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ذو النورين، والزبير بن العوام وهو حواري رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص خال المصطفى ﷺ، وطلحة بن عبيد الله، وكل هؤلاء

(١) الرحيق المختوم (ص: ٧٢).
(٢) سورة التوبة: الآية: (٤٠).

الذين دخلوا الإسلام على يد أبي بكر من العشرة المبشرين رضى الله عنهم أجمعين[1].

* فكان أول من أسلم من النساء خديجة رضي الله عنها.

وأول من أسلم من الرجال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه.

وأول من أسلم من الصبيان على بن أبى طالب رضي الله عنه.

وأول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة رضي الله عنه.

* وبدأ النبى ﷺ يتوسع فى دعوته شيئًا فشيئًا حتى لا تعلم قريش بذلك فتبدأ فى إيذاء المؤمنين.

* ولما زاد عدد الذين أسلموا على الثلاثين اختار لهم الرسول ﷺ دار أحدهم (وهو الأرقم بن أبى الأرقم) ليلتقى بهم فى تلك الدار فيعلمهم ويرشدهم.

* واستمرت هذه المرحلة السرية قرابة ثلاث سنوات.

ثم نزل الوحى يكلف النبى ﷺ بأن يجهر بدعوته.

وفد قريش إلى أبى طالب

بدأ النبي ﷺ دعوته العلنية... وأخذ يعلم الناس أن تلك الأصنام التى يعبدونها لا تنفع ولا تضر...

(١) وقفات تربوية / د. أحمد فريد (ص: ٦٧).

وأخذ ينتظر قدوم العرب إلى موسم الحج ليدعوهم إلى الإسلام ويقول لهم: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**».

* وهنا بدأ المشركون يشعرون بخطر دعوة النبي ﷺ التي تُحرم عليهم تجارة الأصنام وعبادتها.. وتُسوِّي بين السادة والعبيد وبين الغني والفقير.. فالناس في ظل هذا الدين سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] فلا فضل لأحد على أحد بالمال أو الجاه أو السلطان أو القوة.

* وهنا قرر المشركون أن يواجهوا النبي ﷺ وأصحابه.

فذهبوا أولاً إلى عمه أبي طالب وقالوا له:

يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تُخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقًا، وردّهم ردًّا جميلاً فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يُظهر دين الله، فذهب الوفد مرة أخرى إلى أبي طالب،

(١) سورة الحجرات: الآية: (١٣).

فقالوا له: يا أبا طالب: إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك فى ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.. ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسًا بتسليم رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه، فدعا أبو طالب رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخى: إن قومك قد جاؤونى فقالوا لى كذا وكذا فأبقِ علىَّ وعلى نفسك، ولا تُحملنى من الأمر ما لا أطيق، فقال عليه الصلاة والسلام: «**يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته**»، ثم استعبر رسول الله ﷺ، فبكى فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أُسلمك لشىء أبدًا»[1].

❋ ❋ ❋

(1) سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٩).

موقف جليل لأبى طالب وقومه

قال ابن إسحاق: ثم إن قريشًا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه، وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم، مَشَوا إليه بعُمارة بن الوليد ابن المُغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عُمارة بن الوليد، أشد فتًى فى قريش وأجملهم، فخذه فلك عَقله ونصرُه، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك، وفَرَّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل؛ فقال: والله لبئس ما تكلفوننى أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا.

النبى ﷺ يستمر فى دعوته

* قام النبى ﷺ يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان... وكانت زوجته خديجة تعينه وتثبته وتخفف عنه الآلام والأحزان وتساعده بمالها.

وكان عمه أبو طالب يؤازره وينصره ويحميه رغم أنه

كان مشركًا ولم يؤمن.. لكنه كان يحب رسول الله ﷺ حبًا جمًا.

* وأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(١).

فقام النبي ﷺ يبذل أقصى جهده فى الدعوة إلى الله وهو يعلم أن الله قد تعهد بحفظه من كيد المشركين وإيذائهم.. فظل فى دعوته هذه حتى آخر لحظة فى حياته ﷺ.

أول من صلّت مع النبى ﷺ

ذكر رواة السيرة النبوية أن الله عز وجل فرض على رسوله ﷺ صلاة أول ما أوحى إليه، وكان لخديجة رضوان الله عليها فضيلة السبق إلى الصلاة، وامتثال أمر الله عز وجل فكانت أول مَن صلّت مع النبى ﷺ.

ذكر بعض أهل العلم أن الصلاة حين افتُرِضت على رسول الله ﷺ، أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له

(١) سورة المائدة: الآية: (٦٧).

بعقبه فى ناحية الوادى، فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر ليُريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل يتوضأ، ثم قام جبريل فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل.

فجاء رسول الله ﷺ خديجة فتوضأ لها ليُريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ، ثم صلى بها رسول الله، كما صلى به جبريل فصلت بصلاته[1].

صبرٌ واحتساب

وكانت خديجة رضي الله عنها ترى ما كان يتعرض له الحبيب ﷺ من الإيذاء والسخرية فتواسيه وتثبته وتخفف عنه وتُهوِّن عليه أمر الناس.. فكانت بذلك مثلاً عظيمًا وفريدًا بل وقدوة لكل أخت مسلمة زوجها داعية إلى الله تعالى لتخفف عنه ما يراه من الابتلاءات التى تجعل الحليم حيرانًا.

(١) نساء أهل البيت (ص: ٥٦).

لقد حارب الرجال والنساء فى مكة دعوة الإسلام والسلام التى يدعو إليها الحبيب المصطفى محمد ﷺ . وكان بعضٌ من رجال بنى أمية ونسائهم وبعضٌ من رجال بنى مخزوم ونسائهم قد اشتهروا فى عداوتهم لرسول الله ﷺ .

كانت أم جميل بنت حرب حمَّالة الحطب زوج أبى لهب من ألدّ أعداء نبى الإسلام، فقد سخرت زوجها أبا لهب لكى يصد عن سبيل الله وما نزل من الحق، حتى نزلت فى حقهما سورة كاملة تُندد بهما وتنذرهما بنارٍ ذات لهب.

ومن المتوقع أن تكون أم جميل قد صَبَّت نار غضبها على خديجة رضي الله عنها وحاولت أن تضع العوائق العديدة لمنع سير رسالة الإسلام وطلبت من ولديها أن يفسخا زواجهما من ابنتى رسول الله ﷺ لإرهاق الدعوة الربانية، وإرهاق محمد ﷺ وخديجة عليها سحائب الرضوان، وكذلك إرهاق ابنتي النبى ﷺ .

لكن الله عز وجل قد أكرم ابنتى رسول الله ﷺ ، وصانهما عن بيت أبى لهب وزوجه الحاقدة أم جميل، وتزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه رقية ابنة الرسول رضي الله عنها فلما تُوفيت تزوج أختها أم كلثوم فسُمِّى بذى النورين.

الهجرة إلى الحبشة.... وفراق مؤلم

ولما كان إيذاء المشركين للموحدين يزداد يومًا بعد يوم أذن النبى ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة.

فلقد كانت بداية الاضطهادات فى أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة بدأت ضعيفة، ثم لم تزل يومًا فيومًا وشهراً فشهراً حتى اشتدت وتفاقمت فى أواسط السنة الخامسة، حتى اضطروا إلى أن يفكروا فى حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفى هذه الساعة الضنكة الحالكة نزلت سورة الكهف، ردودًا على أسئلة أدلى بها المشركون إلى النبى ﷺ ولكنها اشتملت على ثلاث قصص فيها إشارات بليغة من الله تعالى إلى عباده المؤمنين، فقصة أصحاب الكهف ترشد إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة على الدين، متوكلا على الله: ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ﴾ (١).

وقصة الخضر وموسى تفيد أن الظروف لا تجرى ولا

(١) سورة الكهف: الآية: (١٦).

تنتج حسب الظاهر دائمًا، بل ربما يكون الأمر على عكس كامل بالنسبة إلى الظاهر، ففيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستنعكس تمامًا، وسيُهزم هؤلاء الطغاة المشركون - إن لم يؤمنوا - أمام هؤلاء الضعفاء المدحورين من المسلمين.

وقصة ذي القرنين تفيد أن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء، وأن الفلاح إنما هو في سبيل الإيمان دون الكفر، وأن الله لا يزال يبعث من عباده - بين آونة وأخرى - من يقوم بإنجاء الضعفاء وأن الأحق بميراث الأرض إنما هو عباد الله الصالحون.

ثم نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل لا يُظلَم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الفتن[2].

(١) سورة الزمر: الآية: (١٠).
(٢) ابن هشام (١/ ٢١٣).

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة، كان مكونًا من اثنى عشر رجلاً وأربع نسوة،.. وكان رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ وقد قال النبي ﷺ فيهما: «**إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط - عليهما السلام**»[(1)(2)].

ووقفت أمنا خديجة رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ تودع ابنتها رقية وزوجها عثمان رضي الله عنه ودموعها تقطر على وجنتيها... ولكنها مع كل هذا تصبر وتحتسب لأنها كانت تتمنى من أعماق قلبها أن تضحي بكل شيء في سبيل نُصرة هذا الدين العظيم مهما كان الثمن. فكل شيء يهون ما دام في طلب مرضاة الله[(3)].

الصحيفة الظالمة والمقاطعة العامة

فلما رأت قريشٌ أمرَ رسول الله ﷺ يعلو، والأمور تتزايد، أجمعوا على أن يتعاقدوا على بني هاشم، وبني

(1) قال الهيثمي في المجمع (9/ 84): رواه الطبراني في الكبير وفيه الحسن ابن زياد البرجمي ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات.
(2) رحمة للعالمين (1/ 61) نقلاً من الرحيق المختوم ص: (91- 92).
(3) صحابيات حول الرسول/ (ص: 50- 52).

عبد المطلب، وبنى عبد مناف، أن لا يُبايعوهم، ولا يُناكِحوهم، ولا يُكلموهم، ولا يُجالِسُوهُم حتى يُسلِّموا إليهم رسولَ الله ﷺ وكتبوا بذلك صحيفة، وعلَّقوها فى سقف الكعبة.

وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب (مؤمنهم وكافرهم) إلا أبا لهب فإنه وقف فى صف كفار قريش فى عداوتهم لرسول الله ﷺ.

وحُبِس النبى ﷺ ومن معه فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات فقد منع المشركون عنهم الطعام فلم يكن لهم طعام إلا ورق الشجر حتى تقرحت أشداقهم وبلغ بهم الجهد مبلغًا شديدًا حتى كان الناس يسمعون صوت بكاء الأطفال وصُراخ النساء من وراء الشِّعب.

وكان الصحابة إذا قدمت عير إلى مكة، يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئًا من الطعام قوتًا لعياله فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد ﷺ حتى لا يدركوا معكم شيئًا. وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى فأنا ضامن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافًا حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم

يصرخون من الجوع. وليس من يده شيء يطعمهم به. ويغدو التجار على أبي لهب فيُربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى تعب المؤمنون ومن معهم من شدة الجوع والعرى.

نقض الصحيفة الظالمة

وكانت قريش بين راضٍ وكارهٍ لهذه المقاطعة... وقد أحزنت تلك الآلام التي حدثت للمسلمين بعض ذوي الرحمة من قريش فكان أحدهم يحمل الزاد والطعام على ظهر البعير ثم يضربه في اتجاه الشّعب ليصل إلى المحصورين فيخفف عنهم شيئًا من الفقر والجوع والحرمان.

* ثم سعى بعض الناس من قريش في نقض هذه الصحيفة وكان القائم بهذا السعي هشام بن عمرو بن ربيعة.. فقد ذهب إلى مُطعم بن عدي وجماعة من قريش فوافقوا على ذلك.

ولكن أمر الله كان قد سبقهم.. فقد أخبرهم النبي ﷺ بأن الله قد سلّط على الصحيفة حشرة «الأرَضة» فأكلت كل الشروط الظالمة من الصحيفة ولم يبق منها إلا

كلمة واحدة: «باسمك اللهم».

* ثم رجع بنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة.. وحصل الصلح بالرغم من أنف أبي جهل.

وظلت الطاهرة أمنا خديجة رضوان الله عليها من وراء رسول الله ﷺ تشد أزره، وتشاركه في حمل الأذى من قومه بنفسٍ راضية صابرة محتسبة، حتى قضى الله تعالى قضاءه في هذه المقاطعة الظالمة المريرة.

* انتهى الحصار، وخرجت الطاهرة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها من الحصار ظافرة بثمرة صبرها لتتابع مع رسول الله ﷺ سيرها في الحياة زوجة أمينة مستظلة بظل الوفاء وصدق الإيمان وحسن الصبر،... وفي ثبات المسلمين على هذه الشدة الرهيبة جعلهم الله من أصحاب المقام الرفيع في الآخرة، وجعلهم سادة الأرض في الدنيا، وذاك جزاء الصابرين، وأجر الشاكرين.

الله سبحانه يُقرئ خديجة السلام

عن أنس قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ وعنده خديجة فقال: «إن الله يُقرئ خديجة السلام» فقالت: إن

الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته[١].

فيا لها من أمٍّ فقيهة ذكية تعلمت الأدب كله وتعايشت معه في بيت النبي ﷺ الذي جمع الله له كل الفضائل والمناقب والمكارم فقال (جل وعلا): ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: «**يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنِّي، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب**[٣] **لا صَخَب فيه ولا نَصَب**»[٤].

عام الحزن

وما إن خرج النبي ﷺ وأصحابه من شِعب أبي طالب حتى تتابعت عليه المحن والأحزان... فقد مات

(١) رواه النسائي في فضائل الصحابة (٢٥٤): وإسناده حسن.

(٢) سورة القلم: الآية: (٤).

(٣) القصب: هو اللؤلؤ المجوف.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٢٠) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٣٢) كتاب فضائل الصحابة.

عمه أبو طالب الذى كان يدافع عنه وينصره... ولم تكن المصيبة فى موته فحسب بل كانت المصيبة فى أنه مات كافراً مع أن النبى ﷺ كان يتابعه بالدعوة حتى آخر لحظة فى عمره.

* عن المسيب رضي الله عنه قال: «لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة. فقال رسول الله ﷺ: "يا عم **قل لا إله إلا الله. كلمة أشهد لك بها عند الله**"[1].

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب! ترغب عن ملة عبد المطلب! فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم، هو على ملة عبد المطلب، وأبَى أن يقول: لا إله إلا الله.

فقال رسول الله ﷺ: «**أما والله! لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**» فأنزل الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ**

(1) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٦٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٤) كتاب الإيمان.

أصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1] وأنزل الله تعالى فى أبى طالب فقال لرسول الله ﷺ : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2][3].

* وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه : قال للنبى ﷺ : ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال : «**هو فى ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل**[4] **من النار**»[5].

ولما مات أبو طالب وجدت قريش فرصة كبيرة لإيذاء النبى ﷺ فقد مات الذى كان يدافع عنه... فقام واحد من سفهاء قريش وألقى التراب على رأس النبى ﷺ ... حتى قال النبى ﷺ : «**ما نالت منى قريشٌ شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب**»[6].

* وكانت وفاة أبى طالب فى رجب سنة عشر من البعثة بعد الخروج من الشِّعب بستة أشهر.

---

(١) سورة التوبة: الآية: (١١٣).
(٢) سورة القصص: الآية: (٥٦).
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨٨٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤) كتاب الإيمان.
(٤) الدرك الأسفل: قعر النار.
(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨٨٣) كتاب المناقب، ومسلم (٢٠٩) كتاب الإيمان.
(٦) ضعيف: ضعفه العلامة الألبانى رحمه الله فى تخريج فقه السيرة (ص١١٥).

* وما كاد النبي ﷺ يخلع ثوب الحزن على عمه حتى فُجع بموت زوجته وشريكة عمره خديجة ﵂ التي آزرته ونصرته وبذلت نفسها ومالها لنُصرة هذا الدين. . . وكانت نعم الزوجة.

وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة على أشْهَرِ الأقوال، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره.

وحزن النبي ﷺ لموتها حزنًا شديدًا فلقد كانت نعم الزوجة الصابرة المخلصة التي آزرته طوال حياته وبذلت من أجل نُصرة هذا الدين كل غالٍ ونفيس فلم يستطع النبي ﷺ أن ينساها أبدًا وكان يحمل لها وفاء يعجز القلم عن وصفه.

فها هو الحبيب ﷺ يُثني عليها ويقول: **«كَمُلَ من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران - وخديجة بنت خويلد - وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**[1].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤١١) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٤٣١) كتاب فضائل الصحابة.

* وقد علَّق أحد العلماء الأفاضل على هذا الحديث تعليقًا لطيفًا فقال: من الموافقات اللطيفة التي جمعت الثلاث في نسق واحد أن كل واحدة منهم كفلت نبيًّا مُرسَلاً، وأحسنت صحبته وآمنت به، فآسيا ربَّت موسى، وأحسنت إليه، وصدقت به حين بُعث، ومريم كفلت عيسى وربته، وصدقت به حين أُرسل، وخديجة رغبت في النبي وواسته بنفسها ومالها، وأحسنت صحبته، وكانت أول من صدَّقه حين نزل عليه الوحي.

ولم يتزوج النبي ﷺ امرأة قبلها أبدًا.. بل ولم يتزوج عليها حتى ماتت.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت (١).

* وعن أنس رضي الله عنه أن النبي قال: **«حسبُك من نساء العالمين مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون»** (٢).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيدات

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٣٦) كتاب فضائل الصحابة.
(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٨٧٨) كتاب المناقب، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣١٤٣).

نساء أهل الجنة بعد مريم بنت عمران فاطمة وخديجة وآسية امرأة فرعون»[1].

هكذا يكون الوفاء

وحزن النبي ﷺ لموتها حزنًا شديدًا فلقد كانت نعم الزوجة الصابرة المخلصة التي آزرته طوال حياته وبذلت من أجل نُصرة هذا الدين كل غالٍ ونفيس فلم يستطع النبي ﷺ أن ينساها أبدًا وكان يحمل لها وفاءً يعجز القلم عن وصفه.

* ومن الدلائل الرائعة على وفائه ﷺ للطاهرة خديجة، ما حدث في غزوة بدر الكبرى، إذ أُسر أبو العاص بن الربيع صهر الرسول الحبيب ﷺ وزوج ابنته زينب ابنة زوجه الوفية الكريمة خديجة، فأرسلت الوفية زينب فداءً لزوجها أبي العاص؛ ومن ضمن الفداء قلادة كانت قلّدتها بها والدتها المعطاء خديجة رضي الله عنها ليلة زفافها، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رقة شديدة، وتذكَّر

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير (١١/٤١٥، رقم ١٢١٧٩)، وفي الأوسط (٢/٢٣، رقم ١١٠٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٤٢٤).

زوجته المباركة الوفية خديجة، وقال لأصحابه: «**إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا**»(١).

فما كان من أصحابه الكرام رضوان الله عليهم إلا أن سارعوا بالاستجابة للنبي الكريم ﷺ الذي حركته مشاعر الذكرى للصدِّيقة الوفية الطاهرة - رضوان الله عليها - خديجة أم المؤمنين! فلله هذه الطاهرة المعطاء أمنا خديجة التي لها دَينٌ كبير في عنق كل مسلم ومسلمة، رضي الله عنها وأرضاها(٢).

غيرة عائشة من خديجة رضي الله عنها

وبعد وفاة خديجة رضي الله عنها تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة ثم تزوج عائشة رضي الله عنها فكانت أمنا عائشة تشعر بشيء من الغيرة لكثرة ثناء النبي ﷺ على خديجة وذكرِه إياها - وذلك لفرط محبة أمنا عائشة لرسول الله ﷺ.

عن عائشة قالت: ما غرت على نساء النبي ﷺ إلا على خديجة وإني لم أدركها قالت وكان رسول الله

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٦٩٢) كتاب الجهاد، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود.
(٢) نساء مبشرات بالجنة (ص: ٣١).

ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة» قالت: فأغضبته يومًا فقلت: خديجة! فقال رسول الله ﷺ: «إني قد رُزقت حبها»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة هلكت قبل أن يتزوجني لما كنت أسمعه يذكرها وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن[2].

وفي رواية للبخاري[3].. وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: «إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد».

* وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى فأحسن الثناء، قالت: فغرت يومًا فقلت: ما

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٣٥) كتاب فضائل الصحابة وأخرجه البخاري مختصراً (٥٢٢٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨١٦) كتاب المناقب. ومسلم (٢٤٣٥) كتاب فضائل الصحابة والترمذي (٣٨٧٥).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٣٨١٨) كتاب المناقب.

أكثر ما تذكر حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيراً منها؟ قال: «أبدلني الله خيراً منها!! قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله أولادها، وحرمني أولاد الناس»[(١)].

* وفي بيت عائشة كرامات أخرى للطاهرة خديجة، فقد جاءت النبي ﷺ ذات يوم امرأة عجوز من صويحبات الطاهرة خديجة فأحسن لقاءها، وأكرم مثواها، وبسط لها رداءه فأجلسها عليه، وصار يسأل عن أحوالها وما صارت إليه، فقالت عائشة لما خرجت: يا رسول الله، أقبلت على هذه السوداء هذا الإقبال! فقال: «إنها كانت تدخل على خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان»[(٢)].

وداعًا أمنا الغالية

وهكذا صعدت تلك النفس المطمئنة إلى ربها حين جاء أجلها المحتوم بعد أن ضربت مثالاً رائعًا في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، وقد عاشت مع الرسول الكريم

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٥٢٨١) رواه أحمد وإسناده حسن.
(٢) رواه أحمد وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات، السير (٢/ ١٦٥).

خمسًا وعشرين سنة كانت فيها الزوجة الحكيمة العاقلة التى لم تبخل بشيء فيه مرضاة الله ورسوله، وقد استحقت أن تُبشَّر بالجنة.

هكذا رحلت أمنا الغالية خديجة رضي الله عنها التى لا ينتهى أبدًا عبير سيرتها... فلو استطردنا فى الكلام عنها لنفد العمر قبل أن نذكر نبذة يسيرة من مكارمها وفضائلها التى فاح عبيرها فملأ الكون كله.

وتالله إن لأمنا خديجة رضي الله عنها فضلاً كبيرًا على كل مسلم ومسلمة إلى قيام الساعة. فهى التى آزرت الحبيب ﷺ فى دعوته وساندته فى محنته وواسته فى كُربته وآنسته فى وحدته.

وأخيرًا فلا أملك ونحن نودع أمنا الغالية إلا أن أقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾(١).

فرضى الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها(٢).

❊ ❊ ❊

(١) سورة القمر: الآيتان: (٥٤-٥٥).
(٢) صحابيات حول الرسول (ص: ٦٣- ٦٤).

سودة بنت زمعة رضي الله عنها

[illegible]

سودة بنت زمعة رضي الله عنها

حبايبي الحلوين:

ومـا زلنا نعيش في بستـان الخيـر والبركـة والعفـاف والتُّقى... ففي كل يوم نرى زهرة جديدة فـاح عبيرها على الكون كله.

ونحن اليـوم على موعد مع صـحابيـة جليلة مبـاركة كـانت تبذل كـل ما تستطيع لتُدخل السـعادة والسـرور والبهجة على قلب النبي صلى الله عليه وسلم.

إنهـا من السابقـات إلى الإسلام.... إنهـا صاحـبة الهجـرتين إلى الحبـشة وإلى المدينة المنورة... إنـها التي آثرت رضى رسـول الله صلى الله عليه وسلم على حظوظ نفسـها... إنها التي قـالت عنها أم المؤمنين عائشة: «مـا رأيت امرأة أحبَّ إليَّ أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة».

* إنها أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع سيرتها العطرة التي تطيب بسماعها القلوب فهيا إلى تلك الواحة المباركة.

من ظلمات الشرك والكفران
إلى أنوار التوحيد والإيمان

لقد كانت البشرية تعيش في جاهلية وشرٍّ فجاء الحبيب ﷺ بهذا الدين العظيم لينقل البشرية من أوحال الشرك والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان فاستجاب لدعوته أصحاب الفِطَر والقلوب النقية التقية فخلعوا ثوب الجاهلية على عتبة الأرقم ابن أبي الأرقم ولبسوا ثوب الإسلام فانقادت قلوبهم وجوارحهم لطاعة الله ولخدمة دين الله عز وجل.

إن هؤلاء الصحب الكرام الذين استجابوا لهذه الدعوة المباركة في مهدها هُم الذين حملوا هَمَّ هذا الدين ونشروا هذه الرسالة إلى أرجاء الكون على أشلائهم ولحومهم ودمائهم.

* وكان أول من أسلم من النساء خديجة رضي الله عنها التي كانت تؤازر الحبيب ﷺ في أعتى المواقف وتعينه على أمر الدعوة.

* وكان أول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي لم يتردد لحظة واحدة عن قبول الدعوة فما إن عرض عليه النبي ﷺ دعوته حتى وجده يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

وما إن أسلم أبو بكر رضي الله عنه حتى حمل أمانة الدين على أعناقه وخرج يدعو الناس إلى دين الله - جل وعلا - فأسلم على يديه ستة من العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة فيما بعد.

فيأتي الصدّيق رضي الله عنه يوم القيامة وهم في ميزان حسناته.

بل وأسلم على يديه خلقٌ كثير غير هؤلاء الأطهار الأبرار.

وهكذا يجب أن يكون الداعية... يحمل همَّ الناس من حوله ويخشى عليهم من عذاب الله ويأخذ بأيديهم إلى مرضاة الله وجنته[1].



(١) أصحاب الرسول/ للمصنف (١/ ٥٨ - ٥٩).

والسابقون الأولون

وكان من بين السابقين الذين استجابوا لدعوة الحق من أول وهلة - السكران بن عمرو أخو الصحابي الجليل سُهيل بن عمرو - فلقد أسلم السكران رضي الله عنه ولامس الإيمان شغاف قلبه... بل وأسلمت معه زوجه وابنة عمه سودة بنت زمعة رضي الله عنها وعاشا سويًا في رحاب التوحيد والإيمان أجمل لحظات العمر.

نعم والله إن الحياة في ظل الإيمان هي الحياة الطيبة كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

وهكذا كانا من السابقين الذين أسلمت قلوبهم وجوارحهم لله - جل وعلا - فكانا من الذين كتب الله لهم السعادة في الدنيا والآخرة فقد قال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[2].

---

(١) سورة النحل: الآية: (٩٧).
(٢) سورة التوبة: الآية: (١٠٠).

صبرٌ واحتساب

وما هي إلا ساعات معدودة حتى شاع خبرُ إسلامه رضي الله عنه وإذا بهؤلاء الذين نفخ الشيطان في عقولهم، فظنوا أنهم هم السادة مع أنهم عبيدٌ لشهوات بطونهم وفروجهم... يعرفون خبر إسلام السكران بن عمرو رضي الله عنه فيصبون عليه العذاب صبًا.

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم ويحميهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه**»[1]. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام.

* وهاجرت سودة مع زوجها رضي الله عنهما وعاشا في رحاب

(١) صحيح: رواه البيهقي (٩١٩) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٣١٩٠).

النجاشي - ذلكم الملك العادل - أطيب حياة في ظل الإيمان والتوحيد.

وبعد ذلك عادا إلى مكة المكرمة لينعما بصُحبة الحبيب ﷺ ... فإن المؤمن يستعذب العذاب في جوار رسول الله ﷺ عن الراحة والنعيم بعيدًا عن الحبيب ﷺ.

فلما عادا إلى مكة وجدا أن قريشًا ما زالت تعلن العداء لدعوة النبي ﷺ وتسلط على أصحابه من العذاب ألوانًا ولكن النبي ﷺ كان يُطمئن قلوبهم بأن نصر الله قريب وأن العزة ستكون لأوليائه والخزي سيكون لأعدائه[(١)].

الرؤيا المباركة

وفي يوم من الأيام رأت سودة رضي الله عنها رؤيا عجيبة فقالت لزوجها السكران بن عمرو: لقد رأيت الليلة في منامي كأن رسول الله قد وطئ عنقي، فما تفسير ذلك.

فقال السكران بن عمرو (زوج سودة بنت زمعة): إن صدقت رؤياك يا سودة، فسوف أموت أنا ويتزوجك رسول الله.

(١) صحابيات حول الرسول/ للمصنف (ص: ٦٥- ٦٩).

دُهشت سودة من تأويل زوجها السكران بن عمرو لرؤياها، وأنكرت نفسها هذا التفسير، واستبعدته من الذاكرة تمامًا، ولم تعلق على قول زوجها بشيء، ومن ثَم لم تُلْقِ بالاً بعد ذلك إلى ما رأت في منامها، إذ جال بخاطرها أن ذلك شيء بعيد، أو هو شيء مستحيل، فأنَّى لسودة بنت زمعة أن تقرن نفسها برسول الله ﷺ وهي المهاجرة مع زوجها إلى الحبشة فرارًا من اضطهاد المشركين للمسلمين بمكة أن تعود إليها لتتزوج من رسول الله ﷺ زوج خديجة سيدة نساء قريش كما فُسرت الرؤيا من زوجها.

وهل يُعقل أن يتزوج محمد ﷺ وخديجة على قيد الحياة أم أولاده وبناته؟؟.

مضت الأيام، وقريش تحارب الإسلام والمسلمين فيما كان المسلمون متمسكين بدينهم، ومرَّ عامٌ وعامٌ ومرض السكران بن عمرو، وفيما كانت زوجته سودة تُمرضه وتقضي له حاجاته، قالت: يا ابن العم، لقد رأيت الليلة في منامي كأن القمر قد انقضَّ عليَّ من السماء وأنا مضطجعة، وسكتت سودة لحظة ثم واصلت حديثها

فقالت: فما تفسير ذلك يا ترى...؟!

وصمت السكران برهة يفكر فى تأويل رؤيا زوجته، ويتأمل فى تفسير معناها، وقد مرت بخاطره الرؤيا التى قصَّتها عليه زوجته سودة منذ أمدٍ بعيد ثم قال: يا سودة، لا ألبث حتى أموت ويتزوجك رسول الله ﷺ.

مرة أخرى دُهشت سودة من تأويل زوجها لرؤياها، فأنكرت فى نفسها هذا التأويل وهذا التفسير، وقد وثب إلى ذهنها ما كان من تفسير زوجها لرؤياها التى قصتها عليه قبل ذلك بوقتٍ طويل، ولم تُعلّق سودة على قول زوجها بشيء ولم تُلْقِ بالاً إليه[1].

فراق مؤلم

وتمر الأيام ومازال الزوجان يتعايشان فى كل لحظة مع كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ إلى أن جاءت اللحظة التى نام فيها السكران على فراش الموت وفاضت روحه إلى بارئها - جل وعلا - فمات فى مكة فحزنت عليه سودة حُزنًا شديدًا.

(1) أزواج النبى ﷺ/ أ. عبد المنعم الهاشمى (ص: ١١٠- ١١١).

وأصبحت سودة رضي الله عنها وحيدة في هذه الدنيا ولكنها صبرت صبراً جميلاً ورضيت بقضاء الله لأنها تعلم يقيناً أن الله - جل وعلا - أرحم بعباده من رحمة الأم بطفلها الرضيع.

وأن العبد إذا صبر واحتسب فإن الله يعوضه خيراً ولكنها لم يكن يخطر ببالها أبداً أنها ستكون في يوم من الأيام أُمًّا للمؤمنين وزوجة لسيد الأولين والآخرين محمد ابن عبد الله ﷺ.

وكان من أهم الأحداث التي وقعت في تلك الفترة من الوقت أيضًا وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ الذي كفله صغيراً وآزره كبيراً، وناصره على دعوته، وحماه من أذى المشركين.

وتبع وفاة أبي طالب، وفاة خديجة زوج رسول الله ﷺ التي صدقته وآمنت به، بل كانت أول من آمن به، وكانت له وزير صدق طوال سنوات كفاحه وجهاده.

❊ ❊ ❊

موعدٌ مع السعادة

وكان النبي ﷺ في تلك الأيام حزينًا لموت خديجة رضي الله عنها التي كانت أحب الناس إلى قلب الحبيب ﷺ .

فقد كانت خديجة رضي الله عنها هي الزوجة والحبيبة والصديقة ووزيرة الصدق وأم أولاده . . . ففقد النبي ﷺ كل ذلك في لحظة واحدة .

* وفي ظل هذه الظروف الصعبة لسير الرسالة المحمدية مَن هي المرأة التي تستطيع أن تملأ الفراغ الذي تركته أمنا الغالية خديجة رضي الله عنها .

اعتقد أن مكان خديجة لا يملؤه إلا خديجة، وأن مكانها ومكانتها في قلب رسول الله ﷺ سيبقى لها وحدها، لا تشاركها واحدة مَن نسائه الأخريات فيما بعد[1].

* ولكن سودة رضي الله عنها كانت على موعد مع سعادة الدنيا والآخرة فلقد شاء الملك (جل وعلا) أن يتزوجها الحبيب ﷺ . . . ولكن كيف كان ذلك؟ .

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع هذا الحدث المهيب .

(١) نساء أهل البيت (ص: ٨٠- ٨١).

هكذا أصبحت أمًّا للمؤمنين
وزوجة لسيد الأولين والآخرين ﷺ

لقد كان أصحاب الحبيب ﷺ يعرفون قدر خديجة رضي الله عنها عند النبى ﷺ فعندما ماتت كانوا يرجون أن يرزقه الله عز وجل بمن يخفف عنه من آلامه وأحزانه . . . ولكن لم يكن أى واحد منهم يجرؤ أبدًا أن يكلم النبى ﷺ فى أمر الزواج . . . فشاء الحق - جل وعلا - أن تتجرأ واحدة من فُضليات نساء الصحابة ألا وهى خولة بنت حكيم لتعرض هذا الأمر على رسول الله ﷺ من أجل إدخال الفرح والسرور على قلبه المحزون .

* وها هى أمنا عائشة رضي الله عنها تحكى لنا كيف استطاعت خولة رضي الله عنها أن تعرض هذا الأمر على رسول الله ﷺ .

عن عائشة قالت: لما توفيت خديجة، قالت خولة بنت حكيم - امرأة عثمان بن مظعون، وذلك بمكة -: يا رسول الله ألا تتزوج ؟ قال: «مَنْ» قالت: إن شئت بكرًا[1] وإن شئت ثيبًا[2] ؟ قال: «فمن البكر ؟» قالت:

---

(١) البكر: هى الفتاة التى لم يسبق لها الزواج.
(٢) الثيب: هى المرأة التى تزوجت قبل ذلك.

ابنة أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر.

قال: «فمَن الثيِّب ؟».

قالت: سودة بنت زمعة، آمنت بـك، واتبعتك على ما أنت عليه.

قال: «فاذهبى فاذكريهما علىَّ»[1].

قالت: فذهبتُ إلى سودة وأبيـها زمعة - وكان شـيخًا كبيرًا - فقلت: ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟

فقالت سودة فى دهشة: وما ذاك يا خولة ؟

قلت: أرسلنى رسول الله ﷺ إليك لأخطبك عليه.

غمر سـودة سرورٌ عميقٌ، واسـتشعرت دمـوع الفرح تبلل وجهـها وروحهـا، وتذكرت ما رأت فى نومـها منذ فتـرة، وها هى رؤياها قد جعلهـا ربها حقًّا، وما كانت تطمع فى أن تكون زوجًا لرسول الله ﷺ بعد أن نالت منها السنون وكبرت فى السن، وإنه لشرف عظيم لا يدانيه شرف أن تصـبح أم المؤمنين...، ثم توجهـت إلى خولة وقالت لها والفرح يملأ وجهها: وددتُ ذلك ولكن ادخلى

(١) قال الهيثمى فى المجمع (١٥٢٨٥) رواه الطبـراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث.

على أبى فاذكرى له ذلك.

قالت خولة: فدخلت على أبى سودة، وحييتهُ بتحية أهل الجاهلية وقلت: أنْعِم صباحًا.

فقال: مَن أنتِ يا هذه؟

فقلتُ: خولة ابنة حكيم زوج عثمان بن مظعون.

قالت خولة: فرحَّبَ بى والد سودة، وقال ما شاء الله أن يقول، فقد كان على علم بأنى خرجت عن آلهة قومى، وآمنت وهاجرت إلى الحبشة، ثم عُدت إلى مكة، وسألنى عن حاجتى وقال: ما شأنك؟!

فقلت: إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يذكر ابنتك سودة.

قال: إن محمدًا كُفْءٌ كريم، ولكن ما تقول صاحبتك سودة؟

قلت: هى تحب ذلك.

قال: إذن ادعيها إلىَّ.

فذهبتُ ودعوتها؛ فقال لسودة: أى بُنية، إن خولة ابنة حكيم تزعم أن محمد بن عبد الله قد أرسل يخطبك، وهو كفء كريم، أتحبين أن أزوجك منه؟

فقالت سودة فى صوت يفصح عن رغبتها: نعم إن أحببت.

فالتفت زمعة إلى خولة وقال لها: قولى لمحمد فليأتنا.

قالت خولة: فجاء رسول الله ﷺ وعقد عليها وملكها فزوّجه إياها بعد أن أصدقها أربعمائة درهم.

وكان لأم المؤمنين سودة أخٌ يُدعى عبد الله بن زمعة لا يزال على دين قريش، وكان خارج مكة، فلما قَدِم مكة، وجد أن أخته سودة قد تزوجها محمد ﷺ، فتملّكه الغيظ، وركبته حمى الجاهلية، وحثا بالتراب على رأسه أسفًا وحزنًا على هذا الزواج، ودخل على أبيه يتوعّد ويُهدّد.

ولما فتح الله عز وجل بصيرته وبصره على محاسن نور الإسلام وآمن بالله، وبمحمد رسولاً ونبيًّا، قال مُحدثًا عن نفسه: إنى لسفيهٌ يوم أحثو التراب على رأسى، أن تزوج النبى ﷺ سودة[1].

* * *

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٥٣٤٠) رواه الطبراني ورجاله ثقات.

فى رحاب بيت النبوة

ولقد كانت سودة رضي الله عنها أول من تزوج بها النبى صلى الله عليه وسلم بعد وفاة خديجة رضي الله عنها ومكثت عنده وحدها نحواً من ثلاث سنوات حتى تزوج عائشة رضي الله عنها.

وكانت تعلم يقينًا أنها لن تستطيع أن تملأ الفراغ الذى تركته خديجة رضي الله عنها لكنها كانت تحاول قدر طاقتها أن تملأ هذا البيت المبارك راحة وسعادة وسروراً فكانت تخفف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يلقاه من اضطهاد المشركين وكانت تحدثه عن ذكرياتها فى بلاد الحبشة وتكثر من أخبار ابنته رقية وزوجها عثمان رضي الله عنهما لأنها تعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يعرف أخبارهما ويطمئن عليهما ويسعد بسيرتهما . . . هكذا كانت تبحث عن أى شىء يُدخل السعادة والسرور على قلب النبى صلى الله عليه وسلم .

سعادة دائمة

وظلت سودة رضي الله عنها ملازمة للحبيب صلى الله عليه وسلم تقتبس من هديه وأخلاقه وعلمه وحلمه حتى أصبحت السعادة لا تفارق قلبها لحظة واحدة وحُقَّ لها أن تسعد بجوار رسول

الله ﷺ فوالله إن الواحد منا يتمنى أن يرى النبى ﷺ ولو مرة واحدة فى منامه فكيف بمن يعيش معه ويكلمه فى يقظته؟.

ولم يكن يخطر ببال سودة رضي الله عنها أن تصبح فى يوم من الأيام أُمًّا للمؤمنين وزوجة لسيد الأولين والآخرين ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

واستيقظت الذكريات

وفى البيت النبوى، كان لسودة رضي الله عنها مواقف وضيئة، فقد قدمت مكة رقية ابنة رسول الله ﷺ وزوجها عثمان بن عفان من هجرتهم من الحبشة، ووقعت عيناها على الدار الغالية، دار أمها الطاهرة خديجة رضي الله عنها، تلك الدار التى شهدت رقية فيها أحلى أيام عمرها،... دار الوحى والإيمان، ودار الصدق والوفاء فثارت بداخلها مشاعر متباينة كانت مزيجًا من اللهفة والرهبة، والفرح والحزن، والقلق، والهدوء.

وطرقت الباب، فانتشر خبر قُدوم رقية وعثمان، وراحت أم كلثوم وفاطمة ومن كان هناك يستبقون إليها، وتعانقت الأخوات، وسالت العبرات، واستيقظت

الذكريات، وأحسَّ جميعهم غياب الأم الحنون، فسالت دموعها من البكاء.

وجاءت سودة بنت زمعة ثقيلة في خطواتها، وراحت ترحب هي الأخرى برقية وعثمان رضي الله عنهما، وفي مثل لمح البصر، هبّت ذكريات سودة عن هجرتها إلى الحبشة مع المهاجرين، وأخذت تسأل رقية وعثمان، عمّن تركا خلفهما في الحبشة، فقد كانت سودة تقضي أغلب أوقاتها مع رقية وخولة بنت حكيم وبعض النسوة يتذاكرن أمر الإسلام، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبلغ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أن رقية وعثمان رضي الله عنهما قد رجعا من الحبشة، فإذا بوجهه الشريف مسفرٌ ضاحكٌ مستبشرٌ، وإذا بالحنان يتدفق من قلبه الشريف، وضم رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته رقية رضي الله عنها إليه، وغمرها بعطفه، وأخذ عثمان بين ذراعيه، ثم جلسوا يصغون إلى رقية وعثمان وهما يرويان حديث الهجرة والحبشة والمسلمين والنجاشي، وربما شاركت سودة رضي الله عنها في الحديث عن الذكريات في أرض الحبشة(1).

(1) نساء أهل البيت (ص: ٨٩- ٩٠) بتصرف.

الهجرة إلى المدينة المنورة

ولما اشتد إيذاء المشركين بأصحاب الحبيب ﷺ أذن لهم بالهجرة إلى المدينة حيث نزلوا في رحاب الأنصار الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

ثم هاجر النبي ﷺ بعد ذلك إلى المدينة ليقيم للإسلام دولة تكون منارة للكون كله... ولما استقر النبي ﷺ بالمدينة بعث زيدًا، وبعث معه أبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين، وخمس مائة درهم. فخرجوا جميعًا. وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة، وأم كلثوم، وبسودة بنت زمعة، وبأم أيمن، وأسامة ابنه[2].

* * *

(١) سورة الحشر: الآية: (٩).
(٢) ابن سعد (١/ ٢٣٧- ٢٣٨).

وتوالت البركات

واستقرت سودة في بيت النبي ﷺ . . . وبعد ذلك بفترة يسيرة دخل النبي ﷺ بعائشة رضي الله عنها وكانت تحب سودة رضي الله عنها حبًا شديدًا وكان لها معها أخبار مشرقة.

ثم توالت الخيرات والبركات وتزوج النبي ﷺ بسائر أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ليكتمل هذا العقد الفريد.

إنه بيت كريم مبارك أذهب الله عن أهله الرجس وطهره تطهيرًا وأفاض عليه البركات والخيرات ليكون البيت وأهله شمسًا تضيء للناس جميعًا طريقهم إلى الله عز وجل.

ويؤثرون على أنفسهم

ولقد كانت سودة رضي الله عنها تجتهد قدر طاقتها لإرضاء الحبيب ﷺ حتى ولو كان ذلك على حساب سعادتها. . . وكانت تعلم يقينًا أن أحب نسائه إليه هي عائشة رضي الله عنها فأرادت أن تُدخل السعادة على قلب الحبيب ﷺ فوهبت يومها لعائشة تبتغي بذلك مرضاة رسول الله ﷺ.(١)

(١) صحابيات حول الرسول/ للمصنف (ص: ٧١- ٧٧).

إن سـودة لم تكن فى وقتٍ مـا تتطلع إلى أن تنال من عواطف الرسول أكثر مما تنال الآن.. فحينما دخلت بيت الرسول ﷺ كانت تعلم علم اليقين أنها لن تملأ من دار محمـد ﷺ شيئًا من مكان خديجـة، وكانت تعلم كل العلم أنها لن تأخذ من قلب محـمد ﷺ ولا من نفسه شيئًا يشبـه ما كـان فى قلبه ونفسـه لخديجـة.. بل كان حَسْبُها أن تكون زوجة لـرسول الله ﷺ وحسبُـها أن تقوم على خدمته وتسهر على راحته.

تقدم العمر بسودة، وثقلت عن الحركة، وشاركتها فى قلب الرسول، وفى نفسه زوجات أُخريات - لا تطمع أن تنال من قلبه، ولا من نفسه أكـثر مما كانت تنال من قبل، فحسبـها أنها زوجة نبى الأمة، وكفاهـا أنها قرينة لرسول الله ﷺ (١).

* ولكنهـا فى لحظة حاسـمـة فى حيـاتها خـافت أن يُطلقهـا النبى ﷺ فما كـان منها إلا أن آثرت أن تكون زوجة للـنبى ﷺ فى الجنة مقـابل أن تتنازل عن بعض حقـوقها فى الدنيـا ومن أجل ذلك وهبت يومها لعـائشة

(١) أزواج النبى (ص: ١١٨).

رضي الله عنها... ورضى النبى ﷺ منها ذلك فكان يقسم لكل زوجة يومًا ويقسم لعائشة يومين.

عائشة تثنى عليها رضي الله عنها

وهذا الموقف العظيم من الإيثار الذى يندر وجوده فى دنيا النساء جعل عائشة رضي الله عنها فى غاية الدهشة حتى أنها أثنت عليها ثناءً يعجز القلم عن وصفه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت امرأة أحَبَّ إلىَّ أن أكون فى مِسلاخِها من سودة بنت زمعة[1].

موقف طريف

ولقد كانت الألفة والمحبة التى بين سودة وعائشة رضي الله عنهما سببًا فى حدوث بعض المواقف الطريفة... ففى إحدى الجلسات كان هذا الموقف الطريف.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أتيت النبى ﷺ بخُزيرة[2] قد طبختها له فقلت لسودة - والنبى ﷺ بينى وبينها -: كُلى. فأبت فقلت: لتأكلن أو لألطِخَنَّ وجهك، فأبت...

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٦٣) كتاب الرضاع.
(٢) الخزيرة: نوع من الطعام.

فوضعتُ يدى فى الخزيرة فطليت وجهها، فضحك النبى ﷺ فوضع بيده لها وقال لها: «الطخى وجهها»، فضحك النبى ﷺ فمرَّ عمر فقال: يا عبد الله يا عبد الله فظن أنه سيَدخُل فقال: «قوما فاغسلا وجوهكما». فقالت عائشة: فما زلت أهاب عُمر لهيبة رسول الله ﷺ (١).

مودة ورحمة

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

ولقد كانت المودة والرحمة فى بيت الحبيب ﷺ قد بلغت ذروتها فكان البيت قائمًا على المودة والرحمة وكان النبى ﷺ يداعب أزواجه أحيانًا ويمزح معهن ولكن كان لا يقول إلا حقًا وصدقًا.

وكانت سودة رضي الله عنها تمازحه كثيرًا وتُضحكه وتُدخل عليه البهجة والسعادة والسرور.

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٧/ ٤٤٩) وإسناده حسن وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٣١٣١).
(٢) سورة الروم: الآية: (٢١).

قالت سَوْدَةُ: يا رسول الله، صليت خلفك البارحة، فركعت بى، حتى أمسكت بأنفى مخافة أن يقطر الدم. فضحك.

فاستبقوا الخيرات

ولقد كانت سودة رضي الله عنها تسارع دائمًا إلى كل طاعة... فقد كانت هذه الخصلة المباركة متأصلة فى قلوب الصحابة والصحابيات جميعًا... الكل يتسابق إلى مرضاة الله فهم يعلمون أن الدنيا مزرعة للآخرة وأن من زرع هنا فسوف يحصد هناك.

وحينما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزوجاته جميعًا إلى مكة فى حجة الوداع، وحينما حان وقت رمى الجمرات بمنى استأذنت سودة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمح لها لثقل جسمها وبطء حركتها، أن ترمى بجمراتها قبل زحمة الناس فأذن لها،... تقول عائشة رضي الله عنها: استأذنت سودة ليلة المزدلفة، أن تدفع قبل حُطمة الناس، وكانت امرأة ثبطة - أى ثقيلة - فأذن لها، فدفعت قبل حطمة الناس، وأقمنا حتى أصبحنا نحن، ثم دفعنا بدفعه، فلأن أكون

استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته سودة أحب إليَّ من مفروح به[1].

عاشت أم المؤمنين سودة بعد وفاة الرسول الكريم حتى سنة ثلاث وعشرين من الهجرة وكانت قد لزمت بيتها حتى إنها لم تخرج للحج، لأنها قالت بعد حجة الوداع مع النبي ﷺ: «هذه الحجة، ثم ظهور الحُصُر» أي لزوم البيت لا خروج منه.

وكانت تقول: «حججت واعتمرت فأنا أقَرُّ في بيتي كما أمرني الله عز وجل، لا تحركني دابة بعد رسول الله ﷺ».

كرمٌ وسخاء

ولقد كانت رضي الله عنها كريمة سخية لا تميل نفسها إلى حطام الدنيا ومتاعها الزائل بل كلما جاءها مالٌ تؤثر به مَن حولها رغبة فيما عند الله من نعيم لا يفنى ولا يزول.

* ففي يوم من الأيام يرسل لها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه غرارة مملوءة بالدراهم فلما ذهبوا بها إليها

(١) أخرجه البخاري (١٦٨١) كتاب الحج، ومسلم (١٢٩٠) كتاب الحج، وأحمد (٦/١٦٤).

قالت: ما هذه. قالوا لها هذه دراهم.

قالت وهي في غاية الدهشة: دراهم في غرارة كبيرة مثل التمر!!! ثم نادت على جاريتها وفتحت الغرارة ووزعتها على الفقراء واليتامى والمساكين.

يأتيها الإذن من فوق سبع سماوات

وها هي رضي الله عنها تقع في موقف يسبب لها حرجًا فترجع إلى النبي ﷺ لتخبره وإذا بالوحي يتنزل على النبي ﷺ من فوق سبع سماوات ليرفع عنها وعن غيرها الحرج بعد هذا اليوم.

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجت سودة بنت زمعة رضي الله عنها ليلاً فرآها عمر فعرفها فقال: إنك والله يا سودة ما تخفين علينا، فرجعت إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك له وهو في حُجرتي يتعشى، وإن في يده لعَرْقًا، فأنزل الله عليه فرُفِعَ عنه وهو يقول: «قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن»(١).

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٣٧) كتاب النكاح، ومسلم (٢١٧٠) كتاب السلام.

وحان وقت الرحيل

وظلت سودة رضي الله عنها تتعايش مع كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ بقلبها وجوارحها فكانت السعادة ترفرف على سمائها والسكينة تتنزل على قلبها - ولكن دوام الحال من المحال -.

فلقد جاء اليوم الذى دخل فيه الحزن قلبها وسكن فيه، فلقد مات رسول الله ﷺ وهو صاحب القلب الرحيم الذى غمرها برحمته ومودته وحنانه وعلمه وأخلاقه... فها هى تفقد كل ذلك فى لحظة واحدة.

فحزنت لموته حزنًا كاد أن يمزق قلبها ولكنها احتسبته عند الله لتنال ثواب الصابرين.

وحسبها أن النبى ﷺ مات وهو راضٍ عنها... بل وحسبها أنها ستكون زوجته أيضًا فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وظلت سودة رضي الله عنها على العهد الذى تركها عليه رسول الله ﷺ عابدة صائمة قائمة لله - جل وعلا -...

وامتدت بها الحياة إلى خلافة عمر رضي الله عنه فكان أبو بكر وعمر وسائر الصحابة رضي الله عنهم يعلمون قدرها ومكانتها ويُحسنون إليها غاية الإحسان.

وفي آخر خلافة عمر نامت أمنا سودة على فراش الموت وفاضت روحها الطاهرة إلى بارئها - جل وعلا -.

وإن كانت سيرتها العطرة قد انتهت عند هذا اليوم إلا أن عبير سيرتها مازال يملأ الدنيا كلها فهي قدوة لنسائنا وبناتنا وأخواتنا عبر العصور والأزمان.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.



عائشة بنت أبى بكر رضي الله عنهما

عائشة بنت أبى بكر رضي الله عنها

حبايبى الحلوين:

وها نحن نفتح صفحة جديدة مباركة نتعرف من خلالها على أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصدّيق رضي الله عنهم.

* إنها الزهرة التقية النقية التى نبتت فى حقل الإسلام، وسُقيت بماء الوحى .. إنها الفتاة التى رضعت الصدق والتقوى والوفاء والزهد والورع من أبويها.. إنها الطاهرة المطهرة التى أنزل الله براءتها من فوق سبع سموات.

إنها أحب الناس إلى قلب رسول الله ﷺ.

* فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع سيرتها العطرة.

❋ ❋ ❋

فى رحاب المكارم

وقبل أن نتعايش مع قصتها المباركة تعالوا بنا لنقف وقفة مع المكارم التى أحاطت بها من كل جانب.

* فزوجها هو سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ الذى أرسله الله رحمة للعالمين.

* وأبوها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذى لم تطلع الشمس على بشرٍ بعد الأنبياء والمرسلين أفضل منه... إنه ثانى اثنين... إنه أحب الناس إلى قلب رسول الله ﷺ.

* وأمها هى الصحابية الجليلة أم رومان بنت عامر تلكم الصحابية الجليلة التى قدمت الكثير والكثير لخدمة هذا الدين العظيم.

* وأختها لأبيها أسماء بنت أبى بكر - ذات النطاقين رضي الله عنها.

* وزوج أختها هو حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأول من سلّ سيفًا فى سبيل الله... إنه الزبير بن العوام رضي الله عنه.

* وجدُّها لأبيها - أبو قحافة - الذى أسلم ونال شرف صحبة النبى ﷺ .

* وجدتها لأبيها - أم الخير - سلمى بنت صخر التى أسلمت ونالت شرف الصحبة .

* وأما عماتها الثلاث - من الصحابيات - وهن: أم عامر وقُرَيبة وأم فروة - بنات أبى قحافة - .

* وأما شقيقها - عبد الرحمن - فهو من الشجعان والرُّماة المذكورين .

* فتلك هى الشجرة المباركة التى خرجت عائشة من جذورها وعاشت بين أغصانها فكانت زهرة نادرة فى دنيا الناس(١) .

من هنا نبدأ

وإذا أردنا أن نتعايش مع سيرة أمنا الغالية عائشة رضي الله عنها فلا بد أن نعلم أن سيرتها العطرة لا بد أن تبدأ من أبيها الذى كان أحب الناس إلى قلب رسول الله ﷺ .

إنه الرجل الذى نصر رسول الله ﷺ يوم خذله

(١) صحابيات حول الرسول / للمصنف (ص: ٨٤-٨٥).

الناس... وآمن به يوم كفر به الناس... وصدَّقه يوم كذَّبه الناس.

إنه أفضل الصحابة بلا خلاف... ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على رجلٍ خير منه.

إنه أول من آمن من الرجال على الصحيح... إنه مَن وُزن إيمانه بإيمان الأمة فرجح إيمانه.

إنه الورع الحيى... الحازم الرحيم... التاجر الكريم... صاحب الفطرة السليمة من أدران الظلام والجاهلية.

كان شبيهًا بالرسول ﷺ... وأنعم به من شَبَه.

* إنه الرجل الذى بذل نفسه وماله لخدمة الإسلام والمسلمين.

* إنه الرجل الذى اختاره النبى ﷺ ليكون صاحبه فى أعظم حدث فى العالم كله... ألا وهو الهجرة من مكة إلى المدينة.

* إنه الرجل الذى أعاد الأمة إلى الإسلام بعد أن ارتد أكثر العرب بعد موت النبى ﷺ.

* إنه الرجل الذى انتشر الإسلام فى عهده فى أكثر بقاع الأرض.

* إنه أول من جمع القرآن كله فى مصحفٍ واحد.
* إنه الزاهد العابد الخاشع المتواضع المجاهد الكريم.
* إنه أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه.

ميلاده ونشأته وأخلاقه قبل الإسلام

وُلد أبو بكر الصديق بعد عام الفيل بعامين فى قبيلة بمكة تُسمى (تَيم) ... فهو أصغر من النبى ﷺ بعامين لأن النبى ﷺ وُلد عام الفيل.

وكان أبو بكر قد تربَّى على مكارم الأخلاق منذ صغره فكان حسن الخُلق وكان يُحسن الكتابة والقراءة وكان أعلم أهل قريش بأنساب العرب... لم يعرف اللهو أبدًا ولم يقع فى المعاصى التى كان أكثر الناس يقعون فيها.

وها هو رضي الله عنه تراه قد حرَّم على نفسه الخمر فى الجاهلية فلم يشربها قط لا فى الجاهلية، ولا فى الإسلام، وذلك أنه مَرَّ وهو فى الجاهلية برجلٍ سكران يضع يده فى العذرة - الغائط- يدنيها من فيه، فإذا وجد ريحها صدف عنها، فحرَّمها أبو بكر على نفسه.

* ولم يسجد لصنمٍ قَط.

وها هو يحكى بنفسه لبعض الصحابة ويقول لهم: ما سجدت لصنم قط وذلك أنى لما كبرت أخذنى والدى (أبو قُحافة) إلى بيت الأصنام وقال لى: يا بُنى هذه آلهتك فاسجد لها... ثم انصرف أبي وتركنى، فما كان منى إلا أن اقتربت من الصنم وقلت له: إنى جائع فأطعمنى فلم يُجبنى... فقلت له: إنى عارٍ فاكسُنى فلم يُجبنى فألقيت عليه صخرة فسقط على وجهه فانكسر ... فعُدت إلى البيت وقد تيقنت أن تلك الأصنام ما هى إلا أحجار لا تنفع ولا تضر.

* وكان أبو بكر محبوبًا فى قريش لصدقه وأمانته وأخلاقه العذبة الرقيقة فكان رجال قريش يأتونه ويألفونه ويحبونه.

وكان أبو بكر من قبيلة ضعيفة قليلة العدد والعُدة والمال ولذلك لم يتولوا أى عمل لقريش ... وكان أبو بكر يتاجر فى ماله القليل حتى أصبح بعد ذلك من الأغنياء بفضل الله أولاً ثم بفضل صدقه وأمانته.

فكان يعطف على الفقير والمسكين واليتيم وينصر الضعفاء والمظلومين فازداد حُبّ الناس له يومًا بعد يومٍ

حتى أصبح من أحب الناس إلى أهل قريش بعد النبى محمد ﷺ الذى كان معروفًا بأنه الصادق الأمين.

إسلامه رضي الله عنه وصبره على الإيذاء

كان أبو بكر صديقًا للنبى ﷺ قبل البعثة فكان أبو بكر يحب النبى ﷺ حبًا جمًا، وكان النبى ﷺ يبادله هذا الحب.

فقد كانا متشابهين فى الصدق والأمانة وفعل الخيرات واللين والرحمة.

وتمر الأيام وينزل الوحى على النبى ﷺ ويُبعث النبى ﷺ برسالة الإسلام ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

فما كان من النبى ﷺ إلا أن عرض الإسلام على زوجته خديجة فأسلمت ثم عرض الإسلام على أبى بكر فلم يتردد لحظة واحدة بل أسلم فى التو واللحظة فهو الذى يعرف صدق النبى ﷺ وأمانته.

ولذلك لما أخبره النبى ﷺ بأن الله قد أرسله ليكون خاتم الأنبياء.

قال له أبو بكر: والله ما جربت عليك كذبًا قط.

وما إن أسلم أبو بكر رضي الله عنه حتى حمل أمانة الدين على أعناقه وخرج يدعو الناس إلى دين الله جل وعلا فأسلم على يديه ستة من العشرة الذين بشّرهم النبي ﷺ بالجنة فيما بعد...

وأسلم على يديه زوجته وأولاده.

فيأتى الصديق رضي الله عنه يوم القيامة وهم فى ميزان حسناته.

بل وأسلم على يديه خلقٌ كثيرٌ غير هؤلاء الأطهار الأبرار.

وهكذا يجب أن يكون الداعية... يحمل همَّ الناس من حوله ويخشى عليهم من عذاب الله ويأخذ بأيديهم إلى مرضاة الله وجنته.

* وما إن علمت قريش بإسلام أبى بكر حتى أذاقته من العذاب ألوانًا... فما كان منه إلى أن صبر واحتسب ذلك كله عند الله (جل وعلا).

* * *

ميلاد عائشة رضي الله عنها

وبعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بسنوات وُلدت عائشة رضي الله عنها في الإسلام وخرجت إلى الدنيا فوجدت نفسها بين أبوين كريمين مؤمنين بل وجدت نفسها ابنة لخير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تقول عائشة: «لم أعقل أبويَّ إلا وهما يدينان الدِّين»(١).

فنشأت في أحضان هذين الأبوين الكريمين وترعرعت في ظل هذا البستان الذي غُرست أشجاره في تربة الإيمان وسُقيت بماء الوحي فكان أبواها كالدوحة الباسقة التي يُستظل بظلها وكالشجرة المباركة ذات القطوف الدانية التي تؤتي أُكلها كل حينٍ بإذن ربها.

وكان أبواها يلاحظان بركتها التي فاح عبيرها ولكن لم يخطر ببالهما أبدًا أنها ستصبح في يومٍ من الأيام زوجة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم وأمًا للمؤمنين في كل زمان ومنارة للعلم في كل زمان ومكان.

ولكن الله عز وجل إذا أراد شيئًا فإنه يقول له: كُن فيكون.

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٧٦) كتاب الصلاة.

هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة

ولقد كان زواج النبى ﷺ بعائشة رضي الله عنها بوحى من السماء فلقد رآها فى منامه ثلاث ليالٍ وكان جبريل - عليه السلام - يأتيه بصورتها ويقول له: «**هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة**»... ويا لها من كرامة عظيمة لأمنا عائشة رضي الله عنها.

عن ابن أبى مُليكة عن عائشة: أن جبريل جاء بصورتها فى خرقة حرير خضراء إلى النبى ﷺ فقال: «**هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة**»(1).

وتعجَّب النبى ﷺ من هذا الأمر؛ يرى رؤيا، ثم يرى هذه الرؤيا فى ليلة أخرى، ترى ماذا قال رسول الله ﷺ عن هذا الأمر؟؟

لقد تحدث به لعائشة فقال رسول الله ﷺ: «**أُريتك فى المنام ثلاث ليال، جاء بك الملك فى سرقة من حرير**(2)،

(1) أخرجه الترمذى (٣٨٨٠)، وقال الأرناؤوط: ورجاله ثقات وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الترمذى.
(2) السرقة بفتح السين والراء والقاف: هى القطعة، وفى مطبوعة دمشق «خرقة» وهى عند ابن حبان كما فى «الفتح» (٩/١٥٦).

فيقول: هذه امرأتك. فأكشف عن وجهك فإذا أنت فيه. فأقول: إن يكُ هذا من عند الله يُمضه»[1].

نعم إن كان هذا من عند الله فليُمضه، وكان من أسباب الاستعجاب لدى النبى ﷺ أن عائشة بنت صاحبه أبى بكر بن أبى قحافة رضى الله عنهم أجمعين، والتى رأى صورتها فى قطعة الحرير التى قُدمت إليه فى المنام كانت لا تزال وقتئذ طفلة صغيرة لا يزيد عمرها على ست سنوات، فأنَّى لهذه الطفلة بالزواج؟! وأنَّى لها أن تَسُدَّ فراغ خديجة رضوان الله عليها[2].

قصة الزواج المبارك

ولما مات أبو طالب وجدت قريش فرصة كبيرة لإيذاء النبى ﷺ فقد مات الذى كان يدافع عنه.

* وما كاد النبى ﷺ يخلع ثوب الحزن على عمه حتى فُجع بموت زوجته وشريكة عمره خديجة رضي الله عنها التى آزرته ونصرته وبذلت نفسها ومالها لنُصرة هذا الدين...

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (٣٨٩٥) كتاب مناقب الأنصار، ومسلم (٢٤٣٨) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) أزواج النبى / أ. عبد المنعم الهاشمى (ص ١٣٢).

وكانت نعم الزوجة.

وكانت وفاتها فى شهر رمضان فى السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة على أشهر الأقوال... ورسول الله ﷺ إذ ذاك فى الخمسين من عمره.

وحزن النبى ﷺ لموتها حزنًا شديدًا فلقد كانت نعم الزوجة الصابرة المخلصة التى آزرته طوال حياته وبذلت من أجل نُصرة هذا الدين كل غالٍ ونفيس فلم يستطع النبى ﷺ أن ينساها أبدًا وكان يحمل لها وفاءً يعجز القلم عن وصفه.

ولقد كان أصحاب الحبيب ﷺ يعرفون قدر خديجة رضي الله عنها عند النبى ﷺ فعندما ماتت كانوا يرجون أن يرزقه الله (عز وجل) بمن يخفف عنه من آلامه وأحزانه.. ولكن لم يكن أى واحد منهم يجرؤ أبدًا أن يكلم النبى ﷺ فى أمر الزواج فشاء الحق (جل وعلا) أن تتجرأ واحدة من فضليات نساء الصحابة ألا وهى خولة بنت حكيم لتعرض هذا الأمر على رسول الله ﷺ من أجل إدخال الفرح والسرور على قلبه المحزون.

جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون

فقالت: يا رسول الله ألا تتزوج قال: «مَن؟».

قالت: إن شئت بكرًا، وإن شئت ثيبًا».

قال: «فمن البكر؟».

قالت: ابنة أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر.

قال: «ومَن الثيِّب؟».

قالت: سودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول.

قال: «فاذهبي فاذكريهما عليَّ».

فدخلت بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟

قالت: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي.

فجاء أبو بكر فقالت: يا أبا بكر ماذا أدخل عليك من الخير والبركة!.

قال: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له قال: ارجعى إليه فقولى له: «أنا أخوك، وأنت أخى فى الإسلام، وابنتك تصلح لى» فرجعت فذكرت ذلك له.

* لكن كانت هناك مشكلة كبيرة.. وهى أن أبا بكر كان قد وعد مُطعم بن عدى أن يُزوج ابنه من عائشة فأراد أبو بكر أن يجد حلاً لهذه المشكلة وبخاصة أنه ما وعد أحدًا وعدًا فأخلفه أبدًا.

ذهب أبو بكر إلى مطعم بن عدى وكانت عنده امرأته أم الفتى الذى كان يريد أن يتزوج عائشة...

فقالت هذه المرأة لأبى بكر: إنى لأخشى إن تزوج ابنى من ابنتك عائشة أن تجعله مسلمًا ويترك دين الآباء والأجداد... أى أنها لا تريد إتمام هذه الزيجة.

فنظر أبو بكر إلى مطعم بن عدى وقال له: ما رأيك.

قال: رأيى مثل رأيها.

فخرج أبو بكر وهو يحمد الله أن يسَّر له الخروج من هذا الوعد دون أن يكون هو الذى أخلف وعده.

فرجع فقال لخولة: ادعى لى رسول الله ﷺ، فدعته فزوَّجها إياه، وعائشة يومئذٍ بنت ست سنين.

وكانت الرؤيا التى رآها محمد ﷺ مرة، ثم عاد فرآها مرةً أخرى أمر من عند الله لأن النبى ﷺ قال يومها: «إن كان هذا من عند الله يُمضه»، وكان أن أمضى الله أمره..

وزُفّت سودة بنت زمعة إلى رسول الله ﷺ، وانتقلت إلى داره تدير بيته، وترعى ابنتيه: أم كلثوم وفاطمة. وبقيت عائشة بدار أبيها حتى تَشِبَّ، ويقوى عودها.

لم تدهش مكةُ ولم تعجب لهذه الخطبة؛ فقد تمّت بين أعزّ صديقين، وأوفى صاحبين. ولم تستنكر مكة أن تخطب فتاةٌ صغيرة السِّنِّ، لا تزال تلعب وتمرح مع صاحباتها، إلى رجل كبير فى السن...ولم يجد أشد خصوم الرسول الكريم فى ذلك مطعنًا ولا عيبًا، وهم الذين كانوا يختلقون المطاعن والمعايب اختلاقًا؛ لأن ذلك كان من عاداتهم التى لا يُنكرونها، ومن طبيعتهم التى لا يعاندونها.

وأبَتْ نفس الرسول الرحيمة أن تنتزع عائشة من بيت أبويها، وأن تحرمها من اللهو والمرح مع صاحباتها، وأن

تحملها مسئولية الحياة الزوجية، وهى لا تزال صبية صغيرة، واكتفى بأن يأنس إلى ملاطفتها، ومشاركتها مرحها، حين يذهب إلى بيت صاحبه، فيجد ذلك أنسًا ومتاعًا، وراحة وسلوة، وكانت هى تجدُ فى مشاركة هذا الرجل الوقور الباسم لها متعة لا تدانيها متعة، ولذا كانت تتلهف على حضوره، وتتشوّق لرؤيته، وما تخلف رسول الله ﷺ يومًا عن السعى إلى بيت صاحبه الصديق إما بُكرة وإما عشية[1].

ففروا إلى الله

هكذا جاء الوحى بصورتها إلى رسول الله ﷺ وأخبره بأنها زوجته فى الدارين... وظلت عائشة ﵂ على الرغم من صغر سنها - تحلم باللحظة الخالدة التى تدخل فيها بيت رسول الله ﷺ لتكون زوجة لسيد الأولين والآخرين وأمًّا للمؤمنين فى كل وقت وحين.

* وفى تلك المرحلة الصعبة اشتد إيذاء المشركين بأصحاب الحبيب ﷺ حتى أشار عليهم بالهجرة إلى

(١) عائشة بنت أبي بكر / د: علي عبد المنعم (ص ٧) ط. سفير.

المدينة المنورة فنزلوا فى رحاب الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان... وبعد فترة يسيرة أذن الله عز وجل لرسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ليُقيم للإسلام دولة فى تلك التربة المباركة.

الهجرة المباركة

ولما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبى ﷺ نزل إليه جبريل بوحى ربه - تبارك وتعالى -، فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له فى الخروج، وحدد له وقت الهجرة قائلاً: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه[1].

على رضي الله عنه ينام مكان النبى ﷺ فى ليلة الهجرة

وفى ليلة الهجرة اجتمع المشركون على باب رسول الله ﷺ يراقبونه حتى إذا نام انقضُّوا عليه وقتلوه جميعًا.

فلما رأى النبى ﷺ مكانهم أمر على بن أبى طالب

(١) ابن هشام (١/ ٤٨٢)، وزاد المعاد (٢/ ٥٢).

أن ينام مكانه وأخبره بأنه لن يحدث له مكروه ولن يصيبه أذى.

ثم أمر عليًّا بأن يرد كل الودائع والأمانات التي عنده لأصحابها.

* ويا له من أمرٍ عجيب فقد كانت قريش تحارب النبي ﷺ، وتحارب دعوته، وتريد أن تقتله... لكن الواحد منهم إذا كان عنده شيء ثمين يريد أن يحفظه فإنه كان يتركه وديعة عند رسول الله ﷺ.

* وهنا ألقى الله النوم على هؤلاء المتآمرين فناموا.. ثم خرج النبي ﷺ أمامهم بعد أن أخذ حفنة من التراب ووضعها فوق رؤوسهم، وهو يَتْلُو قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾[1].

ثم ذَهَب رسول الله ﷺ إلى دار أبي بكر الذي جَهَّزَ نَفْسَه للهجرة مع رسول الله ﷺ.

فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون هاهنا؟

قالوا: محمداً.

(١) سورة يس: الآية: (٩).

قال: خيَّبكم الله، قد والله، خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟

قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون، فيرون عليًا على الفراش.

فظنوا أن النبى ﷺ ما زال نائمًا مكانه. . . فدخلوا وكشفوا الغطاء فوجدوا على بن أبى طالب فسألوه عن مكان النبى ﷺ فقال: لا أدرى قد تركنى هنا لأرد إليكم أماناتكم.

فقالوا: لقد صدقنا هذا الرجل الذى أخبرنا بخروج محمد ﷺ.

وبدأت هجرة الرسول ﷺ

وذهب النبى ﷺ إلى أبى بكر وأخبره بأن الله قد أذن له بالهجرة ففرح أبو بكر حتى بكى بكاء شديدًا من شدة الفرح.

وأعدّ أبو بكر الراحلتين وأعدّ الزاد والماء وبدأت رحلة الهجرة التى كانت أعظم حدث فى تاريخ الإسلام والمسلمين.

وخرج النبي ﷺ من مكة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى وصلا إلى غارٍ قريب من مكة.. وهو غار «ثور» فدخل أبو بكر الغار حتى يطمئن على أنه ليس فيه شيء يؤذي النبي ﷺ.

فلما دخل إلى الغار مسحه ونظفه ووجد في جدار الغار بعض الفتحات فقام وسدَّها كلها ما عدا واحدة فما كان منه إلا أن جلس على الأرض وسدَّها بقدمه ثم نادى على الرسول ﷺ ليدخل الغار آمنًا مطمئنًا.

ودخل النبي ﷺ وأراد أن ينام ويستريح فوضع رأسه على رجل أبي بكر ونام.

وفي تلك اللحظة جاء ثعبان أو عقرب ولدغ أبا بكر ومع ذلك لم يوقظ الرسول ﷺ من نومه واشتد الألم على أبي بكر فبكى بلا صوت ونزلت دموعه على خد النبي ﷺ فاستيقظ النبي ﷺ وسأله: **«ما بك يا أبا بكر؟»**.

قال: لُدغت يا رسول الله.

فقال النبي ﷺ: **«ولماذا لم تخبرني؟»**.

فقال أبو بكر: خشيت أن أوقظك وأنت بحاجة إلى

النوم لكي تستريح يا رسول الله.

فقام النبي ﷺ فبصق على قدم أبي بكر فشُفيت بإذن الله ودعا له النبي ﷺ بالجنة.

* وفي هذه اللحظة كان المشركون يتتبعون آثار أقدام الرسول ﷺ وصاحبه... وبحثوا عنهما في كل مكان حتى وصلوا إلى الغار الذي كان فيه النبي ﷺ وأبو بكر.

فنظر أبو بكر إلى أقدام المشركين فقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا.

فقال له النبي ﷺ بكل ثقة ويقين: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

* لقد حفظ الله نبيه ﷺ وأعمى أبصار المشركين عن رؤية النبي ﷺ وصاحبه رغم أنهم كانوا على بُعد أمتار قليلة منهما.

* ومكث النبي ﷺ وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام.

وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتي بالطعام إليهما وكانت قد شقَّت نطاقها [1] نصفين فجعلت الطعام في أحدهما

(١) النطاق: هو حزام تربطه المرأة على وسطها.

وربطت وسطها بالآخر ولذلك سماها النبي ﷺ بذات النطاقين وقال لها: «**أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين فى الجنة**».

* وكان عبد الله بن أبى بكر يأتى كل ليلة ويبيت مع النبى ﷺ ومع أبى بكر فإذا أصبح الصباح عاد إلى مكة وكأنه كان فيها لم يخرج منها حتى يستمع إلى كلام المشركين وما يدبرونه للنبى ﷺ وصاحبه ثم يعود إلى الغار فى الليل ليخبر النبى ﷺ بكل ما سمعه.

* وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يخرج بالأغنام لتمسح آثار أقدامها آثار أقدام عبد الله بن أبى بكر فلا يعرف أحدٌ شيئًا عن ذهابه إلى النبى ﷺ ولا يشك أحدٌ فى أمره.

* وكان النبى ﷺ وأبو بكر قد استأجرا رجلاً كافرًا اسمه (عبد الله بن أُريقط) ليدلهما على الطريق فقد كان ماهرًا بالطريق يحفظ طُرق الصحراء وشعابها.

وكانا قد دفعا إليه الراحلتين وواعداه أن يأتى إليهما بالراحلتين فى غار ثور بعد ثلاثة أيام.

* ولما وصل عبد الله بن أُريقط انطلق معه النبى

ﷺ وأبو بكر وعامر بن فهيرة... وبدأت الرحلة إلى المدينة المنورة.

محبة تفوق الخيال

* وكان أبو بكر يسير أمام النبى ﷺ مرة وخلفه مرة وعن يمينه مرة وعن يساره مرة فتعجب النبى ﷺ وقال: «**ما لك يا أبا بكر؟**».

فقال أبو بكر: يا رسول الله أذكر الطلب - أى الكفار الذين يطاردونك - فأمشى خلفك ثم أذكر الرَّصَد - أى الجواسيس الذين يرصدونك ويُعدون لك الكمائن - فأمشى أمامك وعن يمينك وعن شمالك فأنا أخشى عليك منهم يا رسول الله.

فقال له النبى ﷺ: «**يا أبا بكر لو كان هناك أذى ينتظرنى لأحببت أن يكون بك دونى؟**».

فقال أبو بكر: أجل يا رسول الله... فلئن قُتلتُ أنا فإنما أنا رجلٌ واحد.. ولئن قُتلت أنت ضاعت الأمة كلها.

* وبينما هم فى الطريق إذ أحسَّ النبى ﷺ بشىء

من التعب فنظر أبو بكر حتى رأى ظل شجرة ففرش للنبى ﷺ تحت ذلك الظل ثم قال للنبى ﷺ : اضطجع هنا يا رسول الله . . . فاضطجع النبى ﷺ .

ثم ذهب أبو بكر يبحث ويرى إذا كان هناك أحدٌ من المشركين يتبعهم فوجد راعى غنم فسأله: يا غلام هل عندك من لبن؟ قال: نعم. فأمره أبو بكر أن يحلب له بالأجر ثم أمره أن ينفض ضرعها من الغبار وأن ينفض كفيه من التراب ثم حلب اللبن وأخذه أبو بكر وانتظر حتى استيقظ النبى ﷺ فقال له: اشرب يا رسول. . فشرب. . ثم قال له: اشرب.

يقول أبو بكر: فشرب النبى ﷺ حتى ارتوى. . . يا له من حب لا يخطر على قلب بشر.

وصول النبى ﷺ إلى المدينة المنورة

وفى المدينة كادَ القلق يفتك بالمهاجرين من مكة، والأنصار من أهل المدينة، إنهم يَخْرجون كل يوم ينتظرون رسول الله ﷺ وأبا بكر، ثم يَعودون مرة أخرى.

ولا زالت الأوهام تُطاردهم، فربما استطاع المُشركون

قتل رسول الله أو العُثُور عليه، وما زالت ألسنتهم وقُلوبهم تدعو لرسول الله بالنَّجاة، وأوشك بعضُهم أن يموت من فَرط الانتظار.

كل هذا ورسول الله في الطَّريق... وفي هذه اللحظات اقترب رَكْبُ رسول الله من الدُّخول إلى المدينة، فإذا بِيَهُودي كان على نَخلة له؛ يَرى رسول الله، حتى عرفه بصفته وعلامته، فقال:

يَا مَعْشر العرب، هذا نَبيُّكم الذي تَنتَظِرُون.

وارتفعت صَيْحات التكبير في كُلِّ مكان.

* وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة ومن ذلك اليوم سُميت بلدة يثرب بمدينة رسول الله ﷺ... ونزل النبي ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم، وأسامة بن زيد، وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله ابن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة، وبقيت زينب عند أبي العاص، لم يُمكِّنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر(١).

(١) زاد المعاد (٢/ ٥٥).

الزواج المبارك

وتأتى موقعة بدر التى كتب الله فيها النصر للموحدين فكانت الفرحة تغمر قلب النبى ﷺ وأصحابه... وما إن مضى شهر رمضان وجاء شهر شوال حتى تجددت الفرحة فى قلوب المسلمين فلقد بنى النبى ﷺ بعائشة لتكتمل السعادة فى قلوب الموحدين ولتصبح عائشة رضي الله عنها زوجة لسيد المرسلين ﷺ وأما للمؤمنين... ويا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من متاعٍ زائل.

* وفى هذا اليوم السعيد اجتمع الناس فى بيت أبى بكر رضي الله عنه وكانت الفرحة تعلو وجوههم وتملأ قلوبهم.

* وأما عن تفاصيل تلك المناسبة التاريخية السعيدة فتعالوا بنا لنتعايش معها:

فإنه ما إن وصلت عائشة إلى المدينة، واستراحت من وعثاء السفر ومشقته، حتى هاجمها المرض، فمرضت مرضًا طويلاً شديدًا، أتعبها وأرهقها، وجعل والديها يخافان من المرض على سلامتها، حتى كان أبو بكر يدخل إلى ابنته كل يوم يعودها ويقبّلها وهو يقول: كيف أنتِ

اليوم يا بنية؟!

وبعد أن عوفيت عائشة واستردت صحتها، وعاد إلى وجهها لونه الطبيعي، سار أبو بكر إلى محمد ﷺ يقول: يا رسول الله ما يمنعك أن تبنى بأهلك؟! .. فحدد له النبي ﷺ موعدًا للزفاف.

وقد كان يوم زفاف عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ يومًا عزيزًا على نفسها فتحدثت عن هذا اليوم قائلة: تزوجني رسول الله ﷺ لست سنين، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين.

قالت: فقدمنا المدينة فوعكت شهرًا، فأتتني أم رومان، وأنا على أُرجوحة ومعي صواحبي، فصرخت بي فأتيتها، وما أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي، فأوقفتني على الباب.

وإني لأنهج حتى سكن نَفَسي... ثم غسلت وجهي ومسحت شعري، وأسلمتني لأسماء بنت يزيد فأصلحت شأني وهيأتني وغسلت رأسي ثم قدمتني أمي إلى رسول الله ﷺ.

* * *

وهكذا دخلت بيت النبوة

وهكذا دخلت عائشة رضي الله عنها بيت النبوة - وهو خير بيت في هذا الكون الفسيح على الرغم من تواضعه - إنها حجرة صغيرة إلا أن صاحبها ﷺ مؤيَّد بالوحي من السماء... إنها ليست مجهزة بمتاع الدنيا الزائل إلا أن صاحبها ﷺ نشر عبير القرآن والسُّنة على الأرض كلها فكانت الهداية التي منحها الله لمن شاء من عباده تخرج من هذه الحجرة المباركة.

لقد عاشت أمنا عائشة رضي الله عنها في رحاب الحبيب ﷺ تنهل من أخلاقه وعلمه وورعه وحلمه وهديه، فكانت شمسًا في دنيا الناس لا يستغني عنها القريب ولا البعيد.

السعادة ترفرف على هذا البيت المبارك

* والآن تعالوا بنا لنستأذن على أمنا الحبيبة عائشة رضي الله عنها لنعيش بعض اللحظات في رحاب البيت النبوي المبارك - على صاحبه أفضل الصلاة والسلام -.

كانت السعادة ترفرف على بيوت النبي ﷺ على الرغم من حياة التقشف التي عاشها النبي وأهله، فقد

كانت تمر الأيام والأسابيع ولا تُوقد فى بيوت النبى ﷺ نار، وإنما كانوا يأكلون الأسودين: التمر والماء.

حياة سعيدة؛ ما دام القلب موصولاً بالله، حياة رقيقة مع الشظف والفاقة، سعيدة بالعطف الذى يغمر به الحبيب المصطفى (صاحب القلب الكبير)، حتى صار حطام الدنيا عند أهله ومَن لاذ به لا يساوى مثقال ذرة من هباء.

وهذا ما جعل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سيدة فى كل مكرمة، ولكل مكرمة؛ سيدة فى السخاء، وفى الزهد، وفى كل فضيلة، وإن تاريخها الوضىء ليحكى تلك المكارم التى اقتبستها من البيت النبوى، واحتضنتها حتى آخر نَفَس من حياتها.

لندخل أعماق السيدة الأم العظيمة أمنا عائشة رضي الله عنها، ولندخل معها - إن أذنت - بيتها الطاهر الموفق وكيف لا وقد أطلق عليها رسول الله ﷺ اسم موفقة... لندخل الحجرة النبوية التى خُصصت لعائشة رضي الله عنها.

منذ الأيام الأولى لزواج عائشة رضي الله عنها، أحبت أن تحتل مكان خديجة فى البيت المحمدى الطاهر، وأن تأخذ مكان الطاهرة خديجة فى قلبه الشريف ﷺ منذ أول أيامها.

لكن أوفى الأوفياء الرسول الكريم ﷺ كان مخلصًا لخديجة ﵂، فمقامها ومكانتها لم ولن تشارك فيه امرأة أخرى مهما علا شأنها ومهما ومهما... ولقد سبق عائشة إلى البيت النبوى زوجة أخرى هى سودة بنت زمعة العامرية، وكانت قد جاوزت مرحلة الصبا، وكان زواجه ﷺ منها - بالإضافة إلى أنه وحى - زواج عطف ومودة ومواساة، وحكمة محمدية تنضح بالرحمة التى أرسلها الله للعالمين.

كانت عائشة ﵂ تحب رسول الله ﷺ، وترجو أن يكون لها ولد منه، كما كان لخديجة، ولكن الأيام مرت دون أن تنجب، إلا أن رسول الله ﷺ قال لها: «**اكتنى بابن أختك عبد الله - يعنى ابن الزبير- أنت أم عبد الله**»[(١)] فكانت كنيتها أم عبد الله[(٢)].

❋ ❋ ❋

(١) صحيح: رواه أحمد (٦/١٥١)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (١٣٢).
(٢) نساء أهل البيت (ص: ١١٩-١٢٠).

البيت المبارك

أنزلت السيدة عائشة رضي الله عنها منزلاً مباركًا فى حجرة ملاصقة لمسجد رسول الله ﷺ فى المدينة، وهى واحدة من حُجرات بناها ﷺ بنفسه عندما بنى المسجد بعد وصوله للمدينة، وهذه الحجرة المباركة لم تكن كأى حجرة أو مسكن، فهى مهبط الوحى، ومنبع العلم وفى هذه الحجرة المباركة دُفن النبى ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر، فهى قبر الرسول ﷺ.

وتتحدث عائشة عن بركة مسكنها وحجرتها فى حديث لها أخرجه الترمذى فى المناقب، تقول رضوان الله عليها: أعطيت تسعًا ما أعطيتها امرأة بعد مريم بنت عمران: لقد نزل جبريل بصورتى حتى أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجنى.

ولقد تزوجنى بكرًا، وما تزوج بكرًا غيرى.

ولقد قُبض ورأسه فى حجرى.

ولقد قبرته فى بيتى.

ولقد حفَّت الملائكة ببيتى.

وإن كان الوحي لينزل عليه وإني لمعه في لحافه..[1].

وكانت حجرات النبي ﷺ تسع حجرات، كان منها أربعة أبيات بلبِن لها حجر من جريد النخل، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها.

وقد ضُمت الحجرات إلى المسجد إلا حجرة السيدة عائشة، فقد بقيت لأن فيها دُفن النبي ﷺ وصاحباه، ولا تزال إلى الآن في ظلال القبة الخضراء، فيها دُفن رسول الله ﷺ.

وقد كانت حجرة عائشة رضي الله عنها ومسكنها مهبطًا للوحي فقد شرفت تشريفًا عظيمًا بنزول كثير من القرآن الكريم على النبي ﷺ فيها. وكان باب حجرة عائشة يؤدي إلى المسجد مباشرة.

ويروى أن النبي ﷺ كان يجلس بقرب باب غرفة عائشة فيمد رأسه الشريف من خلاله إلى عائشة رضي الله عنها وهي في حجرتها لتغسله له.

وإذا كنا نتحدث عن هذا الشرف العظيم والمكانة الرصينة لبنت أبي بكر رضي الله عنهما، فلا نغفل أن جبريل عليه

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ١٤١).

السلام كان يجيء إلى هذه الغرفة المباركة.

وها هو النبي ﷺ ينادي عائشة رضي الله عنها ويقول: «**يا عائش، هذا جبريل وهو يقرأ عليك السلام**».

قالت: وعليه السلام ورحمة الله، ترى ما لا نرى يا رسول الله[1].

هذه الحياة الطاهرة الطيبة لم تكن في قصرٍ مهيب، ولا في بناءٍ رحيب، بل كانت في حجرة متواضعة بنتها يد النبي الشريفة، وعاشت فيها الأسرة النبوية الكريمة، حياة الطاعة وأيام الإيمان، وما زالت تلقى في مكانها تحية الزائرين لرسول الله ﷺ، فيقفون أمام هذا المكان الطاهر الذي دُفن فيه محمد ﷺ ليلقون عليه تحيته الواجبة ويصلون عليه ويسلموا تسليمًا.

ولم تكن حجرة عائشة رضي الله عنها إلا كبنائها متواضعة الأساس، فقد كان فراش رسول الله ﷺ جلدًا حشوهُ ليف ولم يكن لعائشة رضي الله عنها غير فراش واحد. وكان إذا ما أهدى لعائشة فراش حشوه صوف ردّه رسول الله ﷺ،

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢١٧) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٤٤٧) كتاب فضائل الصحابة.

ولو أراد ﷺ لمسكنه حريرًا وذهبًا لأجيب.

وها هي امرأة من الأنصار تدخل على عائشة، فترى فراش رسول الله ﷺ، قطيفة مثنية، أخفّ من الصوف، فبعثت هذه الأنصارية إلى عائشة بفراش حشوه صوف، فدخل رسول الله ﷺ على عائشة فقال: «ما هذا يا عائشة؟».

قالت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك، فذهبت فبعثت إليَّ بهذا..

فقال ﷺ: «رُدِّيه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»(١).

فلم يكن ﷺ مشغولاً بمال أو متاع، بل كانت رسالته هي ماله ومتاعه.

* * *

(١) صحيح: أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١ / ٤٦٥)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (ص ١٦٦ - ١٦٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٤٨٤).

حب النبي ﷺ لعائشة

لقد كانت عائشة رضي الله عنها تحتل مكانة عظيمة في قلب النبي ﷺ فلقد أحبها حبًا جمًا وكان يخبر الناس بحبه لعائشة.

فقد سأله ذات مرة عمرو بن العاص رضي الله عنه وقال له: يا رسول الله مَن أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة».

قال: فمن الرجال؟ قال: «أبوها» (١).

* وتسأله عائشة ذات مرة وتقول له: مَنْ مِن أزواجك في الجنة؟ قال ﷺ: «أما إنك منهن»(٢).

* وها هي تقول له مرة أخرى: مَن أحب الناس إليك؟

فقال لها النبي ﷺ: «ولِمَ؟».

قالت: لأحب مَن تحب.

فقال: «عائشة»(٣).

بل ويدخل النبي ﷺ عليها مرة فوجدها تبكي فقال لها: «ما يُبكيك؟» قلت: سبَّتني فاطمة... فدعا فاطمة

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٥٨) كتاب المغازي، ومسلم (٢٣٨٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم (٤/ ١٣)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) رواه الطبراني بإسنادٍ حسن.

فقال: «**يا فاطمة سببت عائشة ؟**» قالت: نعم يا رسول الله، قال: «**أليس تحبين مَن أحب ؟**» قالت: نعم قال: «**وتبغضين مَن أبغض ؟**» قالت: بلى، قال: «**فإني أحب عائشة فأحبيها**» قالت فاطمة: لا أقول لعائشة شيئًا يؤذيها أبدًا [(١)].

وكان ﷺ طالما يؤكد هذا الحب لزوجته الصبية الصغيرة، فيقول عليه السلام لعائشة رضوان الله عليها: «**حبُّك يا عائشة في قلبي كالعروة الوثقى!**».

وكانت رضوان الله عليها تسأل زوجها بين الحين والآخر: أما زالت العروة الوثقى يا رسول الله.

فيجيبها صلوات الله وسلامه عليه: «**إنها باقية لم تتبدل ولم تتغير**».

هكذا كان حُب الرسول ﷺ لعائشة منذ أن تزوجها وهي صبية صغيرة، وهكذا ظلّ حتى مات عليه السلام، وتخير الرفيق الأعلى من الجنة.

كان ﷺ يشمل عائشة رضي الله عنها برفقه وعطفه، فكان

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٣١١): رواه أبو يعلى والبزار باختصار وفيه: مجالد وهو حسن الحديث وبقية رجاله رجال الصحيح.

رفيقًا بها كل الرفق، عَطوفًا عليها كل العطف، معجبًا بها كُلَّ الإعجاب، وكان من رفقه بها أنه لم يزجرها قط وهى صغيرة عن لعبٍ لَعبته، أو لهوٍ أتته... ذلك ما روته عائشة بنفسها حين قالت: كنت ألعب بالبنات(1)، فيجيء صواحبى فيختبئن من رسول الله ﷺ، فيخرج رسول الله ﷺ فيدخلن عليَّ، وكان يسربهن إليَّ، فيلعبن معى(2).

وكان ﷺ إذا دخل عليها ووجد معها صاحبات لها يلعبن معها خرج حتى لا يعكر عليهن اللعب.

وكان ﷺ فوق ذلك يعمل على ألا يحرمها من شيء تتوق نفسها لرؤيته حتى اللعب، بل كان يعمل على مساعدتها فى ذلك، فقد أقام ببابها يومًا يسترها بردائه حتى تنظر من بين أذُنِه وعاتقه على جماعة من الحبشة يلعبون بالحراب، فظل كذلك حتى أشبعت عائشة شوقها، وكفَّت رغبتها من التفرج، فقام من أجلها حتى تنصرف.

وذات يوم خرجت عائشة رضي الله عنها مع النبى ﷺ فى

(1) البنات: هى العرائس التى تلعب بها البنات.
(2) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٣) كتاب الأدب، ومسلم (٢٤٤٠) كتاب فضائل الصحابة.

أحد أسفاره، فأغراها الفضاء ومنظر الصحراء المترامية الأطراف، أغراها هذا المنظر الممتد بأن تجرى وتمرح، فتسابقت مع الرسول ﷺ فسبقته، فلما كانت فى سفرة أخرى، وكانت عائشة قد نمت وامتلأ جسمها، تسابقت مع الرسول ﷺ فسبقها، فجعل الرسول ﷺ يضحك ويقول لها: «**هذه بتلك!!**»[(١)].

وكان من عطفه ورقته صلوات الله وسلامه عليه، أنه كان إذا دخل عليها وهى نائمة خرج بهدوء لئلا يقطع عليها نومها[(٢)].

وإنك لعلى خلق عظيم

وكانت عائشة رضي الله عنها ترى أخلاق النبى ﷺ التى يعجز القلم عن وصفها... وحسبه قول الله عز وجل: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[(٣)].

---

(١) أخرجه الحميدى فى مسنده (ق ٤٢ / ٢) وأبو داود (٢٥٧٨) والنسائى فى عشرة النساء (ق ٧٤ / ١)، وابن ماجه (١٩٧٩) مختصرا، وأحمد (٦ / ٣٩ / ٢٦٤)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (١٣١).

(٢) أزواج النبى (ص: ١٥٣-١٥٤) بتصرف.

(٣) سورة القلم: الآية: (٤).

عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده، ولا امرأة ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله. وما نيل منه شيء قط فانتقم من صاحبه، إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله، فينتقم(١).

وكان ﷺ على الرغم من كثرة انشغاله بالعبادة وبهموم الأمة المسلمة إلا أنه كان زوجًا مثاليًا، مُحالٌ أن نجد له مثيلاً في الدنيا كلها... فلقد كان يساعد أهله في عمل البيت - في الوقت الذي يستنكف فيه أحدنا أن يُحضر لزوجه كوبًا من الماء أثناء مرضها -.

سُئلت عائشة ﵂: ما كان النبي ﷺ يصنع في البيت؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج(٢).

دروسٌ غالية

وها هو ﷺ يتعهدها بالتربية والرعاية والتعليم... فكان يُعلمها دائمًا أن الرفق والرحمة سبب في كل خير.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٢٨) كتاب الشمائل.
(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٣٦٣) كتاب النفقات.

عن شريح بن هانيء قال: ركبت عائشة بعيرًا، فكانت فيه صعوبة فجعلت تردده، فقال لها رسول الله ﷺ: «**عليك بالرفق فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يُنزع من شيء إلا شانه**»[1].

وعن عروة بن الزبير رضي الله عنه أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم. قالت: عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام[2] واللعنة. فقال رسول الله ﷺ: «**مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**» فقلت: يا رسول الله، أوَلم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «**قد قلت وعليكم**»[3].

تجرد وإنصاف

وكان الحبيب ﷺ لا يجامل أحدًا في دين الله عز وجل بل كان لا تمنعه محبته لأي شخص من أن يكون منصفًا.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٤) كتاب البر والصلة والآداب.
(٢) السام: الموت، وقيل: هو الموت العاجل.
(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦-٢٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢١٦٥) كتاب السلام.

وها هى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول لرسول الله ﷺ مشيرة إلى قِصَر أم المؤمنين صفية بنت حُيى رضي الله عنها . . . حسبُك من صفية هكذا (تعنى أنها قصيرة)، فماذا قال رسول الله ﷺ لعائشة أحب امرأة إليه ؟!

قال ﷺ : «**لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته**»(1).

فمع محبته لها ﷺ لم يتركها تخوض فى عرض أختها المسلمة وتغتابها.

غيرتها على الحبيب ﷺ

لقد كانت أمنا عائشة رضي الله عنها تحب النبى ﷺ حبًا جمًا وتغار عليه غيرة شديدة.

ولقد كانت عائشة مُحقة فى غيرتها على النبى ﷺ . . . فهو خير الأزواج . . . كان سهلاً لينًا طيب العشرة يخرج مع أزواجه ويعاملهن معاملة فى قمة اللطف والرحمة.

---

(1) أخرج الترمذى بإسناد صحيح (٢٥٠٢) عن عائشة قالت: . . فقلت: يا رسول الله إن صفية امرأة، وقالت بيدها هكذا كأنها تعنى قصيرة فقال: «لقد قُلت كلمة لو مَزَجْتِ بها ماء البحر لمُزِج».

وفي ذلك تقول عائشة رضي الله عنها: أتيت النبي ﷺ بخُزيرة قد طبختها له فقلت لسودة - والنبي ﷺ بيني وبينها -: كُلي. فأبت فقلت: لتأكلين أو لألطخن وجهك، فأبت فوضعت يدي في الخزيرة فطليت وجهها، فضحك النبي ﷺ فوضع بيده لها وقال لها: «**الطخي وجهها**» ففعلت، فضحك النبي ﷺ فمرَّ عمر فقال: يا عبد الله يا عبد الله فظن أنه سيدخل فقال: «**قوما فاغسلا وجوهكما**». فقالت عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ[1].

*وها هي أمنا عائشة تحكي أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «**ما لك يا عائشة ! أغرتِ؟**»، فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أقد جاءك شيطانك؟**»، فقلت: يا رسول الله! أوَ معي شيطان؟ قال: «**نعم**»، قلت: ومع كل إنسان ؟ قال: «**نعم**»، قلت: ومعك يا رسول الله ؟ قال: «**نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم**»[2].

(١) صحيح: «مسند أبي يعلى» (٧/٤٤٩)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (٣١٣١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨١٥) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

* وفي يوم من الأيام كان النبي ﷺ عند عائشة، وبينما هو جالس مع بعض أصحابه عند عائشة إذ أرسلت إحدى أمهات المؤمنين إناءً فيه طعام. . . فلما فتحت عائشة الباب ووجدت الطعام علمت أن إحدى زوجات النبي ﷺ تريد أن يعلم النبي ﷺ أن طعامها أجود من طعام عائشة . . فغارت أمنا عائشة وكسرت الإناء. . . فما كان من النبي ﷺ إلا أن قال للصحابة: «**غارت أمكم**» ثم جمع النبي ﷺ الإناء المكسور وطلب من عائشة أن تُعد طعامًا في إناء آخر وترسله لصاحبة الإناء ليكون طعامًا بطعامٍ وإناءً بإناءٍ(1).

غيرتها من خديجة رضي الله عنها

لقد علمنا كيف كان النبي ﷺ يحب خديجة حبًا جمًا. فلما ماتت أرسل الله جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ بصورة عائشة ليعلم أنها ستكون زوجته . . . وتمر الأيام ويتزوجها النبي ﷺ ويحبها النبي ﷺ حبًا جمًا. . . وكانت هي أيضًا تحبه حبًا لا يخطر على قلب بشر.

---

(1) صحيح: رواه البخاري (٥٢٢٥) كتاب النكاح.

وكانت تراه يحبها ويرفق بها ويعمل كل ما فى وسعه من أجل إسعادها ولطالما أسمعها كلمات الحب الجميلة التى جعلتها تشعر وكأنها تطير فوق السحاب.

لكن مع ذلك... ما بالها تسمع النبى ﷺ يثنى على خديجة كثيرًا وكانت تتساءل وتقول: إن خديجة امرأة كبيرة فى السن، وماتت منذ سنوات، ومع ذلك فهو لا يكُفّ عن ذكر محاسنها وفضائلها حتى إنه ليفرح كل الفرح إذا سمع أحدًا يذكرها بخير ويفرح إذا رأى أحد أقاربها أو إحدى صديقاتها.

وكان إذا ذبح الشاة يقول: **«أرسلوا إلى أصدقاء خديجة»**.

* ولذلك كانت عائشة تغضب كثيرًا إذا سمعت النبى ﷺ يثنى على خديجة وكان قلبها يعتصر ألمًا لذلك.

وتعالوا بنا لنرى ماذا كانت تقول عائشة عن غيرتها من خديجة رضي الله عنها.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على أحد من نساء النبى ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان رسول الله ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها فى صدائق خديجة فربما قلت

له: كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ؟ فيقول: «**إنها كانت وكانت... وكان لى منها ولد**»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها - أيضا - أنها قالت: ما غرت على نساء النبى ﷺ إلا على خديجة. وإنى لم أدركها. قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**». قالت: فأغضبته يومًا فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنى رُزقت حبها**»(٢).

وعن عائشة قالت: دخلت امرأة سوداء على النبى ﷺ، فأقبل عليها. قالت: فقلت: يا رسول الله، أقبلت على هذه السوداء هذا الإقبال ! فقال: «**إنها كانت تدخل على خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها - أيضا - أنها قالت: «استأذنت هالة بنت خويلد - أخت خديجة - على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك فقال: «**اللهم هالة**».

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨١٨) كتاب المناقب، ومسلم (٤٤٣٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٣٥) كتاب فضائل الصحابة/ باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها.

(٣) حسن: رواه أحمد، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٠٥٦).

قالت: فغرت. فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها»[1].

فغضب محمد ﷺ من قول عائشة غضباً ما رأت عائشة محمداً قط يغضبه، وتغير وجهه تغيُّراً ما شاهدته عليه إلا عندما تعتريه شدّة نزول الوحي عليه، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا والله، ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء**».

حينئذ كفت عائشة عن التعريض بخديجة رضي الله عنها، وقد رأت زوجها الحبيب يغضب كل هذا الغضب لأجلها، وإن ظلت من بعد ذلك رغم تعدد ضرائرها، تردد قولها: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، لما كنت أسمعه يذكرها[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٢١) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٣٧) كتاب فضائل الصحابة.
(٢) أزواج النبي (ص: ١٦٣-١٦٤).

قصة العسل

تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش، بنت عمته، وكانت بارعة الجمال، وقد تزوجها النبي ﷺ بأمر من الله، مما جعلها لذلك تفخر على سائر نسائه بقولها لهن: زوَّجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

وتحت وطأة الغيرة راحت عائشة، تؤازرها حفصة تدبران حيلة تُبعدان بها الرسول ﷺ عن زينب بنت جحش، وقد رأتاه يحتبس عندها وقتًا أكثر مما يحتبس عند سائر نسائه، وذلك عندما يدور عليهن كل يوم يستطلع حالهن، ويسألهن حاجتهن.

واتفقت عائشة وحفصة - وأشركتا سودة في اتفاقهما هذا - على أيتهن يجيئها الرسول بعد خروجه من عند زينب تقول له: رائحتك مغافير[1] (والمغافير طعام حلو ذو رائحة كريهة) وكان النبي يكره الرائحة الكريهة.

وجاء الرسول ﷺ، بعد خروجه من عند زينب، فلما أقبل عليها قالت: إني أشم رائحة مغافير،.. أكلت مغافير؟!

(١) انظر السمط الثمين (٨٠، ٨١).

فلما أتى حفصة قالت له ما قالت عائشة: أكلت مغافير؟؟

ولما جاء سودة وسألته: هل أكلت مغافير؟!.

قال: «لا».

قالت: فما هذه الريح؟!

قال: «سقتني زينب شربة من عسل».

وحرم النبي ﷺ على نفسه العسل الذي كان يشربه عند زينب، فيحتبسه عندها أكثر من غيرها.

وأحست سودة بالأسف والندم لما فعلت هي وعائشة وحفصة، إذ حرمن الرسول ﷺ من طعام كان يحبه، فقالت لهما: سبحان الله! والله لقد حرمناه!.

فردت عليها عائشة التي كانت غيرتها تغلبها على أمرها: اسكتي!

وانتصرت عائشة على زينب، وحرمتها من احتباس الرسول عندها أكثر مما يجب، وهو الوقت الذي كان يقضيه في ارتشاف العسل[1].

* * *

(١) أزواج النبي (ص: ١٧٠- ١٧١).

أشركاني في سلمكما

كان كثيرًا ما يشتد أبو بكر على عائشة رضي الله عنها، أو يُعنفها في أمر من الأمور، في سبيل راحة الرسول ﷺ، وكان الرسول ﷺ ربما يمنعه عنها، ويحول بينه وبين ابنته عائشة رضي الله عنها.

وقد حدث أن شكا النبي ﷺ يومًا عائشة إلى أبيها، فغضب أبو بكر على عائشة وضربها ضربة موجعة، فتألم الرسول ﷺ لذلك، وقال لأبي بكر لائمًا: «**غفر الله لك يا أبا بكر! ما أردت هذا...**».

فلما انصرف أبو بكر أقبل ﷺ على زوجته الحبيبة عائشة يراضيها، ويُطيِّب خاطرها وهو يقول: «**ألا ترين أني قد حُلت بين الرجل وبينك؟!**».

وعاد أبو بكر رضي الله عنه فوجد الرسول ﷺ يضاحك عائشة ويفاكهها فقال: يا رسول الله، أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما[1].

❊ ❊ ❊

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٩٩٩) كتاب الأدب - وقال الأرناؤوط: إسناده قوي، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٩٠١).

أدبها مع النبى ﷺ

ومع تلك الغيرة التى ملأت قلب أمنا عائشة لشدة حبها للنبى ﷺ إلا أنها كانت فى قمة الأدب مع رسول الله ﷺ .

عن عائشة، قالت: قال لى رسول الله ﷺ : «**إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية، وإذا كنت علىَّ غَضْبَى**» قالت: فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟.

قال: «**أما إذا كنت عنى راضية، فإنك تقولين: لا. ورب محمد! وإذا كنت غضبى، قلت: لا ورب إبراهيم!**» قالت: قلت: أجل. والله يا رسول الله! ما أهجر إلا اسمك[(١)] .

زهد عائشة رضي الله عنها

لقد نشأت عائشة فى بيت أبيها الصدِّيق رضي الله عنه فتعلمت الزهد منه.. . نعم والله فهو الذى جعل ماله كله لله ولم يتعلق قلبه لحظة واحدة بحطام الدنيا الزائل.

فلما تزوجها رسول الله ﷺ - سيد الزاهدين -

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٢٨) كتاب النكاح، ومسلم (٨٠) (٢٤٣٩) كتاب فضائل الصحابة.

بلغت عنده درجة الكمال فى الزهد لأنها كانت ترى الزهد فى حياة النبى ﷺ فى كل لحظة ورأت بعينيها كيف ترك رسول الله ﷺ زهرة الحياة الدنيا واختار ما عند الله - جل وعلا -.

ولقد عُرضت على نبينا محمد ﷺ مفاتيحها وخزائنها، لا ينقصه عند الله جناح بعوضه، فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض خالقه.

عن أبى هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**لو كان لى مثل أُحُد ذهبًا، لَسرَّنى أنْ لا تمرَّ علىَّ ثلاثُ ليالٍ وعندى منه شَىءٌ إلاَّ شيئًا أُرْصُدُهُ لدَين**» (١).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: تُوفِّىَ رسولُ الله ﷺ، وما فى بَيْتى منْ شىءٍ يأكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إلاَّ شَطْرُ شَعيرٍ فى رَفٍّ لى، فأكَلْتُ مِنْهُ حتَّى طَالَ علَىَّ، فَكلته فَفَنِى (٢).

وعن عمرو بنِ الحارِث أخى جُوَيْرِيَة بنْت الحَارث أُمِّ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٨٩) كتاب الاستقراض، ومسلم (٩٩١) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٥١) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٧٣) كتاب الزهد والرقائق.

المُؤْمِنِينَ رضي الله عنهما، قـال: «مَـا تَرَكَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، عِنْدَ مَوْتِهِ دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَلا عَبْـدًا، وَلا أَمَةً، وَلا شَيْئًا إِلاَّ بَغْلَتَهُ الْبَيْضَـاءَ الَّتِي كَانَ يَرْكَبُهَا، وَسِلاحَـهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا لابْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً»(١).

وعن عبد الله بن مَسْعُود رضي الله عنه، قال: نَامَ رسولُ الله ﷺ على حَـصِيـرٍ فَقَـامَ وَقَدْ أَثَّرَ فـي جَنْبِهِ، فـقُلْنَا: يا رَسُولَ الله لو اتَّخَـذْنَا لك وِطَاءً، فقال: ﷺ «مَا لي ومَا للدُّنْيَا؟ مَـا أَنَا في الدُّنْيَا إِلاَّ كَـرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَـجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»(٢).

وعن عائشـةَ رضي الله عنها، قالت: مَا شَبِعَ آلُ مُـحَـمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ(٣).

وفي رواية: مَا شَـبِعَ آلُ مُـحَمَّـدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمَ المَدِينَةَ

---

(١) صحيح أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) كتاب الزهد، وابن ماجه (٤١٠٩) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦٨) والسلسلة الصحيحة (٤٣٨).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٧٧) كتاب الزهد، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٦٨) و«السلسلة الصحيحة» (٤٣٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٤١٦) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٩٧٠) كتاب الزهد والرقائق.

مِنْ طَعامِ البُرِّ ثلاثَ لَيالٍ تِباعًا حتَّى قُبِض.

وعن عُرْوَةَ عَنْ عائشة رضي الله عنها، أنَّهـا كانَتْ تقُولُ: واللهِ يا ابنَ أُخْتِي إنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إلى الهِلالِ ثُمَّ الهِلالِ ثم الهلال ثلاثُ أهلَّةٍ في شَهرَيْن، ومَا أُوقدَ في أبيَاتِ رسولِ الله ﷺ نارٌ. قُلْتُ: يَا خالةُ فمَا كَانَ يُعيِّشُكُم؟ قالتْ: الأسْوَدَانِ: التَّمرُ والماءُ، إلاَّ أنَّهُ قدْ كانَ لرسول الله ﷺ جِيرانٌ مِنَ الأنْصارِ كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ وكَانُوا يرسلون إلى رسول الله مِنْ ألبانها فيَسْقِينا[1].

وعن جابر رضي الله عنه قال: «لَمَّا حفر رسول الله ﷺ الخندق، أصابهم جهدٌ شديد، حتى ربط النبيُّ ﷺ على بطنه حجرًا من الجوع»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فرأت فراشَ رسول الله ﷺ عباءة مثنيَّة، فرجعت إلى منزلها، فبعثت إليَّ بفراش حشوهُ الصوفُ، فدخل عليَّ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٦٧) كتاب الهبة، ومسلم (٢٩٧٢) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/٣٠١)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري رجاله ثقات رجال الشيخين غير أيمن المكي والد عبد الواحد فمن رجال البخاري.

رسـول الله ﷺ ، فـقـال: «ما هذا؟» فـقلتُ: فـلانةٌ الأنصارية دخلت عليّ، فرأت فراشك، فبعثت إليّ بهذا. فقـال: «رُدّيه» فلم أردّه، وأعـجبنى أن يكون فى بيـتى، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال: «**يا عائشة، رُدِّيه، والله لو شئت، لأجرى اللهُ معى جبال الذهب والفضة**»(١) .

فلما تعـايشت بقلبها وجـوارحها مع زهد أبيـها رضي الله عنه وزهد زوجها الحبيب ﷺ كانت حيـاتها كلها صـفحة ناصعة من الزهد فى مـتاع الدنيا وزينتها وأصـبح قلبها لا يتطلع إلا إلى رضوان الله (عز وجل) وجنته.

عن عائشة رحمها الله قالت: ما شبعت بعد النبى ﷺ من طعـام إلا ولو شـئت أن أبكـى لبكيت ومـا شـبع آل محمد ﷺ حتى قُبض.

وعن عـروة قال: رأيتهـا تقسم سـبعين ألفـا وهى تُرقِّع درعها(٢) .

وقال عـروة: (بعث معـاوية مرة إلى عـائشة بمائة ألف

(١) صحيح: أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٢/ ١٧٣)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (٢٤٨٤).
(٢) الزهد/ للإمام أحمد (ص: ٢٠٥-٢٠٦).

درهم، فقسمتها، لم تترك منها شيئًا، فقالت بريرة: «أنت صائمة، فهلا اشتريتِ لنا منها بدرهم لحمًا؟» قالت: «لو ذكرتني لفعلت»[1]، وعنه أيضا قال: «وإن عائشة تصدقت بسبعين ألف درهم، وإنها لترقع جانب درعها» - رضي الله تعالى عنها -[2].

وعن عائشة قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقَّت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار»[3].

أختار الله ورسوله

كانت حياة النبي ﷺ متصلة بالعبادة وتبليغ الرسالة، ولم تكن الدنيا ومتاعها همًّا يهتم له رسول الله ﷺ، ولذلك فقد حمل شدة العيش أمهات المؤمنين فاجتمعن

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٤٧)، والحاكم (٤/ ١٣).
(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٤٥).
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٠) كتاب البر والصلة والآداب.

على أن يسألن رسول لله ﷺ توسيع النفقة عليهن، فغضب عليه الصلاة والسلام منهن، واعتزلهن فى مَشربة له، - وهى غرفة عالية - ثم أمره رب العزة أن يخيرهن بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله فى ذلك الأجر العظيم والثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن الله ورسوله والدار الآخرة، . . . فأى خير أكمل من خير الدنيا وسعادة الآخرة.

وتروى السيدة عائشة رضي الله عنها تخييرها عند نزول الآيات الكريمة، فقال ﷺ لعائشة: «**إنى ذاكرٌ لك أمرًا فلا عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك**».

قالت: قد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه.

قالت عائشة: ثم قال عليه السلام: «**إن الله عز وجل قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾**»[1].

(١) سورة الأحزاب: الآيتان: (٢٨، ٢٩).

قالت: أفي هذا أستأمر أبويّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

قالت: ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلت[1].

لقد اختارت عائشة رضي الله عنها الله ورسوله والدار الآخرة، وتركت اختيار الحياة الدنيا وزينتها، وكذلك أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وقد أعد للمحسنات منهن أجرًا عظيمًا، لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة [2].

الصائمة العابدة

ولقد كانت أمنا عائشة رضي الله عنها يُضرب بها المثل في العبادة فكانت تصوم العام كله ولا تُفطر إلا في يوم عيد الفطر أو الأضحى وكانت تقوم الليل تصلي وتبكي وكانت تُكثر من ذكر الله وقراءة القرآن وكانت تُردد الآية من الليل حتى الصباح وهي تبكي من خشية الله (جل وعلا).

---

(١) انظر تفسير ابن كثير للآية (٣/ ٤٨١)، والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم.
(٢) أزواج النبي (ص: ١٥٢).

جهادها

ولقد كانت رضي الله عنها حريصة كل الحرص على أن لا يفوتها أى طاعة تتقرب بها إلى الله عز وجل.

وبلغ حرصها على كل ما يقربها من الله (عز وجل) أن استأذنت من الرسول ﷺ لكى يأذن لها بالجهاد فى سبيل الله - من كثرة ما سمعت عن فضائل الجهاد والمجاهدين .

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: استأذنت النبى ﷺ فى الجهاد فقال: «**جهادكن الحج**»[1].

لقد كانت عائشة رضي الله عنها مثلاً يُحتذى وقدوة يُقتدى بها فى جهاد النساء، فضربت المثل على مشاركة المرأة المسلمة فى صدر الإسلام فى تحمُّل بعض أعباء الجهاد بما يتناسب وتكوين المرأة المسلمة.

ففى غزوات الرسول ﷺ خرجت عائشة رضي الله عنها وكثير من النسوة من نساء وبنات الصحابة رضوان الله عليهم، . . . وكل عمل النساء الغالب فى الجهاد فى سبيل

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٨٧٥) كتاب الجهاد والسير.

الله ينحصر فى سقى الماء، وتمريض الجرحى، وإخلاء القتلى، وقد تطور الأمر فشاركت بعض النسوة فى القتال فعلاً مثل أم عمارة رضي الله عنها، وصفية بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ.

وبدأت مشاركة عائشة رضي الله عنها فى الجهاد بعد غزوة بدر.

فى غزو أحد

جاءت غزوة أُحد وخرج الرسول ﷺ لقتال المشركين، وخرجت عائشة مع النساء تسقى الجرحى وتحمل قِرَب الماء على عاتقها، لتفرغها فى أفواه المجاهدين وفى ذلك يتحدث أنس بن مالك فيقول: ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سُليم لمشمرتان، أرى خدم سوقهما تنقلان القِرَب على متونهما ثم تُفرغانه فى أفواههم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان تفرغانه فى أفواه القوم(١).

هكذا كانت عائشة مجاهدة فى سبيل الله خلف زوجها النبى ﷺ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٨٠) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨١١) كتاب الجهاد والسير.

قصة الإفك

لم تستـرح نفـوس المنافقين الذين رأوا انتصارات الإسلام تتوسع يومًا بعد يوم، ووجدوا أن مكانتهم بدأت تنحسر وتتلاشى إلى أن مقتهم مجتمعهم، فأرادوا بزعمهم أن يوجهوا ضربة قاصمة إلى النبى الكريم ﷺ، فرموا أمنا الطاهرة الصديقة بنت الصديق بالبهتان العظيم.

وكـان عبد اللـه بن أبى ابن سلول قـد تولَّد النفـاق والحسـد فى قلبه من أول يوم سمع فيه بالإسلام وطفق يكيد للنبى ﷺ وللإسلام المكيدة تـلو الأخرى، ولكن حكمة الله سبحانه كـانت له وللمنافقين بالمرصاد، فكانت تُلجمهم وتكبتهم.

نعم إن الابتلاء سُنة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير... ولكن الابتلاء الذى تعرضت له أمنا عائشة رضي الله عنها كان ابتلاءً يُفتت الصخور والجبال ويعصف بالقلوب، فلقد اتُهمت فى أعز شىء تملكه المرأة - اتُهمت فى عرضها -!!!. إن هذا لهو البلاء العظيم.. عائشة رضي الله عنها تُتهم فى عـرضهـا، وهى الزهرة التقيـة النقية التى نبتت فى حقل الإسـلام وسُقيت

بماء الوحي... ورسول الله ﷺ يُتهم في عرضه وهو القائم على صيانة حُرمات الأمة وأعراض المسلمين... والصدِّيق رضي الله عنه يُتهم في عرض ابنته الغالية!!!.

وكان لحديث الإفك وَقْعٌ أليم على قلب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها... ومرت عليها وعلى البيت النبوى الطاهر والبيت البكرى الصادق أوقات قاسية حرجة، امتدت إلى شهر من الزمن، حتى نزل القرآن الكريم بالبراءة للعفيفة الصدِّيقة بنت الصدِّيق، وتحمل هذه البراءة شهادة مباركة للمؤمن صفوان بن المعطل الذى رُمى بالحديث الآثم، كما وسمت المنافقين بميسم الزور والبهتان الذى ظل يلاحقهم إلى النهاية[1].

بركة عائشة ونزول آية التيمم

ومن بركات أمنا الغالية (عائشة) رضي الله عنها أن الله (عز وجل) أنزل بسببها آية التيمم تيسيرًا على المسلمين ففرح المسلمون لذلك فرحًا شديدًا... فيا لها من أمٍّ مباركة فاح عبير بركتها على كل من حولها من المسلمين.

(١) نساء مبشرات بالجنة (ص: ١٨٠) بتصرف.

فقد خرجت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كانوا بالبيداء، وفي موقع استراحة الجيش، انقطع عقد عائشة رضوان الله عليها، فأقام الرسول ﷺ على التماسه والبحث عنه، وقام الناس معه يبحثون عن العقد، ولم يكن معهم ماء يكفيهم، فأتى الناس أبا بكر رضي الله عنه فقالوا: أما ترى ما صنعت ابنتك عائشة، أقامت برسول الله وبالناس، وليسوا على مقربة من ماء وليس معهم ماء!!

تقول عائشة عن هذا الموقف: فعاتبني أبو بكر، فقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان النبي ﷺ على فخذي، فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾(1).

فقال أسيد بن الحضير - وهو أحد نقباء الأنصار-: ما هذا بأول بركتكم يا آل أبي بكر!

(1) سورة المائدة: الآية: (٦).

قالت عائشة رضي الله عنها: فبعثنا البعير الذى كنت عليه، فوجدنا العقد تحته[1].

وفاة الرسول ﷺ

* إن الأحداث العظيمة تسبقها بعض العلامات التى تشير إلى قُرب وقوعها.

وقد تم للمسلمين فتح مكة أم القرى فى السنة الثامنة من الهجرة المباركة، وفى السنة التاسعة أقبلت الوفود تُقر بالإسلام أو تعطى الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وأرهب جيشُ العسرة الذى خرج به النبى ﷺ جحافل الروم حتى فرّوا من مواجهته، ودانت جزيرة العرب بالإسلام، وكان ذلك بعد عشر سنين من جهاد النبى ﷺ المتواصل وصحابته الكرام رضي الله عنهم، فكل العلامات تشير إلى انتهاء مهمة رسول الله ﷺ فقد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وأصبح الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٤) كتاب التيمم، ومسلم (٣٦٧) كتاب الحيض.
(٢) وقفات تربوية (ص: ٤٠٣).

العلامات التى أشارت إلى قرب انتهاء أجله ﷺ

ولقد سبق موت النبى ﷺ علامات تشير إلى قُرب انتهاء أجله ﷺ فمن بين ذلك:

أنه ﷺ كان يعتكف كل سنة عشرًا فى رمضان فاعتكف فى السنة الأخيرة عشرين ليلة وكان جبريل يعارضه القرآن مرة فى رمضان فعارضه فى السنة الأخيرة مرتين.

* ومن ذلك ما رواه أحمد عن معاذ قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشى تحت راحلته، فلما فرغ قال: **«يا معاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى»** فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله ﷺ ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: **«إن أولَى الناس بى المتقون مَن كانوا وحيث كانوا»**(١).

(١) رواه أحمد (٥/٢٣٥)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٢٤٩٧).

* وخرج النبى ﷺ للحج فى السنة العاشرة وقال: «خذوا عنى مناسككم لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا وطفق يودع الناس»(١).

ونزل عليه بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾(٢).

* وفى ثانى أيام التشريق نزل عليه قوله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(٣).

- فكانت هذه السورة تخبر بانتهاء أجل النبى ﷺ وتنعى إليه نفسه.

* ومن هذه العلامات أنه ﷺ خرج إلى أحد فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات.

* ومن هذه العلامات كثرة تتابع الوحى على رسول الله ﷺ.

* ومن هذه العلامات أنه ﷺ كان يُرغبهم فى كثرة ملازمته والجلوس إليه قبل أن يُحرموا ذلك، ويتمنى

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢٩٧) كتاب الحج.
(٢) سورة المائدة: الآية: (٣).
(٣) سورة النصر: الآيات: (١-٣).

أحدهم لو رآه بأهله وماله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ليأتين على أحدكم يوم ولا يراني، ثم لأن يراني أحب إليه من أهله وماله معهم»[1].

فأولوه على أنه نعى نفسه إليهم وعرَّفهم ما يحدث لهم بعده من تمني لقائه عند فقدهم ما كانوا يشاهدون من بركاته عليه السلام.

* ومن هذه الإشارات زيارته لأهل البقيع واستغفاره لهم:

* عن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: «بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل، فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي»، فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم، قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى، ثم أقبل عليَّ». فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٦٤) كتاب الفضائل.

الجنة، فخُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة».

قال: فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، قال: «لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة»، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه»[1].

بداية مرضه ﷺ

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ وكان يوم الاثنين شهد رسول الله ﷺ جنازة في البقيع، فلما رجع، وهو في الطريق أخذه صداع في رأسه، وارتفعت درجة حرارة النبي ﷺ.. فدخل على عائشة فوجدها تقول: وارأساه.

فقال: «بل أنا والله يا عائشة وارأساه».

ثم أخذ المرض يشتد برسول الله ﷺ حتى ازداد عليه ثقل المرض وهو في بيت ميمونة.. فدعا النبي ﷺ نساءه واستأذنهن في أن يُمرَّض في بيت عائشة فأذنَّ له جميعًا.

---

(١) رواه أحمد (١٥٥٦٧).

ويدخل عليه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فوجد النبي ﷺ وقد اشتد عليه المرض فقال له: يا رسول الله! إنك لتوعك وعكًا شديدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «أجل: إني أوعك كما يوعك رجلان منكم».

قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين.

فقال رسول الله ﷺ: «أجل»[1].

وطلب النبي ﷺ منهم أن يسكبوا عليه سبع قِرب من الماء فأحضروا ماءً كثيرًا وأخذوا يصبوا عليه الماء حتى زالت عنه بعض الحرارة ﷺ.

وقام النبي ﷺ يخطب في الناس وينعى نفسه إليه فقال: «إن عبدًا خَيَّره اللهُ بين زَهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده؛ فاختار ما عند الله».

ولم يَفْهَم أحدٌ من الصحابة أن هذه لحظات الوداع، إلا أبو بكر الذي بكى وقال: فَديناك بآبائنا وأُمهاتنا يا رسول الله[2].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٤٨) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧١) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٩٠٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٨٢) كتاب فضائل الصحابة.

مُروا أبا بكر فليُصلِّ بالناس

والنبي ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم - يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام - وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بالمرسلات.

وعند العشاء زاد ثقل المرض بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ثقل النبي ﷺ فقال: «أصلَّى الناس؟».

قلنا: لا، وهم ينتظرونك يا رسول الله.

قال: «ضعوا لي ماءً في المخضب».

قالت: ففعلنا. فاغتسل ثم ذهب لينوء فأُغمي عليه، ثم أفاق فقال ﷺ: «أصلَّى الناس؟».

قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله.

فقال: ضعوا لي ماءً في المخضب.

قالت: فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأُغمي عليه، ثم أفاق فقال: «أصلى الناس؟».

فقلنا لا، هم ينتظرونك يا رسول الله.

فقال «ضعوا لى ماءً فى المخضب» فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمى عليه ثم أفاق فقال: «أصلى الناس؟».

فقلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله... والناس عكوف فى المسجد ينتظرون النبى عليه السلام لصلاة العشاء الآخر - فأرسل النبى ﷺ إلى أبى بكر بأن يصلى بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلى بالناس، فقال أبو بكر - وكان رجلاً رقيقًا - يا عمر صلِّ بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك. فصلى أبو بكر تلك الأيام[1].

قبل الوفاة بيوم

وقبل يوم من الوفاة - يوم الأحد - أعتق النبى ﷺ غلمانه، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته، وفى الليل استعارت عائشة الزيت للمصباح من جارتها، وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعًا من الشعير[2].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٦٧) كتاب المغازى، ومسلم (١٦٠٣) كتاب المساقاة.

آخر يوم فى حياة النبى ﷺ

وخرج النبى ﷺ فى صبح اليوم الذى لحق فيه بالرفيق الأعلى ينظر إلى ثمرة جهاده وصبره فألقى على أصحابه الذين أحبوه وأحبهم نظرة وداع فكادوا يُفتنون من الفرح به ﷺ ظنًا منهم أنه ﷺ قد عوفى من مرضه ولم يظنوا أنه ينظر إليهم نظرة الوداع حتى يلتقى بهم على حوضه وفى جنة الله عز وجل... ولو علموا ذلك لتفطرت قلوبهم.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر كان يصلى لهم فى وجع النبى ﷺ الذى توفى فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين - وهم صفوف فى الصلاة - كشف النبى ﷺ ستر الحجرة، فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ثم تبسم يضحك فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبى ﷺ فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف وظنّ النبى ﷺ خارج إلى الصلاة فأشار إلينا النبى ﷺ أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر فتوفى من يومه»[1]. ثم لم تأتِ على النبى ﷺ صلاة أخرى[2].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٠) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٩) كتاب الصلاة.
(٢) نقلاً من وقفات تربوية (ص: ٤١٢) للدكتور أحمد فريد.

* وكأن الله تعـالى أراد أن يُطمئن النبى ﷺ على كمال انقياد أمته وحسن اتباعها فأشهده آخر وقت حضره وهو فى الدنيا، إذ أقبل المؤمنون من بيـوتهم إلى المسجد فجر الاثنين الذى قُبض فيه، واصطفوا لصلاتهم خُشعًا مخبتين، وراء إمام رقيق التلاوة فياض الإخلاص، ورفع النبى ﷺ الستـر المضروب على منزل عـائشة، وفتح الباب وبرز للناس.

فكاد المسلمـون يُفتنون فى صلاتهم ابتـهاجًـا برؤيته، وتفرجـوا يفسـحون له مكانًا فأشـار بيده: أن اثبـتوا على صلاتكم، وتبسم فرحًا من هيئتهم فى صلاتهم.

قال أنس بن مالك: ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه فى تلك الساعة.

ثم رجع وانصـرف الناس، وهم يظنون أن رسـول الله قد أفاق مـن وجعه، واطمأن أبو بكـر لهذا الظن، فرجع إلى أهله بالسنح- فى ضواحى المدينة.

قالت عـائشة: وعاد رسول الله مـن المسجد، فاضطجع فى حجرى[1].

(١) فقه السيرة للغزالى (ص:٥١٨).

النبى ﷺ ينعى نفسه إلى فاطمة (عليها السلام)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: اجتمع نساء النبى ﷺ، فلم تغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشى كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ.

قال: «مرحبًا بابنتى» فأجلسها عن يمينه أو عن شماله.

ثم إنه أسرَّ إليها حديثًا فبكت فاطمة.

ثم إنه سارَّها فضحكت أيضًا.

فقلت: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن.

فقلت لها حين بكت: أخصَّك رسول الله ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين؟

وسألتها عما قال فقالت: ما كنت لأفشى سر رسول الله ﷺ.

حتى إذا قُبض سألتها فقالت: إنه كان حدثنى: «أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة، وإنه عارضه به فى العام مرتين، ولا أرانى إلا قد حضر أجلى، وإنك أولُ أهلى لحوقًا بى، ونعم السلف أنا لك» فبكيت لذلك.

ثم إنه سارني فقال: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة فضحكت لذلك» (١).

ليس على أبيك كرب بعد اليوم

وعن أنس قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه فقالت فاطمة عليها السلام: وا كرب أبتاه، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم» (٢).

شدة تأثر النبي ﷺ بالطعام المسموم (يوم خيبر)

* ودعا النبي ﷺ الحسن والحسين فقبّلهما وأوصى بهما خيراً ثم دعا أزواجه فوعظهن وذكّرهن بالله (عز وجل).

وأحسّ رسول الله بآثار السُّم يوم خَيبر تَجري في جسده، فاشتد الوجع والألم عليه، وهو يقول: «لا إله إلا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٢٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٥٠) كتاب فضائل الصحابة.
(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٤٦٢) كتاب المغازي - وأحمد (٣/٢٠٤).

الله إن للموت لَسَكَرَات»[1].

عن عائشة، زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: «إنه لم يُقبض نبيٌّ قط، حتى يرى مقعده في الجنة، ثم يُخيَّر» قالت عائشة: فلما نزل برسول الله ﷺ، ورأسه على فخذي، غُشي عليه ساعة ثم أفاق. فأشخص بصره إلى السقف. ثم قال: «اللهم ! الرفيق الأعلى». قالت عائشة: قلت: إذًا لا يختارنا.

وفي رواية: قالت عائشة: تُوفي رسول الله ﷺ في بيتي، وفي يومي وليلتي، وبين سَحْرِي ونحري. ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر، ومعه سواكٌ رَطْبٌ، فنظر إليه، حتى ظننت أنه يريده، فأخذته، فمضغته ونفضته وطيَّبته، ثم دفعته إليه. فاستنَّ به كأحسن ما رأيته مُستنًا قط؛ ثم ذهب يرفعه إليَّ، فسقطت يده، فأخذت أدعو له بدعاء كان يدعو به له جبريل، وكان هو يدعو به إذا مرض، فلم يدع به في مرضه ذاك. فرفع بصره إلى السماء،

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٤٤٩) كتاب المغازي.

وقال: «**الرفيق الأعلى**» وفاضت نفسه. فالحمد لله الذى جمع بين ريقى وريقه فى آخر يوم من الدنيا»[1].

اللهم الرفيق الأعلى

ثم نزل جبريل عليه السلام يقول:

يا مُحمد إن ربك إليك مُشتاق، وإنه قد بعث معى ملك الموت يَستأذن عليك وما استأذن على أحد قبلك، ولن يستأذن على أحد بعدك، وهذا آخرُ عَهْدى بالدنيا ولن أهبط إلى الأرض بعد ذلك على أحدٍ من بعدك.

فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا مُشتاقٌ إلى ربى**».

ثم نظر إلى السماء، وتحركت شفتاه قائلاً: «**مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبيين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصالحين، اللهم اغفر لى وارحمنى، وألحقنى بالرَّفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى**».

وغُمضت عَينَا رسول الله، وسكت صَوْته، وصعدت روحه لمولاه، وآن للجسد المُتعَب أن يَسْتريح، ولرسول الله

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٨)، وصححه الحاكم (٤/ ٧) ووافقه الذهبي.
والسحر: الرئة - النحر: أعلى الصدر - استن: استاك.

أن يَعيش بِرُوحـه فى السَّماء بجـوَار ربه ومولاه، فإنّا لله وإنا إليه راجعون.

وأظلمت أرجاء المدينة بعد أن كـانت مُنيرة برسول الله حتى قـال أنس بن مالـك رضي الله عنه: ما رأيتُ يَومًـا قطُّ كان أحـسَنَ ولا أضـوأ من يوم دخل علينا رسـول الله، وما رأيت يومًا كـان أقْبَح ولا أظلم من يوم مـات فيـه رسول الله.. (١).

وتم تأويل الرؤيا

ودُفن النبى ﷺ فى غرفة أمنا عائشة رضي الله عنها.

ومن أجلّ وأعظم المكرمات التى حظيت بها أمنا عائشة رضي الله عنها أن حجـرتها دُفن فـيها أعظم ثلاثـة فى تاريخ الأمة الإسلامية: فكان أعظمهم جـميعًا رسول الله ﷺ الذى دُفن فى حجرتهـا ثم دُفن أبو بكر ثم دُفن عمر رضى الله عنهم جميعًا.

(١) حياة محمد (ص: ٢٥٣ : ٢٥٥).

ولقد رأت عائشة ذلك الفضل من قبل، فقد قالت لأبى بكر الصديق رضي الله عنه: رأيت كأن ثلاثة أقمار سقطن فى حجرى، فقال لها: إن صدقت رؤياك دُفن فى بيتك ثلاثة من خير أهل الأرض، فلما دُفن النبى ﷺ، قال أبو بكر هذا أحد أقمارك وهو خيرها ثم دُفن القمر الثانى فكان أبو بكر نفسه، ثم القمر الثالث، فكان عمر رضي الله عنه، وبهذا تم تأويل رؤيا عائشة من قبل وقد جعلها الله حقًّا.

عائشة رضي الله عنها وحياء يعجز القلم عن وصفه

إن المرأة المؤمنة بفطرتها التقية تستحى من أى رجل حتى ولو كان زوجها فما ظنك بمن لا تستحى من الأحياء فحسب بل تستحى من الأموات!!!.

إنها أمنا الطاهرة التقية عائشة رضي الله عنها وعن أبيها.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أدخل البيت الذى دُفن فيه رسول الله ﷺ وأبى رضي الله عنه واضعة ثوبى،

وأقول: «إنما هو زوجي وأبي» فلما دُفن عمر رضي الله عنه، والله ما دخلته إلا مشدودة عليَّ ثيابي حياءً من عمر رضي الله عنه»[(١)].

بعد وفاة الحبيب صلى الله عليه وسلم

وظلت أمنا عائشة رضي الله عنها بعد وفاة الحبيب صلى الله عليه وسلم - على العهد صائمة قائمة عالمة بالكتاب والسُّنة، يأتيها من كل حدبٍ وصَوب أهل العلم يقصدون أخذ العلم من نبعه الصافي، فلقد كانت موسوعة نادرة لحديث النبي صلى الله عليه وسلم فكانت تُعلِّم الجاهل وتهدى الحائر وتُرشد الناس إلى الفضائل ومكارم الأخلاق.

وعاشت في ظل الخلافة الإسلامية الراشدة وكانوا جميعا يعلمون قدرها ومكانتها الغالية السامقة... فهي حبيبة الحبيب صلى الله عليه وسلم وأم المؤمنين ومنارة العلم التي فاح عبيرها على الكون كله فملأت الدنيا علمًا ودينًا وأدبًا ومعرفة وزهدًا وورعًا.

* * *

(١) صحيح: رواه أحمد (٦/ ٢٠٢)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (١٧٧١).

فى عهد أبيها رضي الله عنه

لزمت السيدة عائشة بعد وفاة النبى ﷺ فى حجرتها تعزى نفسها بجواره ﷺ، وانشغل الناس وعلى رأسهم أميرهم أبو بكر بحروب الردة، ولما أراد أزواج النبى ﷺ أن يرسلن عثمان إلى أبى بكر رضي الله عنه يسألنه ميراثهن من رسول الله ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها لهن: أوَ ليس قد قال رسول الله ﷺ: **«لا نورث، ما تركناه فهو صدقة»**[(١)].

ولم تكن خلافة الصدِّيق طويلة الأمد، بعيدة الزمن، فقد اتفقت الروايات أن أبا بكر استكمل فى خلافته سن رسول الله ﷺ، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليالٍ، وكانت ولادته بعد عام الفيل بسنتين وأربعة أشهر وأيامًا، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين[(٢)].

وقد امتد المرض بأبى بكر خمسة عشر يومًا والناس يعودونه، والسيدة عائشة رضي الله عنها تُشرف على تمريضه، وفيما

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٦٢)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٢) الشيخ على الطنطاوى فى كتابه أبو بكر.

كان المرض يشتد على أبيها كانت تعزى نفسها ببعض الأشعار، فينبهها أبو بكر رضي الله عنه وهو فى شدة المرض، كى تستبدل الأشعار بالقرآن الكريم[1].

وتجددت الأحزان فى قلبها بموت أبيها

وبعد حياة طويلة مليئة بالحب والبذل والتضحية والفداء والعدل والإيثار.

نام خليفة رسول الله ﷺ على فراش الموت ليلحق بحبيبه وصاحبه رسول الله ﷺ فى جنة الرحمن جل وعلا إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

عن عائشة رضي الله عنها أول ما بُدِئَ مرض أبى بكر أنه اغتسل، وكان يومًا باردًا فَحُمَّ خمسة عشر يومًا لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمر بالصلاة، وكانوا يعودونه وكان عثمان ألزمهم له فى مرضه.

وعن عائشة قالت: لما مرض أبو بكر مرضه الذى مات فيه قال: انظروا ماذا زاد فى مالى منذ دخلت فى الإمارة

(١) أزواج النبى (ص: ٢١٢- ٢١٣).

فابعثوا به إلى الخليفة مَن بعدى فنظرنا فإذا عبدٌ نوبى كان يحمل صبيانه، وإذا بعيرٌ كان يسقى بستانًا له فبعثنا بهما إلىَّ عمر. فبكى عمر وقال: رحمة الله على أبى بكر لقد أتعب مَن بعده تعبًا شديدًا [1].

ثم قال: يا عائشة: إنه ليس أحدٌ من أهلى أحب إلىَّ منك، وقد كنت أعطيتك بستانًا وإن فى نفسى منه شيئًا فَرُدِّيه إلى الميراث.

قالت: نعم فرددته.

وقال ﷺ: أما إنَّا منذ وُلِّينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارًا ولا درهمًا، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا ولبسنا من خيش ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فيء المسلمين قليلٌ ولا كثير إلا هذا العبد الحبشى، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا متُّ فابعثى بهن إلى عمر، وابرئى منهن ففعلت، فلما جاء الرسولُ (عمر) بكى حتى جعلت دموعه تسيل فى الأرض، ويقول: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله

(١) صفة الصفوة (١/ ١٠٨).

أبا بكر، لقد أتعب مَن بعده، رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده[1].

واستمر مرض أبى بكر مدة خمسة عشر يومًا حتى كان يوم الإثنين ليلة الثلاثاء فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة.

قال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم الإثنين، قال: فإن متُّ من ليلتى فلا تنتظروا بى الغد، فإن أحبَّ الأيام والليالى إلىَّ أقربُها من رسول الله ﷺ[2].

وتوفى - رحمه الله - وهو ابن ثلاثٍ وستين سنة.

الفقيهة الربانية
التى حُمل عنها ربع الشريعة

* فها هى أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما حبيبة رسول الله ﷺ، الفقيهة الربانية، المُبرأة من فوق سبع سموات.

---

(١) الطبقات (٣/ ١٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٨، رقم ٤٥).

لحق النبي ﷺ بربه وهي لم تَخْطُ بعد إلى التاسعة عشرة، على أنها ملأت أرجاء الأرض علمًا، فهي في رواية الحديث نسيج وحدها، ولم يكن بين أصحاب النبي ﷺ من كان أروى منها ومن أبي هريرة رضي الله عنه، على أنها كانت أدق منه وأوثق.

قال الزهري: «لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل».

وقال عطاء: «كانت عائشة أفقه الناس، وأحسن الناس رأيًا في العامة».

وعن عروة بن الزبير قال: «ما رأيت أحدًا أعلم بفقهٍ ولا بطبٍّ ولا بشعر من عائشة رضي الله عنها»(١).

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديثٌ قطّ، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا»(٢).

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩-٥٦).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٨٨٣)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٦١٨٥).

وقال مسروق: «رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ يسألونها عن الفرائض»(١).

لقد كانت رضي الله عنها إحدى المجتهدات وكانت من أنفذ الناس رأيًا في أصول الدين ودقائق الكتاب المبين، وكانت رضي الله عنها تحسن أن تقرأ، ولم يكن يعرف ذلك إلا عدد محدود من أصحاب رسول الله ﷺ، وكم كان لها رضي الله عنها من استدراكات على الصحابة وملاحظات، فإذا علموا بذلك منها رجعوا إلى قولها.

وكانت تزورها النساء في بيتها فتُعلمهن، . . . وهذه المرأة المخزومية التي قُطعت يدها تقول عنها الرواية: «. . فكانت تأتي بعد ذلك إلى بيت عائشة تتفقه في دينها»(٢).

وكانت زوجات رسول الله ﷺ جميعًا قسيمات عائشة رضي الله عنها في إذاعة العلم وإفاضة الدين على المسلمين.

❊ ❊ ❊

---

(١) «الإجابة» للزركشي (ص: ٥٧).
(٢) كتاب مواقف من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين/ للمصنف (١/ ٥٢٧-٥٣٠) بتصرف.

مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وبعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه تولى عمر رضي الله عنه الإمارة فأصبح أمير المؤمنين. . . وعاش المسلمون فى عهده فى ظل العدل والرحمة وكانوا ينتقلون من نصر إلى نصر. . . وتمر الأيام ويُقتل عمر رضي الله عنه ليموت شهيدًا كما أخبره بذلك الصادق الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ .

اتَّسم دور عائشة رضي الله عنها فى عهد عمر بن الخطاب بالجانب العلمى، فقد بدأت تظهر مكانتها العلمية حتى إن عمر رضي الله عنه وغيره من كبار الصحابة كان إذا أشكل عليهم أمر، وبخاصة فى الشؤون الشخصية للإنسان والتى تجلب حرجًا أحيانًا، كانوا يسألون عنه عائشة رضي الله عنها.

وقد ذُكر أن أزواج النبى ﷺ كن يحفظن من حديث النبى كثيرًا، وكانت عائشة تُفتى فى عهد عمر وعثمان إلى أن ماتت رحمها الله، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ، عمر وعثمان بعده يرسلان إليها فيسألانها عن السُّنن(١).

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٣٧٥).

وفى اللحظات الأخيرة من حياة الفاروق رضي الله عنه قال لابنه: يا عبد الله بن عمر انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم للمؤمنين أميراً - وقل: يستأذن عمر ابن الخطاب أن يُدفَن مع صاحبيه، فسلَّم فاستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى.. فقال: يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام، ويستأذن أن يُدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسى، ولأوثرنه به اليوم على نفسى.

فيا له من إيثار يفوق الخيال.... إنها تؤثره بأعز ما كانت تتمناه... فرضى الله عنها وأرضاها [1].

❊ ❊ ❊

(١) صحابيات حول الرسول (ص: ١٦٥).

حضورها يوم الجمل

ولما حدثت الفتنة بين علىّ ومعاوية رضي الله عنهما خرجت أمنا عائشة رضي الله عنها تريد الإصلاح بين الناس والمطالبة بالقصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه .

ولم يكن حضور أمنا عائشة فى يوم الجمل لحرب على ابن أبى طالب كما يقول أعداء الإسلام وإنما كان خروجها من أجل الإصلاح بين المسلمين ومن أجل المطالبة بالقصاص من الذين قتلوا أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه .

ولكن على بن أبى طالب رضي الله عنه أرسل إلى أمنا عائشة رضي الله عنها من يقنعها بتأجيل المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان حتى تهدأ الأمور وتستقر الأحوال فى البلاد وتموت الفتنة فى مهدها . . . ورضيت أمنا عائشة بذلك هى وطلحة والزبير رضي الله عنهم واتفقوا جميعًا على الصلح .

لكن أعداء الله دبروا بالليل مؤامرة جعلت على بن أبى طالب يظن أن طلحة والزبير قد غدرا به وجعلت طلحة والزبير يظنان أن على بن أبى طالب قد غدر بهما

فنشبت الحرب بينهم بلا قصد ولا تدبير.

وحزنت أمنا عائشة على هذا حزنًا شديدًا وأخذت تبكى وهى التى ما أرادت إلا الصلح بين المسلمين.

* وظلت بعد موقعة الجمل عاكفة فى بيتها تبكى نادمة على خروجها فى يوم الجمل حتى آخر لحظة فى حياتها لأنها لم يخطر على بالها أبدًا أن ترى المسلمين يقتل بعضهم بعضًا.

ولم يكن ذلك إلا بسبب الفتنة التى أثارها أعداء الإسلام وإلا فأصحاب النبى ﷺ من أعظم الناس أخلاقًا ورحمة ورفقًا وعدلاً، وأبعد الناس عن الظلم والجور وحب الدنيا... رضى الله عنهم أجمعين.

* * *

وحان وقت الرحيل

وبعد هذه الرحلة الطويلة من العبادة والعلم والبذل والعطاء والتضحية لدين الله (عز وجل) نامت الصدِّيقة الطاهرة المطهرة على فراش الموت بعدما ملأت الدنيا علمًا وفقهًا وزهدًا وورعًا... فلقد آن الأوان لأمنا الغالية أن تستريح وأن تبدأ رحلتها مع النعيم المقيم فهى زوجة الحبيب ﷺ فى الدنيا وفى الآخرة. فهنيئًا لها ثم هنيئًا لها ثم هنيئًا لها.

وفى شهر رمضان من السنة الثامنة والخمسين للهجرة ألمَّ المرض بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانت وصيتها أن تُدفن بالبقيع مع صواحبها أمهات المؤمنين وآل بيت رسول الله ﷺ.

وفى ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، توفيت أم المؤمنين عائشة وصعدت روحها إلى ربها راضية مرضية.

ولما سمعت أم المؤمنين أم سلمة الصرخة على عائشة

قالت: والله لقد كنتِ أحبَّ الناس إلى رسول الله ﷺ إلا أباها.

ودُفنت من ليلتها بعد صلاة الوتر(١).

وقَدِم أبو هريرة رضي الله عنه فصلَّى عليها، فاجتمع الناس، ونزل أهل العوالي، وحضروا جنازتها، فلم تُرَ ليلة أكثر ناسًا منها (٢).

* ولا نملك ونحن نودع أمنا الغالية إلا أن نتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾(٣)

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٧٦).
(٢) نساء أهل البيت (ص: ١٦٦).
(٣) سورة القمر: الآيتان: (٥٤، ٥٥).



حفصة بنت عمر رضي الله عنهما



حفصة بنت عمر رضي الله عنهما

حبايبي الحلوين:

وها نحن على موعد مع صفحة جديدة نتعرف من خلالها على أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما... تلكم الزهرة التي جمع الله لها من المكارم والفضائل ما يعجز القلم عن وصفه.

* فأبوها هو فاروق الأمة الأكبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إنه الرجل الذي كان إسلامه فتحًا وكانت هجرته نصرًا وكانت ولايته عدلاً.

إنه الرجل الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله جعل الحق على قلب ولسان عمر»[1].

---

(١) صحيح: أحمد (٢/ ٥٣)، والترمذي (٣٦٨٢) كتاب المناقب، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٧٣٦).

وقال عنه: «لو كان نبيٌّ بعدي لكان عمر»[1].

إنه الرجل الذى نزل القرآن أكثر من مرة موافقًا لرأيه.

إنه الرجل الذى بشَّره النبى ﷺ بالجنة.

إنه الرجل الذى أخبره النبى ﷺ بأن الشيطان يخافه ويهرب منه.

إنه الرجل الذى حفرت الدموع خطين أسودين فى وجهه من كثرة البكاء.

إنه العابد الزاهد المجاهد.

* وعمها هو زيد بن الخطاب الذى شهد بدرًا والمشاهد - واستُشهد فى يوم اليمامة - إنه الرجل الذى قال عنه عمر رضي الله عنه: سبقنى إلى الحُسنيين أسلم قبلى واستُشهد قبلى... وقال عنه: ما هبَّت الصبا إلا ذكَّرتنى زيد بن الخطاب.

* وأمها زينب بنت مظعون أخت الصحابى الجليل عثمان بن مظعون (الذى لما مات جاء إليه الحبيب ﷺ

---

(1) حسن: رواه الترمذى (٣٦٨٦) كتاب المناقب، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (٣٢٧).

وقبَّله وسالت دموعه على خدّ عثمان[1]... وهو أول من دُفن بالبقيع..

* وعمتها هي فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها وهي إحدى السابقات إلى الإسلام هي وزوجها سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة.

* وأخوها هو العابد الزاهد التقي الورع العالم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الذي قال عنه الحبيب ﷺ: «إن عبد الله رجلٌ صالح»[2].

وقالت عنه أمنا عائشة رضي الله عنها: ما رأيت أحدًا ألزم للأمر الأول من ابن عمر[3].

* شهد بدرًا من أهلها سبعة: عمر، وعمها زيد، وزوجها خُنيس، وأخوالها: عثمان وعبد الله وقُدامة بنو مظعون، والسائب بن عثمان بن مظعون ابن خالها.

* * *

(١) صحيح: رواه الترمذي (٩٨٩) وقال: حديث صحيح. وأحمد (٦/ ٣/ ٤)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧٣٩) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٧٩) كتاب فضائل الصحابة.

(٣) سير أعلام النبلاء/ للذهبي (٣/ ٢١١).

من هنا نبدأ

وإذا أردنا أن نتكلم عن سيرة أمنا حفصة رضي الله عنها فلا بد أن نبدأ من سيرة أبيها عمر رضي الله عنه.

فلقد وُلد عمر بن الخطاب بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة.

وكان شجاعًا قويًا يخافه القريب والبعيد.

وكان يُحكَى عنه الحكايات والحكايات عن قوته وشجاعته وفروسيته وكان يفوز على أقرانه فى سباق الخيل بل كان يفوز عليهم فى حلبة المصارعة فلم يكن هناك أحدٌ يقدر عليه.... واشتهر بين أهل مكة حتى أصبح حديث الناس فى مجالسهم.

لكنه انشغل بعد ذلك بالتجارة فبدأ يزاول التجارة ويشتغل بها.

وعمر بن الخطاب من قبيلة عدى بن كعب، وهى قبيلة عدنانية من قريش.

على أن قبيلة عمر لم تبلغ من المكانة فى مكة قبل الإسلام ما بلغه بنو هاشم وبنو أمية، فلم يكن لها من

مناصب مكية سواء أكانت دينية أو غيرها، ولم تكن ثرية غنية كما كانا (هاشم وأمية) ومع ذلك كانت تنافس بنى عبد شمس الشرف، وتحاول أن تبلغ مكانتهم، وظل هذا التنافس ممتدًا عبر الأجيال.

هذا عن قبيلة عمر بن الخطاب والد أمنا أم المؤمنين حفصة والتى نحن بذكر سيرتها، أما أبوه فهو الخطاب ابن نفيل.

وقد كان الخطاب والد عمر شريفًا فى قومه، لكنه لم يكن ذا مال ولا خدم وقد كان بنى عدى قبيلة عمر يشعرون بقلة حولهم لقلة عددهم، ولذلك أجلاهم بنو عبد شمس عن منازلهم عند الصفا، فلا عجب أن يسعى الخطَّاب للنساء طلبًا للولد لا طلبًا للشهوة، فهو يلتمس كثرة الولد ليحمى نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وكان الخطَّاب رجلاً ذكيًّا، موفور الاحترام فى قومه، شجاعًا يخوض المعارك على رأس بنى عدى فى جرأة وثبات.

نشأ عمر فى طفولته وصباه نشأة البادية الخشنة ونشأة

أمثاله من أبناء قريش وقد امتاز على أمثاله من شباب قريش بتعلمه القراءة، فكان ممن تعلموا القراءة، وهؤلاء كانوا قليلين جداً، فلم يكن في قريش كلها حين بُعث النبي ﷺ غير سبعة عشر رجلاً يقرؤون ويكتبون.

شَبَّ عمر عن الطوق وأصبح فتًى يافعًا، وخرج يرعى لأبيه إبله في ضواحي مكة المكرمة.

تدرَّج عمر من الصبا إلى الشباب، وبدا عليه مظهر القوة بين أقرانه، فقد فاقهم (عمر) طُولاً وجسامة.

وقد أتقن عمر في مطلع شبابه ألوانًا من رياضة البدن، كالمصارعة وركوب الخيل والفروسية.

وكان ركوب الخيل أحب ألوان الرياضة إليه طول حياته.

وكان له في الحرب مواقف ورثها عن أخواله بني مخزوم.

وبقدر شغفه وحبه للفروسية والمصارعة وغيرهما من ضروب الرياضة وألوانها، بقدر ذلك أحب عمر الشعر وتذوقه ورواه، فقد كان يسمع الشعراء في سوق عكاظ

وفي غير عكاظ، فيحفظ عنهم ويروى ما يعجبه من شعرهم، وتعرَّف عمر على أنساب العرب من أبيه الخطَّاب، فصار من أنسب العرب للعرب، وكان عمر جيد البيان حسن الكلام، مما جعل قريش تختاره سفيراً لها فى أكثر سفاراتها إلى غيرها من القبائل، وكان يحكم فى المشاحنات والمنافرات كحكم أبيه وقومه بنى عدى من قبله.

ولما تمَّ لعمر شبابه هوت نفسه إلى الزواج، وقد ورث عن بنى عدى ميلهم لكثرة الزوجات طلبًا للولد، فتزوج فى حياته تسع نسوة وولدن له اثنى عشر ولدًا: ثمانية بنين وأربع بنات.

وقد كان عمر رضي الله عنه من أشد شباب قريش على المسلمين وكان يبالغ فى شدته وهو دون الخامسة والعشرين مع معارضيه، فكان يحارب الخارجين على عبادة الأصنام أشد الحرب.

❊ ❊ ❊

النشأة المباركة

وبعد هذه المقدمة عن تلكم العائلة العمرية التي نشأت فيها أمنا حفصة رضي الله عنها فلنا أن نتخيل كيف أنها نشأت نشأة مباركة وعاشت في ظل بيئة يندر أن نجد لها مثيلاً.

وُلدت حفصة رضي الله عنها عندما كانت قريش تجدد بناء الكعبة وذلك قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين...

وكان ذلك عندما حسم النبي ﷺ الخلاف بينهم على وضع الحجر الأسود مكانه، وذلك بحكمته ورأيه السديد وبصيرته الثاقبة ﷺ.

ولقد كانت حفصة رضي الله عنها تحب العلم والأدب فتعلمت الكتابة من الشفاء بنت عبد الله القرشية العدوية، وظلت تطلب العلم حتى أصبحت إحدى فصيحات النساء في قريش [(١)].

❊ ❊ ❊

(١) صحابيات حول الرسول (ص: ١٧١).

شمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة

وفى وسط الجاهلية العمياء التى كانت تعيشها قريش وغيرها من قبائل العرب شاء الله أن يُبعث النبى ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وبُعث النبى ﷺ وأخذ يدعو قومه إلى الإسلام فعادوه أشد العداء وآذوه إيذاء شديدًا هو وأصحابه... فصبر النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين واحتسبوا كل هذا عند الله (جل وعلا).

إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما

وفى وسط هذا الظلم والإيذاء الشديد للنبى ﷺ وأصحابه حدث ما لم يتوقعه المشركون فلقد أسلم حمزة بن عبد المطلب الذى كان الناس يعملون له ألف حساب بسبب قوته وشجاعته.

وأسلم عدد آخر من الرجال على رأسهم: عمرو بن عبسة وضماد الأزدى وأبو ذر الغفارى.

ولكن الضربة القاضية لظهر المشركين بعد إسلام حمزة هي إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فقد أسلم عمر بعد إسلام حمزة بأيام وذهب إلى دار الأرقم وأسلم بين يدي النبي ﷺ.

ولكن كيف كانت قصة إسلامه؟ فتعالوا بنا لنعرف قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قصة إسلام عمر رضي الله عنه

لقد كان عمر رضي الله عنه شديدًا في الجاهلية... ولما بُعث النبي ﷺ وآمن معه عدد قليل من الناس كان عمر يؤذيهم ويعذبهم عذابًا شديدًا حتى أنه كان يُعذب بعض الجواري ثم يتركهن ويقول لهن: أنا ما تركتكن رحمة بكن ولكن لأنني مللت منكن.

وكان يشرب الخمر كثيرًا.

وفي يوم من الأيام لقي عمر امرأة تُسمى (أم عبد الله بنت أبي حثمة) وكانت قد عزمت على أن ترحل هي وزوجها (عامر) إلى بلاد الحبشة فرارًا من تعذيب

قريش . . . فقال لها عمر: إلى أين يا أم عبد الله؟

قالت: نخرج في أرض الله فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجًا.

فقال عمر: صحبكم الله يا أم عبد الله.

فلما عاد زوجها عامر قالت له: لقد لقيت عمر وقال لي كذا ورأيته يتكلم برقة شديدة.

فقال زوجها عامر: أتظنين أن عمر سيُسلم؟!!! . . . والله لو أسلم حمار الخطاب ما أسلم عمر بن الخطاب.

* هكذا كان الناس جميعًا في يأسٍ شديد من إسلام عمر لكن الله إذا أراد شيئًا هيأ له أسبابه.

* ففي يوم من الأيام خرج عمر بن الخطاب إلى حانة من حانات الخمر يشرب الخمر فلم يجد صاحب الحانة فقال في نفسه: لو أني جئت الكعبة فطُفت بها سبعة أشواط . . . فلما ذهب إلى الكعبة وجد النبي ﷺ قائمًا يصلي فقال عمر: إنها فرصة عظيمة أن أستمع إلى محمد لأعرف ماذا يقول . . . .

قال: فأردت أن أقتـرب منه ولكن أريد ألا يرانى حتى لا يفزع منى.

قال: فجئت من قِبل الحِجْـر فدخلت تحت ثياب الكعبة حتى لا يرانى. وجعلت أمشى رويدًا رويدًا حتى أصبحت أمامه لكنه لا يرانى لأنى كنت خلف أستار الكعبة.

قال: فلما سمعت القرآن تعـجبت من حلاوته فتأثرت به ثم قلت فى نفسى إنه لقول شاعـر.... فسمعت النبى يقرأ ويقول: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾[1].

فقال عمر: إنه كاهن[2].

فقرأ النبى ﷺ: ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

وظل عمر واقفًا فى مكانه حتى انتهى النبى ﷺ من صلاته ثم انصرف.

* وبدأ عمـر يعيش صـراعًا مع نفـسه: هل يظل على شركـه ليعيش آمـنًا مطمئنًا بين قومـه وعشـيرته الذين

(١) سورة الحاقة: الآيتان: (٤٠-٤١).
(٢) الكاهن: هو الذى يدّعى معرفة الغيب ويقوم بخدمة المعبد.

يحاربون كل من أسلم أم يُسلم ويعادى قومه وعشيرته وبخاصة وأن له مكانة كبيرة فى قريش فهو سفير قريش.

ومن أجل ذلك تأخر إسلام (عمر) قليلاً.... لكن الله هيأ له الأسباب التى جعلت قلبه ينشرح للإسلام.

فقد كان النبى ﷺ يدعو فى ذلك الوقت ويقول: «اللهم أعِزّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبى جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب»[1].

ففى يوم من الأيام عَلِم عمر أن النبى ﷺ وبعض أصحابه قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا فأخذ سيفه يريد قتل النبى ﷺ فلقيه رجل من بنى زُهرة - وهم أخوال النبى ﷺ -.

فقال له: إلى أين يا عمر؟

قال: إلى محمد لأقتله فقد فرّق أمر قريش وعاب دينها وسَبَّ آلهتها.

---

(١) **صحيح:** رواه الترمذى (٣٦٨١) كتاب المناقب وصححه العلامة الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٩٠٧).

فقال له الرجل: وهل تظن أن بني هاشم وبني عبد مناف سيتركوك تمشي على الأرض بعدها دون أن يقتلوك بعد أن قتلت محمداً؟

فقال له عمر: يبدو أنك قد صبأت وتركت دين قومك واتبعت محمداً.

قال الرجل: ألا ترجع إلى أهل بيتك فتُقيم أمرهم؟.

قال عمر: وأى أهل بيت؟

قال الرجل: لقد أسلمت أختك فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد واتَّبعا محمداً على دينه.

فرجع عمر وذهب إلى أخته فاطمة وزوجها سعيد ابن زيد رضي الله عنهم وكان خبَّاب بن الأرت رضي الله عنه يجلس معهما يُعلمهما القرآن وكان معه صحيفة مكتوب فيها سورة (طه).

فلما اقترب عمر من بيت أخته سمع صوت رجل يُعلمها القرآن فلما دخل اختبأ خبَّاب فى مكانٍ من البيت.

فقال عمر لأخته: ما هذا الصوت الذى سمعته؟

قالت: ما سمعنا شيئًا.

فقال لها عمر: لقد سمعت أنكما اتبعتما محمدًا على دينه.

فقال له سعيد: أما آن الآوان يا عمر لأن تُسلم لله وتدع الأصنام التي يعبدها قومك.

فقام عمر وضربه ضربًا شديدًا حتى طرحه أرضًا فقامت فاطمة لتدافع عن زوجها فضربها عمر حتى سالت الدماء من وجهها.

فقالت له: نعم لقد أسلمنا لله... أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله... فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر الدماء تسيل من وجه أخته رقَّ قلبه لها رقة شديدة وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي بيدك.

فقالت له: إني أخشى أن تمزقها.

فحلف لها عمر أن لن يمسها بسوء.

فقالت له: إنك مشركٌ نجس وهذه الصحيفة لا يمسها إلا المطهرون فقم واغتسل.

فقام عمر فاغتسل ثم عاد إليها وأخذ منها الصحيفة وبدأ يقرأ فيها ﴿طه ۝١ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ [(1)].

فأحسَّ عمر بروعة القرآن وعظمته فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه فلما سمع ذلك خباب خرج من مخبئه وقال له: أبشر يا عمر فقد سمعت رسول الله يدعو فيقول: «**اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام**» وإني لأرجو الله أن تكون أنت يا عمر.

فقال عمر لخباب: يا خباب دُلني على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه فأخذ عمر سيفه ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من فتحة بالباب، فرآه متوشحًا السيف، فرجع إلى رسول الله

(1) سورة طه: الآيات: (1-14).

ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحًا بالسيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: **«ائذن له»**، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بردائه، ثم جذبه جذبة شديدة وقال: **«ما جاء بك يا ابن الخطاب؟، فو الله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة»**؛ فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله، قال. فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة، عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم.

وأصر على أن يخرجوا جميعًا أمام المشركين ليعرفوا أن المسلمين قد أصبحوا أقوياء.

* وخرج المسلمون لأول مرة يجهرون بكلمة التوحيد أمام المشركين في صَفَّين.. على رأس الصف الأول عمر ابن الخطاب.. وعلى رأس الصف الثاني حمزة بن عبد

المطلب. فعرف المشركون أن المسلمين قد أصبحوا أقوياء - بفضل الله جل وعلا -.

إن إسلام (عمر) كان فتحًا

ولقد كان إسلامه سببًا عظيمًا في ظهور الإسلام وقوته، وذلك لما كان يتميز به من القوة والشجاعة فكان لا يخاف في الله لومة لائم.

* قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر»(1).

وقال عبد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه.

وكان إسلام عمر بعد خروج مَن خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

* * *

(1) صحيح: رواه البخاري (٣٦٨٤) كتاب المناقب.

نعمة الإسلام

وبعدما أسلم عمر وأعلن التوحيد لله جل وعلا أصبح إنسانًا آخر فلقد غيره الإيمان والإسلام فبعد أن كان حريصًا كل الحرص على أن يقتل النبي ﷺ أصبح يتمنى أن يفدى النبي ﷺ بنفسه وماله وأولاده.

وبعد أن كان يعذب المسلمين أصبح رقيق القلب رحيمًا بكل من حوله حتى أننا سنراه قريبًا بعد أن أصبح أميرًا للمؤمنين يجلس بجوار البعير المريض ويبكى ويقول: والله ما أدرى ما بك وإنى لأخشى أن يسألنى الله عنك يوم القيامة.

وبعد أن كان يصد الناس عن الإسلام أصبح يتمنى أن يُسلم الكون كله لله جل وعلا.

عاش عمر رضي الله عنه فى صحبة النبى ﷺ يتعلم منه ويتربى بين يديه ويفديه بنفسه ويدافع عنه ويبذل كل ما يستطيع لخدمة هذا الدين العظيم.

❊ ❊ ❊

زواجها من خُنيس رضي الله عنه

وهكذا نشأت حفصة رضي الله عنها في بيت أبيها الذى كان مُقربًا من رسول الله ﷺ .... فنشأت نشأة إيمانية مباركة.

ولما اكتملت أنوثتها رضي الله عنها تقدَّم لها أحد السابقين إلى الإسلام (خُنيس بن حُذافة) وهو أخو (عبد الله بن حذافة) رضي الله عنهم فتزوجها خُنيس وعاشت معه فى سعادة غامرة فى ظل الإيمان والطاعة.

وكان خُنيس قد أسلم قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم وكان إسلامه على يدى أبى بكر الصديق رضي الله عنه.

فضروا إلى الله

واشتد إيذاء المشركين لأصحاب الحبيب ﷺ فأشار النبى ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة فكان خُنيس ممن هاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة فلما رأى أن

الإيذاء والتعذيب يزداد يومًا بعد يوم أخذ زوجه حفصة وهاجرا إلى يثرب (المدينة المنورة) بعدما أذن الحبيب ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة. وهناك عاش الزوجان فى رحاب الأنصار وازدادت سعادتهما بهجرة النبى ﷺ إلى المدينة - الذى لما دخل المدينة أضاء منها كل شىء - وما أجملها والله من حياة مع الحبيب ﷺ.

فراق مؤلم

ولما كانت غزوة بدر التى كتب الله فيها النصر والعزة للمسلمين... كان خُنيس رضي الله عنه من أبطال تلك الغزوة فقد كان يشتهى ويتمنى الشهادة من أعماق قلبه فلما شارك فى تلك الغزوة أصيب بجراحات كثيرة فى جسده ومع ذلك ظل يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السُّفلى. ولما انتهت غزوة بدر عاد خُنيس إلى المدينة متأثرًا بجراحه.

ومات هذا الصحابى الجليل الذى بذل نفسه لله - جل وعلا - وفاز بأعظم منقبة فقد صلَّى عليه الحبيب ﷺ

ودفنه بالبقيع إلى جانب قبر الصحابى الجليل عثمان بن مظعون رضي الله عنه.

وهكذا كان الفراق المؤلم... وهكذا ترمّلت حفصة رضي الله عنها وهى فى سنٍ مبكرة وحزنت لموته حزنًا كاد أن يمزق قلبها، لكنها كانت فى قمة سعادتها لأنه مات ميتة كريمة وسوف تشهد له جراحه التى كانت كلها فى سبيل الله - جل وعلا -.

هكذا أصبحت أمًا للمؤمنين

وتألم عمر لابنته الشابة التى ترملت فى الثامنة عشرة من عمرها.

وأوجعه أن يلمح الترمل يغتال شبابها، ويمتص حيويتها، ويخنق صباها، وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته، ورأى ابنته فى حزنها، فبدا له - بعد تفكير طويل - أن يختار لها زوجًا، قد تأنس إلى صحبته(١).

(١) صور من سير الصحابيات (ص: ١١٣).

فعرضها أبوها على أبي بكر، فلم يُجبه بشيء؛ وعرضها على عثمان، فقال: بدا لي ألا أتزوج اليوم. فحزن منهما وانكسر قلبه وشكا حاله إلى النبي ﷺ.

فقال: **«يتزوج حفصة من هو خير من عثمان؛ ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة»** فتزوج النبي ﷺ حفصة.

وزوّج رسول الله ﷺ عثمان بابنته أم كلثوم بعد وفاة أختها رقية.

ولما أن زوّجها عمر، لقيه أبو بكر، فاعتذر، وقال: لا تحزن مني فإن رسول الله ﷺ، كان قد ذكر حفصة؛ فلم أكن لأفشي سره، ولو تركها لتزوجتها [1].

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة سنة ثلاث من الهجرة قبل غزوة أُحد وأصدقها أربعمائة درهم، وكان ذلك أعظم إكرام ومنة وإحسان لحفصة وأبيها رضي الله عنهما.



(١) صحيح: رواه البخاري (٤٠٠٥) كتاب المغازي، بنحوه.

مكانتها العالية

وكانت حفصة رضي الله عنها تحتل مكانة عالية في قلب النبي ﷺ بل وكانت منزلتها بين أزواجه أيضًا عالية.

حتى كانت أمنا عائشة رضي الله عنها تقول عنها: هي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ (١).

غير أن حياة أزواجه الطاهرات رضي الله عنهن لم تَخْلُ من بعض المشاعر البشرية التي تعتريها الغيرة أو التنافس أو ما شابه ذلك، ولذا فقد كان النبي الحبيب ﷺ يعالج أموره بالتربية الإلهية في بيته مع زوجاته ومع أصحابه وأمته، ويأخذ بيد الجميع إلى جادة الصواب(٢).

❊ ❊ ❊

(١) السير/ للذهبي (٢/ ٢٢٧).
(٢) نساء مبشرات بالجنة (ص: ٢٣٠).

تسابق إلى مرضاة الحبيب ﷺ

ولقد عاشت حفصة رضي الله عنها مع الحبيب ﷺ أجمل أيام عمرها فكانت كل يوم تزداد علمًا وفقهًا وطاعة لله - جل وعلا -... ولِمَ لا ؟ وهى التى تنهل من النبع والمعين الصافى.

ولقد كانت تتسابق مع أزواج النبى ﷺ إلى مرضاة رسول الله ﷺ فكانت لا تدخر جهدًا فى إدخال السعادة والسرور عليه ﷺ فكانت كل لحظة تمر عليها وهى بجوار النبى ﷺ تجعلها تقترب من الله أكثر وأكثر، فلقد تعلمت من الحبيب ﷺ كل طاعة تُقربها من الله عز وجل.

وهكذا تكون الحياة الزوجية التى تجعل السعادة ترفرف على البيت.



إنها زوجة النبى ﷺ فى الجنة

وفى يوم من الأيام طلَّق الحبيب ﷺ حفصة رضي الله عنها فانكسر قلبها وأظلمت الدنيا كلها فى عينيها وهى لا تصدق أن زوجها وحبيبها ونبيها ﷺ قد طلَّقها... وإذا بالأمين جبريل - عليه السلام - ينزل بأمر من الملك - جل جلاله - يشق السموات السبع ليأمر الحبيب ﷺ بأن يراجعها ويردَّها مرة أخرى.

فقد جاء فى الحديث أن النبى ﷺ، طلق حفصة تطليقة، ثم راجعها بأمر جبريل - عليه السلام - له بذلك، وقال: **«إنها صوامة، قوامة، وهى زوجتك فى الجنة»** (١)

ويالها من منقبة عظيمة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها... فهذا هو قدر أمنا حفصة رضي الله عنها عند الله عز وجل.

❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٢٨٣) كتاب الطلاق، والنسائى (٣٥٦٠) كتاب الطلاق، وابن ماجه (٢٠١٦) كتاب الطلاق، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (٢٠٠٧).

علمها وفقهها

عُرفت أمنُّا حفصة رضي الله عنها بالعلم والفقه والتقوى، وهذه الصفات أحلتها محلاً كريمًا لدى رسول الله الكريم ﷺ، وظلت تحتفظ بالمكانة نفسها فى عهد الخلافة الراشدة وخصوصًا فى خلافة والدها، فكثيرًا ما كان يركن إلى آرائها وأحكامها الفقهية، وكانت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها مرجعًا لكثير من الصحابة فى مجال الحديث النبوى الشريف والعبادة، وقد كان أخوها عبد الله بن عمر المقتدى برسول الله ﷺ يتلقى عنها ما رأته فى بيت رسول الله ﷺ.

أضِف إلى ذلك أن سيدنا أبا بكر الصديق قد اختار أم المؤمنين حفصة من بين زوجات النبى ﷺ لتكون حافظة القرآن الذى جمعه، . . . ولعل اختيار سيدنا أبى بكر لها لتلك الصفات التى اجتمعت فيها من التُّقى والعلم ناهيك أنها كانت تتقن القراءة فى عهدها، فقد كان قليلٌ من الرجال من يعرف القراءة والكتابة فكيف بالنساء؟

لذا فقد كانت أم المؤمنين حفصة التلميذة النبوية النجيبة التى نقلت كثيراً من الأحكام النبوية إلى الناس(١).

وفاة الحبيب ﷺ

وظلت حفصة رضي الله عنها مثالاً للزوجة الوفية الصادقة التى لا تدخر جهداً فى إسعاد زوجها ﷺ.

وما زالت السعادة تخيم على هذا البيت المبارك إلى أن جاء اليوم الذى أظلم فيه الكون كله لما توفى الحبيب ﷺ فاعتصر قلبها من الحزن على وفاة النبى ﷺ الذى كان زوجها وحبيبها ونبيها ﷺ.

وظلت رضي الله عنها بعد وفاة الحبيب ﷺ على عهدها عابدة لله - جل وعلا - حتى كانت يشهد لها القريب والبعيد بفضلها فى الصلاة والعبادة.

* * *

(١) نساء مبشرات بالجنة (ص: ٢٣٦).

الفاروق يتولى الخلافة

ولما تولى الفاروق رضي الله عنه خلافة المسلمين لم تتغير حفصة رضي الله عنها بل ظلت تعيش حياة الزهد والتقشف تتقرب إلى الله تعالى يومًا بعد يوم بكثرة الصيام والقيام لأنها تعلم يقينا أنه لا ينفعها سلطان والدها وإنما ينفعها عملها الصالح الذى تقف به بين يدى الله عز وجل.

مقتل الفاروق رضي الله عنه

وكانت حفصة رضي الله عنها تشهد أمجاد أبيها ومآثره وزهده وورعه وعدله وفتوحاته إلى أن جاء اليوم الذى قُتل فيه بطعنات غادرة من خنجر أبى لؤلؤة المجوسى - عليه من الله ما يستحقه - ونام الفاروق فى اللحظات الأخيرة من عمره الملىء بالبذل والعطاء والتضحية والفداء فدخلت عليه ابنته حفصة رضي الله عنها وبكت ساعة لموته ثم خرجت وهى تحتسب أباها عند الله عز وجل.



حملت أمانة القرآن على أعناقها

لقد حملت أمنا حفصة رضي الله عنها أمانة القرآن على أعناقها فهى التى اختارها أبو بكر رضي الله عنه ليحفظ عندها القرآن الذى جمعه زيد بن ثابت.. وظلت الصحف التى جُمع فيها القرآن عندها إلى عهد عثمان رضي الله عنه حتى جمعها فى مصحفٍ واحد.

وها هى قصة جمع القرآن

جهّز أبو بكر رضي الله عنه جيشًا بقيادة خالد بن الوليد فى جمعٍ كثير من الصحابة لمحاربة (مسيلمة الكذاب)- عليه من الله ما يستحقه-، فحاربوه أشد محاربة إلى أن خذله الله، وقتله... وقُتل فى غضون ذلك من الصحابة جماعة كثيرة من حَمَلة القرآن، قيل: سبعمائة، وقيل: أكثر وذلك فى موقعة اليمامة، فبدأ التفكير فى جمع القرآن قبل أن يُقتل الباقون.

ولنستمع القصة من كاتب وحى رسول الله ﷺ زيد ابن ثابت رضي الله عنه.

يقول زيد: أرسل إلىَّ أبو بكر الصديق عقب مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد كَثُرَ يوم اليمامة بقُرَّاء القرآن، وإنى أخشى إن كثر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن.

قلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

قال عمر: هذا والله خير.

فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه.

قال زيد: فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن...

قال: فتتبعت القرآن أجمعه من الحجارة وجريد

النخل وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصارى، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾(١) حتى خاتمة السورة.

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته - أى طوال حياته - ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما (٢).

وفى عهد عثمان رضي الله عنه أرسل إليها ليأخذ الصحف من عندها ليجمع القرآن فى مصحف واحد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن حذيفة بن اليمان قَدِم على عثمان، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا

---

(١) سورة التوبة: الآية: (١٢٨).

(٢) صحيح: رواه البخارى رقم (٤٩٨٦) كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن، والترمذى فى التفسير، والنسائى (٥/ ٢٩٣) كتاب المناقب.

بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رَدَّ عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق[1].

* * *

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٩٨٦) كتاب فضائل القرآن.

وحان وقت الرحيل

في سنة إحدى وأربعين من الهجرة النبوية، شعرت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها بقرب اللقاء مع الله عز وجل ومع الأحبة، ولم تمضِ بضعة أيام من شهر شعبان من تلك السنة حتى لحقت بالرفيق الأعلى[(١)] .

وطار الخبر في أرجاء المدينة أن توفيت حارسة القرآن زوج النبي ﷺ، وأقبل الصحابة الكرام لتشييع جنازتها وفي مقدمتهم سيدنا أبو هريرة وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم، وصلى عليها والي المدينة آنذاك مروان ابن الحكم، ودُفنت في البقيع، ونزل في قبرها إخوتها عبد الله وعاصم، وسالم وعبد الله وحمزة بنو أخيها عبد الله بن عمر رضي الله عنهم جميعًا -... وكان عمرها عندما توفيت ثلاثًا وستين سنة رضي الله عنها، وكانت قد أوصت إلى أخيها عبد الله بمالٍ وصدقة.

وهكذا رحلت أمنا حفصة رضي الله عنها بعد حياة طويلة مليئة بالعبادة والبذل والتضحية والفداء.. رحلت لتلحق

(١) صفة الصفوة (٢/ ٤٠) والطبقات (٨/ ٨٦).

بزوجها وحبيبها ونبيها محمد ﷺ في جنة الرحمن... نعم فهي التي قال عنها جبريل - عليه السلام - للنبي ﷺ: **«إنها صوامة قوامة وهي زوجتك في الجنة»**[1].

فرضي الله عنها وأرضاها وجعلها في صحبة الحبيب ﷺ في جنته ومستقر رحمته إنه ولي ذلك والقادر عليه[2].

* * *

(١) صحيح: وقد تقدم.
(٢) صحابيات حول الرسول (١٧٢- ١٨٢) بتصرف.

زينب بنت خزيمة رضي الله عنها

زينب بنت خزيمة رضي الله عنها

حبايبي الحلوين:

وها نحن نفتح صفحة جديدة نتعرف من خلالها على أمٍّ فاضلة من أمهات المؤمنين.

ها نحن نُحلِّق في سماء تلكم الزهرة النقية التقية التي لم تكن أمًّا للمؤمنين فحسب بل كانت أمًّا للمساكين...

إنها الكريمة التي حُبِّب إليها الجود والإنفاق فكانت لا يأتيها درهم ولا دينار إلا أنفقته على الفقراء والمساكين حتى لُقبت بأم المساكين.

فتعالوا بنا لنفتح تلك الصفحة المباركة التي نتعرف من خلالها: على أمنا الحبيبة زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.



هكذا كانت بدايتها المباركة

لقد وُلدت أمنا الحبيبة زينب بنت خزيمة رضي الله عنها في مكة قبل بعثة النبي بثلاثة عشر سنة تقريبًا.

وكانت طيبة رقيقة القلب تحب الخير لكل الناس من حولها... ولذا كانت رحيمة بالفقراء واليتامى والمساكين.

وكانت ترى أحوال الناس في الجاهلية فتبكي مما تراه من جاهلية بغيضة وسوءٍ في الأخلاق والمعاملات... وكانت تتمنى أن يرسل الله من يُنقذ البشرية من هذا الضلال.

وما هو إلا فترة يسيرة حتى سمعت ببعثة النبي ﷺ ففرحت أشد الفرح وكانت في ذلك الوقت صغيرة في السن لكنها كانت تسمع الناس يقولون عن النبي ﷺ قبل البعثة أنه الصادق الأمين.

ومن أجل ذلك لم تتردد لحظة واحدة في أن تكون من السابقات إلى الدخول في الإسلام فكانت ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ

تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

فعاشت فى رحاب الإسلام من مهده ورأت كيف كان المسلمون يضحون بكل شىء من أجل أن يظفروا بنعمة التوحيد فازدادت ثباتًا واستمساكًا بدينها فكانت صائمة قائمة عابدة لله جل وعلا لا تفتر لحظة عن ذكر الله ولا عن الإنفاق على الفقراء والمساكين حتى لُقبت بأم المساكين... وهى أخت أم المؤمنين ميمونة لأمها.

زواجها قبل أن تدخل بيت النبى صلى الله عليه وسلم

وكانت أمنا الغالية زينب بنت خزيمة رضي الله عنها زوجة للصحابى الجليل عبد الله بن جحش رضي الله عنه قبل أن تكون زوجة للنبى صلى الله عليه وسلم وأمًّا للمؤمنين.

تزوجها عبد الله بن جحش الذى كان ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الوقت ذاته فهو صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم تزوج أخته زينب بنت جحش رضي الله عنها التى أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بزواجها من فوق سبع سماوات.

(١) سورة التوبة: الآية: (١٠٠).

ومرت الأيام وكانت زينب بنت خزيمة تعيش فى سعادة وهناء مع زوجها عبد الله بن جحش لكن الأيام الجميلة تمر سريعًا فقد حان وقت غزوة أُحد ودخل عبد الله بن جحش ليجاهد فى سبيل الله جل وعلا فلقيه سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه.

فقال له عبد الله: يا سعد هيا بنا ندعو عسى الله أن يرزقنا الشهادة فى سبيله.

فقام سعد بن أبى وقاص يدعو الله أن يرزقه الشهادة ثم قام عبد الله بن جحش وسأل الله أن يرزقه الشهادة على يد رجل قوى شديد لا يكتفى بقتله فحسب... بل يقطع أنفه وأذنه فيكون ذلك كله فى سبيل الله.

ودارت رحى الحرب وسارع عبد الله بن جحش إلى المعركة خلف خاله حمزة بن عبد المطلب يصول ويجول، ويقاتل الأعداء بشدة وبأس، وهو عازم على الشهادة...

وكادت قريش أن تنهزم لولا أن غادر الرماة مواقعهم فى الجبل هابطين إلى الميدان ليجمعوا الأموال والأسلاب، وهناك تغير وجه المعركة، فاستُشهد عدد كبير من

المسلمين، وفى هذه الأثناء كان عبد الله يضرب بسيفه كل من يقابله من المشركين حتى لقيه أبو الحكم بن الأخنس بن شريق فصوَّب إلى عبد الله ضربة قاضية. فسقط شهيدًا بدمائه الزكية الطاهرة.

ومَرَّ عليه سعد بن أبى وقاص فوجده مقتولاً وقد قُطعت أنفه وأذناه كما تمنى فقال عنه سعد: صدق الله فصدقه الله.

ولما انتهت غزوة أحد وقف الحبيب ﷺ على عبد الله بن جحش فحزن عليه حزنًا شديدًا. وأمر بدفنه مع حمزة بن عبد المطلب فى قبرٍ واحد.

وهكذا أصبحت أمًا للمؤمنين

ولما استشهد زوجها فى سبيل الله - جل وعلا - ما كان منها إلا أن احتسبته عند الله ورضيت بقضاء الله عز وجل فهى صاحبة القلب الذى امتلأ إيمانًا وتوكلاً ويقينًا وثقة فى الله عز وجل.

لقد كانت تشعر فى قرارة نفسها بأن الله سيعوضها

خيرًا وسيرزقها زوجًا هو خير من زوجها الأول ولكن يا تُرى من هو هذا الزوج الكريم؟!.

إنها لم يخطر ببالها لحظة واحدة أنها ستكون زوجة لسيد الأولين والآخرين ﷺ ولكن الله إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كُن فيكون... فما إن انقضت عدتها وإذا برسول الله ﷺ يتقدم لخطبتها وإذا بها تتساءل مع نفسها: يا تُرى من الرجل الذى يتولى أمر زواجى؟ وما هى إلا لحظات حتى قالت فى نفسها: وهل هناك خيرٌ من رسول الله ﷺ فجعلت أمرها إليه فالرسول ﷺ هو خير من يتولى أمرها ويرعى شأنها.

ولقد أصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم وبنى لها حجرة متواضعة بجوار حجرة عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر رضى الله عنهم جميعًا.

وهكذا أصبحت زينب رضي الله عنها أمًا للمؤمنين وزوجة لسيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ.

❋ ❋ ❋

هكذا ازدادت رأفة ورحمة بالمساكين

ولقد كانت أمنا زينب رضي الله عنها رحيمة بالمساكين حتى قبل البعثة فلما أسلمت ازدادت رحمة ورأفة بهم... ولما أصبحت زوجة للحبيب ﷺ ازدادت رأفة ورحمة بالمساكين فلقد كانت ترى فى كل لحظة ينابيع الرحمة تتدفق من قلب الحبيب ﷺ بل كانت ترى إحسانه وعطفه على فقراء المؤمنين وكانت تسمع النبى ﷺ وهو يحضّ المسلمين على الإنفاق على الفقراء والمساكين ويرتفع بقلوبهم وأرواحهم إلى درجة الإيثار.

فلقد كانت تسمع النبى ﷺ وهو يقول: «ما من يوم يُصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط مُنفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط مُمسكًا تلفًا» (١).

وكانت تسمعه يقول: «صنائع المعروف تقى مصارع السوء والآفات والهلكات، وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة» (٢).

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٤٢) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٠) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم (١/ ٢١٣)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣٧٩٥).

وكانت تسمعه وهو يقول: «أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرورٌ تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كُربة، أو تقضي عنه دَيْنًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة، أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا، ومَن كَفَّ غضبهُ، ستر الله عورته، ومن كظم غيظًا ولو شاء أن يُمضيهُ أمضاه؛ ملأ الله قلبه رضًا يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزلُّ الأقدام، وإن سُوء الخُلق ليُفسد العمل، كما يُفسد الخلُّ العسلَ»[1].

فكانت تسمع هذا الكلام المبارك فتسمو نفسها ويتطلع قلبها إلى النعيم الدائم في جنة الرحمن التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فكانت لا تدخر درهمًا ولا دينارًا... فهي التي كانت تُسمَّى في الجاهلية «أم المساكين» فكيف بحالها وقد أصبحت أمًّا للمؤمنين.

---

(١) حسن: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قضاء الحوائج (ص ٤٧ ، رقم ٣٦)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٧٦).

جعلت وقتها كله لله - جل وعلا -

كانت السيدتان النبيلتان عائشة بنت أبى بكر، وحفصة بنت عمر ﵄، أسبق من زينب أم المساكين إلى دخول البيت النبوى الطاهر الكريم؛ وكان لهاتين الكريمتين: عائشة وحفصة، مكانة كبرى، ومنزلة عظمى عند رسول الله ﷺ، ولذلك لم تستشعر عائشة، ولا حفصة، نحو الوافدة الجديدة زينب بنت خزيمة أية غيرة، أو أى شيء من دوافع الغضب الأنثوى.

وأما زينب بنت خزيمة أم المساكين، فلم تكن راغبة هى الأخرى فى منافسة عائشة وحفصة اللتين سبقتاها إلى بيت النبى الكريم ﷺ.

كانت زينب بنت خزيمة عليها سحابات الرضوان، تعيش فى عالم العطف والمودة والحنان، وتعيش فى دفء الإسلام وعظمته، فكانت تحسّ سعادة عظيمة فى رحمة المساكين، وفى رقّتها عليهم ورفقها بهم، والإحسان إليهم، فجعلت وقتها كله فى عبادة الله عز وجل، ثم فى

رعاية المساكين وإطعامهم، والتصدق عليهم، ولهذا غلب عليها تسمية أم المساكين.

في رحاب الحبيب ﷺ

وعاشت أمنا زينب رضي الله عنها في رحاب الحبيب ﷺ أجمل أيام عمرها فكانت ملازمة للنبي ﷺ تأخذ من هديه ودلّه وعلمه وأخلاقه ورحمته فكانت تزداد إيمانًا يومًا بعد يومٍ حتى كانت لا تطمح نفسها في أي شيء من حُطام الدنيا الزائل بل كانت تشتاق إلى رضوان الله - جل وعلا - وإلى جنته التي أعدها لعباده الصالحين.

* * *

وحان وقت الرحيل

وظلت خلال هذه الفترة اليسيرة التى عاشتها فى بيت النبى ﷺ عابدة صائمة قائمة لله - جل وعلا - . . . ولكنها لم يطل مقامها عند رسول الله ﷺ كثيرًا فما هى إلا شهور قليلة حتى جاءت اللحظة التى نامت فيها أمنا زينب رضي الله عنها على فراش الموت لتكون أول زوجة للنبى ﷺ تموت فى المدينة.

فلما ماتت تجددت الأحزان فى قلب رسول الله ﷺ فتذكَّر بموتها موت خديجة رضي الله عنها سيدة نساء العالمين.

وهكذا دخلت زينب بنت خزيمة رضي الله عنها بيت رسول الله ﷺ فى هدوء الأبرار وصمت العابدين، وخرجت فى صمت الخاشعين لتُدفن فى البقيع وتفوز بصلاة رسول الله ﷺ عليها والدعاء لها.

لقد توفيت أم المساكين، ولم تَرْوِ شيئًا عن النبى ﷺ.

ولعل هذا يعود إلى انشغالها بأحوال المساكين، وإلى قلة مُكثها فى بيت رسول الله ﷺ.

وهكذا رحلت أم المساكين التى لم تبخل لحظة واحدة عليهم، بل جادت بكل ما تملك لتجد ذلك كله عند الله - جل وعلا - الذى لا تضيع عنده الودائع... فلقد كانت تنقل عيشها من دنياها لأخراها لتسعد فى الجنة بالنعيم الذى لا ينقطع ولا يزول.

قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[1].

ولا نملك ونحن نودع أمنا الغالية إلا أن نتلو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[2].

فرضى الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها[3].

---

(١) سورة الزخرف: الآيات: (٦٨-٧٣).
(٢) سورة القمر: الآيتان: (٥٤، ٥٥).
(٣) صحابيات حول الرسول/ للمصنف (ص: ١٨٦ : ١٩١) بتصرف.



أم سلمة رضي الله عنها

أم سلمة رضي الله عنها

حبايبى الحلوين:

وها نحن نفتح صفحة جديدة نتعرف من خلالها على أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها.

إنها أم المؤمنين التى أحاط بها المجد من كل جانب.

فأبوها هو أبو أمية بن المغيرة القرشى.. سيدٌ من سادات قريش ورجل من أكرم وأجود الرجال فى قريش حتى إنه كان يقال له: (زاد الرَّاكب) لأن الرُّكبان كانوا إذا سافروا معه لا يحملون زادًا ولا طعامًا فقد كان يكفيهم ويُعطيهم ويُغنيهم.

وأما زوجها فهو عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة أحد العشرة السابقين إلى الإسلام فقد كان لم يُسلم قبله إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعدد قليل لا يتجاوز عدد أصابع اليدين.

وهي في نفس الوقت بنت عم خالد بن الوليد رضي الله عنه سيف الله المسلول... وكان اسمها هند بنت أبي أمية فلما أنجبت سَلَمة سُميت بأم سلمة.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع سيرتها العطرة.

نشأة عريقة وزيجة مباركة

نشأت هند في بيت عريق أصيل، يجمع المجد من طرفي الجود والشجاعة، وكانت منذ صباها وفتوتها ذات شخصية قوية تفرض احترامها، وكانت من أجمل النساء.

وحين بلغت أشُدَّها واستوى عودها، تقدم لخطبتها أحد فتيان قريش المعدودين، وفرسانها المشهورين، وشجعانها الأبطال: عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم (أبو سلمة)، وأمه برة بنت عبد المطلب بن هاشم عمة النبي ﷺ، وكان أبو سلمة أخًا للنبي ﷺ من الرضاع، أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب.

وتم الزواج، فسعدا بذلك سعادة كبرى[1].

(١) صور من سير الصحابيات / السحيباني (ص: ١٧٧).

وكانت أمّ سلمة تعيشُ حياة النَّعيمِ والرَّخاء، والسَّعةِ ينفق عليها زوجها ويرعاها، ويحنو عليها حُنوَّ المرضعات على الطفل الصغير، فقد عُرفت بين أترابها بكمال طلعتها، وجمالِ روحها، ورقةِ طبعها، ناهيك بكرم والدها الذى غطى رجال مكة وما حولها.

لكنها، وفى غضون أيام، تترك هذا النَّعيم كلّه، لتنتقل إلى نعيمٍ رُوحى آخر، عبقت مكة كلها بأريجه، إنه عبقُ الإسلام الذى يدعو إليه محمد ﷺ، وسارعت أمُّ سلمة وزوجها إلى الإيمان بالله، فكانا من السعداء[1].

وهكذا انتظم الزوجان فى ركب الإيمان منذ المراحل الأولى.

الهجرة إلى الحبشة

لما علم المشركون بإسلام هند (أم سلمة) وزوجها سلطوا عليهما وعلى كل المؤمنين ألوانًا من العذاب وحاولوا بشتَّى الوسائل والأساليب أن يردوهم عن دينهم.

(١) نساء أهل البيت (ص: ٢٢٧).

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: **«لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»**[(١)] فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام...

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا وقرارًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشي، فيردهم عليهم، ليفتنوهم في دينهم، ويُخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته[(٢)].

---

(١) صحيح: أخرجه البيهقي في «السنن» (٩/٩) وفي «الدلائل» (٢/ ٣٠١)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (٣١٩٠).

(٢) السيرة لابن هشام (١/ ٢٧٥) والبطارقة: جمع بطريق وهو القائد أو الحاذق في الحرب.

أم سلمة رضي الله عنها تحكى قصة المسلمين مع النجاشى

كانت أم سلمة رضي الله عنها من أوائل المهاجرين إلى الحبشة وهناك ولدت لزوجها أبى سلمة ابنته زينب ثم بعد ذلك ولدت له سلمة وعمر ودرة.

وها هى تروى فى إحدى الجلسات المباركة قصة الهجرة إلى الحبشة وتقول: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار (النجاشى) أمنًا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذَى ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم[1] فحملوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية. ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشى هداياه، ثم سلاه أن يُسلمهم إليكما قبل أن

(١) الأدم: الجلود وهو اسم جمع.

يكلمهم، قالت: فخرجا حتى قَدِما على النجاشى، ونحن عنده بخير دار، وعند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق، إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى، وقالا لكل بطريق منهم إنه قد ضوى [(١)] إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم، وجاءوا بدينٍ مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يُسلِّمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينًا [(٢)] وأعلم بما عابوا عليهم فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدَّما هداياهما إلى النجاشى، فقبلها منهما، ثم كلَّماه فقالا له:

أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم

(١) ضوى: لجأ وأتى ليلاً.
(٢) أعلى بهم عينًا: أى أبصر بهم.

إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت (أم سلمة): ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله ابن أبي ربيعة وعمرو بن العاص [1] من أن يسمع كلامهم النجاشي... قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلِمهم إليهما فليَرُداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لا ها الله، إذًا لا أسلمهم إليهما ولا يُكاد قوم جاورونى، ونزلوا بلادى، واختارونى على من سواى، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاورونى.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم.

فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما

(١) كانت هذه القصة قبل إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه.

تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنًا فى ذلك ما هو كائن فلما جاءوا وقد دعا النجاشى أساقفته[1]، فنشروا مصاحفهم حوله.

سألهم النجاشى، فقال لهم: ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به فى دينى، ولا فى دين أحد من هذه الملل؟

قالت: فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب (رضوان الله عليه).

فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذاك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان... وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة

(١) الأساقفة: هم علماء النصارى الذين يقيمون لهم دينهم.

الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

(قالت: فعدَّد عليه أمور الإسلام) فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا وحرَّمنا ما حرَّم علينا وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وافتتنونا على ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عباد الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلَم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

قالت: قال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، قالت: فقرأ عليه صدرا من ﴿كهيعص﴾(١).

(١) سورة مريم: الآية: (١).

قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلَّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدًا بما أستأصل به خضراءهم[1].

قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبدٌ.

قالت: ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم، فسلهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم؛ ليسألهم عنه.

قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القومُ ثم قال

(١) خضراءهم: أي شجرتهم التي تفرعوا منها.

بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟.

قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائنًا في ذلك ما هو كائن.

قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟

قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت[1] بطارقته حوله حين قال ما قال: فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شُيوم بأرضي (والشيوم: الآمنون) مَن سبكم غَرِم، ثم قال: مَن سبَّكم غرم، ثم قال: مَن سبَّكم غرم، ما أحب أن لي دَبرًا (جبلاً) من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم.

(١) تناخرت: أي تكلمت، وكأنه كلام من غضب ونفور.

رُدُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها، فو الله ما أخذ الله منى الرشوة حين رَدَّ علىَّ مُلكى، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فىَّ فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

قالت: فو الله إنَّا على ذلك إذ نزل به - يعنى من ينازع النجاشى فى مُلكه - قالت: فو الله ما علمنا حزنًا قط كان أشد من حزن حَزِنَّاه عند ذلك تخوفًا أن يظهر ذلك على النجاشى فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه... قالت: وسار النجاشى وبينهما عرض النيل قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ مَن رجلٌ يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام رضي الله عنه أنا.

قالت: وكان من أحدث القوم سنًا قالت: فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبَح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم قالت: ودعونا الله تعالى للنجاشى بالظهور (النصر) على عدوه

والتمكين له فى بلاده، . . . وعاد الزبير ليبشرهم بانتصار النجاشى على عدوه فكبَّر المسلمون وفرحوا بذلك فرحًا شديدًا. . . . واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة»(١).

ومرت الأيام على أم سلمة وزوجها، وهما والمهاجرون عند نجاشى الحبشة فى خير جوار، حتى جاءت إليهم الأخبار تقص عليهم نبأ إعزاز الإسلام بدخول نفرٍ كبير من أبناء قريش فيه، حينئذ رأى أكثر المهاجرين - وقد عزَّ الإسلام ، وبات المسلمون لا يخشون اضطهاد قريش لهم - أن يعودوا إلى موطنهم مكة.

وعلى ذلك ارتحل إلى مكة نفر من المهاجرين، كان فيهم أبو سلمة وامرأته أم سلمة رضي الله عنهما.

وفى الطريق جاءت الأخبار من جديد إلى القادمين تُعرفهم أن قريشًا حينما رأت دخول الناس فى الإسلام أفواجًا ضاعفت من إيذائهم وزادت فى اضطهادهم بل

(١) قال الشيخ الألبانى فى تخريج فقه السيرة للغزالى: أخرج هذه القصة ابن إسحاق فى المغازى (١/ ٢١١- ٢١٣ من ابن هشام) وأحمد (١٧٤٠) من طريق ابن إسحاق بسند صحيح.

زادت أن كتبت على نفسها صحيفة علقتها فى جوف الكعبة، آلت على نفسها ألا تتعامل مع بنى هاشم الذين انضموا إلى محمد، وألا يتعاملوا معها، وضربت عليهم حصارًا اقتصاديًا وحاصرتهم فى شعب أبى طالب، وهدفها من ذلك أن تُميت محمدًا ﷺ ومن يناصره جوعًا.

ماذا يفعل القادمون من الحبشة، وقد واجهتهم هذه الأنباء السيئة؟؟

أيعودون - ومنهم أم سلمة وزوجها - من حيث جاؤوا، أم يدخلوا مكة ليواجهوا من أذى قريش أكثر مما واجهوا قبل الهجرة؟.

وتشاور العائدون فيما يفعلون فقرر بعضهم أن يكروا راجعين من حيث جاؤوا وقرر البعض الآخر أن يدخل مكة ويلاقى فيها ما يلاقى المسلمون.



أبو سلمة وأم سلمة يدخلان مكة

وكان فيمن قرر دخول مكة أبو سلمة وزوجته أم سلمة رضي الله عنهم.

ورأى أبو سلمة أن يدخل في جوار خاله أبي طالب، عم رسول الله، ليجيره من أذى المشركين ولكن بني مخزوم لم يُرضهم أن يحمي أبو طالب أبا سلمة وقد طمعوا أن ينالوا من أبي سلمة حتى يفتنوه عن دينه، فساروا إلى أبي طالب يقولون له: يا أبا طالب؛ لقد منعت منا ابن أخيك محمدًا، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا؟!

قال أبو طالب: إنه استجار بي، وهو ابن أختي وإن لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي.

وبقي أبو سلمة رضي الله عنه في جوار خاله أبي طالب، وبموته - موت أبي طالب - نال المشركون من محمد ﷺ ومن أتباعه ما لم ينالوه.

وبقيت أم سلمة رضي الله عنها إلى جانب زوجها تقاسي ما

يقاسى من الآلام والعذاب، حتى بايع الأنصار من أهل المدينة رسول الله ﷺ ، فكانت هى وزوجها من أوائل من أعدوا أنفسهم لترك ديارهم وبلدهم، والمهاجرة إلى المدينة فى سبيل دين الله.

ولكن، هل استطاعت أم سلمة وزوجها أن ينجوا من إيذاء المشركين، وأن ينفذا إلى مطلبهما من تربُّص المتربصين؟!.

لا... فقد كان المشركون لا يزالون يطمعون فى أن يردوا أم سلمة وزوجها عن دين الإسلام، ولا يزال فى مقدورهم أن ينالوهما بالإيذاء، وأن يفتنوهما بالتعذيب، وكان لهم معهما قصة أليمة، كانت أم سلمة ترويها كما روت قصة هجرة المسلمين للحبشة(١).

❋ ❋ ❋

(١) أزواج النبى / أ. عبد المنعم الهاشمى (ص: ٣٢٥- ٣٢٧).

صبر واحتساب

ولقد تحملت أم سلمة رضي الله عنها الإيذاء الشديد عند هجرتها مع زوجها إلى المدينة المنورة فصبرت واحتسبت ذلك كله عند الله - جل وعلا -.

والآن، دعونا نعيش ثانيةً رحلة الهجرة إلى المدينة المنورة مع الأسرة الصابرة.

* وها هى أم سلمة رضي الله عنها تحكى قصة هجرتها إلى المدينة المنورة وتحكى قصة الابتلاء الشديد الذى تعرضت له عند الهجرة وتقول: لما أجمع أبو سلمة رضي الله عنه الخروج إلى المدينة، (أى فى الهجرة)، رَحَّل لى بعيره، ثم حملنى عليه، وجعل معى ابنى «سلمة بن أبى سلمة» فى حجرى، ثم خرج يقود بى بعيره. فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها فى البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، وأخذونى منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة، وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابنى «سلمة» بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسنى بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففُرِّق بينى وبين ابنى وبين زوجى.

قالت: فكنت أخرج كل غداة، فأجلس فى الأبطح، فما أزال أبكى حتى أمسى سنة أو قريبًا منها، حتى مَرَّ بى رجل من بنى عمى (أحد بنى المغيرة) فرأى ما بى، فرحمنى.

فقال لبنى المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ؟

قالت: فقالوا لى: الحقى بزوجك إن شئتِ.

قالت: فردَّ بنو عبد الأسد إلىَّ عند ذلك ابنى.

قالت: فارتحلتُ بعيرى، ثم أخذت ابنى، فوضعته فى حجرى، ثم خرجتُ أريد زوجى بالمدينة.

قالت: وما معى أحد من خلق الله حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة.

فقال: إلى أين يا ابنة أبى أمية ؟ قلت: أريد زوجى

بالمدينة قال: أوَ ما معك أحد ؟ قلت: ما معى إلا الله وبنَىَّ هذا.

فقال: والله ! ما لك من مَترك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معى يهوى بى، فوالله ! ما صحبتُ رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه. وكان إذا بلغ المنزل أناخ بى، ثم استأخر عنى حتى إذا نزلت استأخر بعيرى، فحطّ عنه، ثم قيَّده فى الشجر، ثم تنحَّى إلى شجرة، فاضطجع تحتها.

فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيرى فقدَّمه فرحَّله، ثم استأخر عنى، وقال: اركبى، فإذا ركبت فاستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه، فقادنى حتى ينزل بى، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة.

فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك فى هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله.. ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما

أصاب آل أبي سلمة؛ وما رأيتُ صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة (١).

في رحاب الحبيب ﷺ

ولما نزلت أم سلمة مع زوجها رضي الله عنهما في رحاب الأنصار بالمدينة المنورة امتلأ قلبها بالسعادة والسرور... فلما أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة وإذا بالسعادة تكتمل في قلب أم سلمة وزوجها رضي الله عنهما.

وفي ربوع المدينة المنورة عاش الزوجان يعبدان الله تعالى ويتزودان بزاد التقوى ويتعلمان الخير كله بين يدي الحبيب ﷺ. وعكفت أم سلمة على رعاية وتربية أولادها على حُب الله ورسوله ﷺ حتى أصبح أولادها من خيرة الصحابة الذين حازوا شرف الصُحبة وهم: زينب وعمر وسلمة ودرّة.

❊ ❊ ❊

(١) البداية والنهاية (٣/ ١٦٩)، ابن هشام (٢/ ٧٥، ٧٦).

صفحة من أرض الشرف والبطولة

وعلى الرغم من انشغالها بعبادة ربها عز وجل ومعرفة سنة نبيها ﷺ وتربية أبنائها إلا أنها كانت تشجع زوجها دائمًا على الخروج للجهاد فى سبيل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله).

وحين قامت الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة، وأعلن الجهاد ضد أعداء الملة والدين انخرط أبو سلمة فى صفوف المجاهدين فى سبيل الله تحت راية رسول الله ﷺ يخوض غمار المعارك، ويبلى فيها أحسن البلاء، فكان له فى بدر صولات وجولات.

ومضى عام، فإذا المشركون يتجهزون لقتال المسلمين وخرج المسلمون إلى أُحُد وهناك التقوا مع المشركين، وكان أبو سلمة رضي الله عنه من الجنود الأوفياء فى الجيش المحمدى، وفى أُحُد رماه أبو أسامة الجشمى بسهم فى عضده، ولما عاد المسلمون إلى المدينة مكث أبو سلمة شهرًا يداوى جرحه ويعالجه، وبجانبه زوجته الوفية أم سلمة، تقوم على رعايته وخدمته إلى أن برأ جرحه.

وهكذا عرفته أرض أحد إذ بلّل ثراها بدمه الزكى الطاهر.

سرية أبى سلمة

ولما تجرأت بعض القبائل على المسلمين بعد غزوة أحد أرسل النبى ﷺ سرية أبى سلمة.

وأول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أُحُد هم بنو أسد بن خزيمة.

فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابنى خويلد قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما، يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين والأنصار، وأمَّر عليهم «أبا سلمة» وعقد له لواء، وباغت أبو سلمة بنى أسد بن خزيمة فى ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم، فتشتتوا فى الأمر، وأصاب المسلمون إبلاً وشاءً لهم، فاستاقوها، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حربًا.

ونجح أبو سلمة فى مهمته، وعاد إلى المدينة ظافرًا منتصرًا، إلا أن جرحه الذى أصيب به يوم موقعة أحد ثم التأم، كان التئامه ظاهرًا سطحيًّا، فقد عاد فانفجر عليه، وما زال به حتى أسقمه وألزمه الفراش أيامًا طويلة.

وفاة أبى سلمة رضي الله عنه

بقيت أم سلمة رضي الله عنها إلى جانب زوجها تُمرضه وتعتنى به، وداوم الرسول ﷺ عيادته وزيارته والسؤال عنه، فهو صاحبه وابن عمته، وظل على هذه الحال، حتى نزل قضاء الله فى أبى سلمة، فلفظ أنفاسه والنبى ﷺ بجانب فراشه يدعو له بخير حتى مات.

ولما نام أبو سلمة على فراش الموت دار بينه وبين زوجه أم سلمة رضي الله عنها هذا الحوار الروحانى.

قالت أم سلمة لأبى سلمة: بلغنى أنه ليس امرأة يموت زوجها، وهو من أهل الجنة، ثم لم تُزوَّج، إلا جمع الله بينهما فى الجنة. فتعالَ أعاهدك ألا تتزوج بعدى، ولا أتزوج بعدك. قال: أتطيعيننى؟ قالت: نعم. قال: إذا

مِتُّ تزوجي. اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني، لا يُحزنها ولا يؤذيها.

ودخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شقَّ بصره فأغمضه ثم قال: «إن الروح إذا قُبض تبعه البصر» فضجَّ ناسٌ من أهله فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون» ثم قال: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره ونوِّر له فيه»(١).

الزواج المبارك

وتأتي المنحة الربانية لتتنزل على أم سلمة فتصبح - بفضل الله - إحدى أمهات المؤمنين لتغدو من البيت الطاهر الكريم... ويا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بكل ما فيها من متاعٍ زائل.

عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مُسلم تُصيبه مُصيبةٌ فيقول ما أمره الله: (إنا

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٢٠) كتاب الجنائز عن أم سلمة رضي الله عنها.

لله وإنا إليه راجعون) اللهم أجُرنى فى مُصيبتى وأخلف لى خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها».

قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أى المسلمين خيرٌ من أبى سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ[1]. . . ثم إنى قلتها، وأردت أن أقول: «وأبدلنى خيرًا منها» فقلت: ومن خير من أبى سلمة؟ فلم أزل حتى قلتها، فلما انقضت عدتها، خطبها أبو بكر، فردَّته، وخطبها عمر فردَّته، فبعث إليها النبى ﷺ فقالت: مرحبًا برسول الله ﷺ وبرسوله. . . ثم قالت لرسول رسول الله ﷺ: أخبر رسول الله ﷺ أنى غَيْرَى (أى كثيرة الغيرة) وأنِّى مُصبية (أى ذات صبيان وأولاد صغار) وليس أحدٌ من أوليائى شاهدًا. فبعث إليها النبى ﷺ.

وقال لها: «أمَّا ما ذكرت من غيرتك فإنى أدعو الله عز وجل أن يُذهبها عنك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك، وأما ما ذكرت من العيال، فإنما عيالك عيالى وأما الأولياء فليس أحدٌ منهم إلا سيرضى بى»[2].

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١٨) كتاب الجنائز.
(٢) انظر التخريج السابق.

ثم تزوج رسول الله ﷺ من أم سلمة؛ فاستجاب الله دعاءها وأخلفها خيرًا من أبي سلمة.

في بيت الزوجية

ومن أول لحظة دخلت فيها (أم سلمة) بيت الزوجية فإذا بها تقوم بأعباء المنزل وتدبر شئونه على أفضل وجه.

عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، قال: دخلت أيِّم العرب على سيد المسلمين أول العشاء عروسًا، وقامت آخر الليل تطحن - يعني: أم سلمة[(١)].

وكانت عاقلة لبيبة حسنة الرأي والفهم... بل كانت تسعى دائمًا لإدخال السعادة والسرور على رسول الله ﷺ.

وعلمت زوجات الرسول ﷺ بزواجه من أم سلمة:

ذات الجمال والعزة، والشرف والشخصية الأخاذة الجذابة القوية، وقابلت سودة الخبر كعادتها بالرضا والتسليم، أما عائشة فقد استبدَّ بها التفكير، واستولت عليها الغيرة، وتملَّكها لذلك حزن شديد، لما وُصف لها من جمال أم

(١) أزواج النبي (ص: ٣٣٥).

سلمة، فتحايلت حتى رأتها، فرأت فيها أضعاف ما وُصفت به، فشكت عائشة ما بها إلى ضرتها حفصة التى كانت تتخذها فى مثل هذه الأمور صاحبة لها، فهونَّت عليها حفصة خطر جمال أم سلمة، وقالت له: إنها ليست كما تقولين، إنما هى الغيرة[1].

وأحست عائشة ما لأم سلمة من منزلة وأحست أنها ستنافسها حتى إنها كانت تقول عن أم سلمة، وعن زينب بنت جحش التى تزوجها النبى ﷺ بعد أم سلمة: كانتا أحب نسائه إليه بعدى.

صاحبة القلب الرحيم

وكانت رضي الله عنها رحيمة بكل من حولها تحب أن تحمل لهم البُشري دائما لتُدخل السعادة على قلوب الناس.

فهى التى حملت خبر توبة الله تعالى على (أبى لبابة) وذلك عندما أرسله الحبيب ﷺ إلى بنى قريظة وكان أبو لُبابة رضي الله عنه حليفًا ليهود بنى قريظة فى الجاهلية، فلما

(١) أزواج النبى (ص: ٣٣٥).

خانوا عهدهم مع رسول الله ﷺ في غزوة الخندق فقرر النبي ﷺ أن ينزلوا على حُكمه فيهم فأرسلوا إلى أبي لبابة فأرادوا أن يستشيروه في أمرهم وسألوه: هل ترى أن ننزل على حكم محمد ﷺ؟ فقال لهم أبو لبابة: نعم فانزلوا وأومأ إلى حلقه بالذبح - أي أنكم إذا نزلتم على حُكمه فلن يكون لكم إلا الذبح - فأحسَّ أبو لبابة أنه قد خان الله ورسوله ﷺ فندم وعاد، فربط نفسه في عمود المسجد وقال: والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب الله عليَّ مما صنعت. فنزلت توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة فاستأذنت النبي ﷺ في أن تبشره بتوبة الله عليه فأذن لها فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك.

قالت أم سلمة: فثار الناس، وأسرعوا إليه ليُطلقوه، ولكنَّ أبا لبابة أبَى وقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُطلقني بيده الشريفة.

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فلما مَرَّ عليه خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه، وغمر السرور أبا لبابة بأن تجاوز

الله عما أسرف.

* وكانت سببًا في أن يسامح النبي ﷺ ابن عمه (أبو سفيان بن الحارث) وابن عمته (عبد الله بن أبي أمية) فقد لقيا رسول الله ﷺ بالأبواء فالتمسا الدخول عليه فأعرَض عنهما لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى.. وهنا تدخلت أم سلمة رضي الله عنها وكلمت الحبيب ﷺ ليسامحهما ويعفو عن زلتهما فيما مضى فقالت: يا رسول الله! لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك، وقال (عليّ) لأبي سفيان: ائت رسول الله ﷺ من قِبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[1] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً. ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[2][3].

* * *

(١) سورة يوسف: الآية: (٩١).
(٢) سورة يوسف: الآية: (٩٢).
(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٤) وصححه ووافقه الذهبي.

موقفها العظيم يوم الحديبية

وكان لأم سلمة من المواقف التى تُظهر رجاحة عقلها الكثير والكثير وكان من بين تلك المواقف موقفها فى يوم الحديبية.

قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة: وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأى الصائب وإشارتها على النبى ﷺ يوم الحديبية تدل على وفور عقلها وصواب رأيها.

فإنه لما صالح النبى ﷺ أهل مكة وجاءه سُهيل بن عمرو ليكتب معه كتاب الهدنة والصلح وكان من بنود هذا الصلح أنه إذا جاء رجل من المشركين يريد أن يُسلِم فعلى النبى ﷺ أن يردَّه إلى المشركين وإذا ذهب رجل مسلم يريد أن يلحق بالمشركين فعلى المشركين أن يقبلوه فحزن أصحاب الحبيب ﷺ حزنًا شديدًا حتى قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال للحبيب ﷺ: ألست نبى الله حقًّا؟ قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلِمَ نعطى الدنيَّة فى ديننا إذًا؟ قال:

«**إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**». قلت: أوَ ليس كنت تُحدثنا أنَّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى. فأخبرتك أنَّا نأتيه العام؟**» قال: قلت: لا. قال: «**فإنك آتيه ومُطوِّفٌ به**». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقًّا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ نُعطى الدنيَّة في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق. قلت أليس كان يحدثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال بلى. أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به.. قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**»، قال: فو الله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحدٌ دخل النبي ﷺ على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس.

وهنا جاء دور (أم سلمة) العاقلة اللبيبة التي أنقذت

الصحابة بفضل الله وحده من الوقوع فى معصية رسول الله ﷺ.

فقالت أم سلمة: يا نبى الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر - أى تذبح الهدى -، وتدعو حالقك فيحلقك... فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر الهدى، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا [(١)].

وبهذا نجا الصحابة الكرام من مخالفة الحبيب المصطفى ﷺ وذلك ببركة رأى أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها التى تُذكرنا بمواقف أم المؤمنين خديجة عليها سحائب الرضوان... وإن نسى التاريخ فلا ينسى مواقف أم سلمة رضي الله عنها، وخصوصًا ذلك اليوم الذى يُقرن باسمها كلما ذكر يوم الحديبية [(٢)].

❋ ❋ ❋

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٧٣٤) كتاب الشروط.
(٢) صحابيات حول الرسول (ص: ٢٠٢- ٢٠٤).

مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك

كان كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وتحدث عن توبة الله عليهم أيضًا فقال: نهى رسول الله ﷺ عن كلامي وكلام صاحبيَّ، ولم يَنْهَ عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا، فاجتنب الناس كلامنا فلبثت كذلك حتى طال عليَّ الأمر، وما من شيء أهم إليَّ من أن أموت فلا يصلي عليَّ النبي ﷺ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم، ولا يصلي عليَّ، فأنزل الله توبتنا على نبيه حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة رضوان الله عليها، وكانت أم سلمة محسنة في شأني، معينة في أمري، فقال رسول الله ﷺ: **«يا أم سلمة تيب على كعب»** - أي تاب الله على كعب -.

قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟

قال: **«إذًا يحطكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة»**.

حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر، آذن بتوبة الله علينا [١].

والآية الكريمة التي نزلت في توبة هؤلاء تقول: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

وبذلك نَعِمت أم سلمة بهذه البركة وهذا الشرف العظيم أن ينزل القرآن في بيتها على رسول الله، فتكون الوحيدة من نساء النبي ﷺ بعد عائشة رضي الله عنها التي ينزل في بيتها وحيًا يُوحَى على رسول الله ﷺ، مما يجعل لأم المؤمنين أم سلمة مكانة وأي مكانة وفضل وأي فضل وشرف يحق لها إن أرادت أن تفخر على صاحباتها، ولكن لم تفعل بل داومت على حمد الله وشكره وتسبيحه[٣].

❊ ❊ ❊

(١) صحيح: رواه البخاري في كتاب التفسير برقم (٤٦٧٧)، وأخرجه في كتاب الاستئذان برقم (٦٢٥٥).
(٢) سورة التوبة: الآية: (١١٨).
(٣) أزواج النبي (ص: ٣٣٩- ٣٤٠).

كانت تُعَدُّ من فقهاء الصحابيات

قال الإمام الذهبي عنها: وكانت تُعدُّ من فُقهاء الصحابيات[1].

وكيف لا تصل إلى تلك المرتبة والمنزلة العالية وهى التى سمعت القرآن الكريم والسُّنة المطهرة من فم الحبيب ﷺ.

لقد كانت ممن يُرجع إليها فى بعض الأحكام والفتاوى وبخاصة فيما يخص فقه المرأة المسلمة حتى كان حَبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يرسل فيسألها عن بعض الأحكام[2].

وأما الثروة الحديثية التى أثرت عن أم المؤمنين أم سلمة فتبلغ ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثًا، حفظتها عن رسول الله ﷺ.

* * *

(١) السير (٢/ ٢٠٣).
(٢) زاد المعاد (٢/ ٧٨).

وحان وقت الرحيل

كانت أم سلمة رضي الله عنها من المعمرات فقد عاشت نحواً من تسعين سنة وعاشت الخلافة الراشدة وامتدت بها الحياة إلى عهد يزيد بن معاوية.

وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين.

عُمِّرت حتى بلغها مقتل الحسين الشهيد، فوجمت لذلك، وغُشي عليها، وحزنت عليه كثيراً.

ولم تلبث بعده إلا يسيراً، وانتقلت إلى رحمة الله[1].

وكان ذلك سنة إحدى وستين.

وهكذا رحلت أم المؤمنين لتكون زوجًا للنبي ﷺ في جنة الرحمن التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء/ للذهبي (٢/ ٢٠٢).

زینب بنت جحش رضی اللہ عنہا

زينب بنت جحش رضي الله عنها

حبايبي الحلوين: وها نحن نفتح صفحة جديدة نتعرف من خلالها على أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها التي جمعت المجد والفضل من أطرافه كلها.

* فابن خالها أشرف خلق الله على الإطلاق، سيدنا رسول الله ﷺ.

* وجَدُّ الرسول الكريم وجدُّها لأمها عبد المطلب بن هاشم سيد قومه.

* وخالها سيد الشهداء، وأسد الرحمن، وفارس رسول الله، سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه وأرضاه.

* وأخوها صاحب أول راية عُقِدت في الإسلام، وأول من دُعي بأمير المؤمنين وأحد الشهداء سيدنا عبد الله ابن جحش رضي الله عنه.

* وأخوها أيضًا أحد شعراء الإسلام المجيدين سيدنا أبو أحمد ابن جحش.

* وأختها إحدى السابقات إلى الإسلام حمنة بنت جحش.

* وأمها عمة رسول الله ﷺ التى أطعمها النبى أربعين وسقًا من تمر خيبر أُميمة بنت عبد المطلب.

* وهى رضي الله عنها الوحيدة التى زُوِّجت من فوق سبع سموات[1].

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع سيرتها العطرة.

من هنا كانت البداية

وُلدت زينب رضي الله عنها فى مكة قبل البعثة بثلاثِ وثلاثين سنة ونشأت فى بيت شرف وحسب ونسب.

وكانت نفسها تتوق إلى حياة طاهرة نظيفة بعيدة عن أدران الشرك والجاهلية... وبدأت نسمات الإسلام تفوح

(١) نساء مبشرات بالجنة/ أ. أحمد خليل جمعة (ص: ٢٤٧- ٢٤٨).

بأريجها الفوّاح فى مكة المكرمة وبدأت شمس الإسلام تضىء أرجاء الكون كله وإذا بالقلوب الطاهرة تفتح أبوابها على مصراعيها لتستقبل هذا النور الذى جاء به الحبيب ﷺ من عند ربه عز وجل.

وكانَ عبد الله بن جحش شقيقها يرى النبى ﷺ قبل مبعثه فكان يَعجب كل العجب من رجاحة عقله وأمانته وصدقه وحُسن عشرته، ولذلك فقد كان يحمل له فى قلبه قدرًا عظيمًا من المحبة والتقدير والاحترام.

ومن هنا فإنه ما إن بُعث الحبيب ﷺ حتى أسلم (عبد الله) ولم يتلكأ أو يتلعثم... وكان إسلامه قبل أن يدخل الحبيب ﷺ دار الأرقم، فكان من السابقين إلى الإسلام[1].

وقام يحمل أمانة هذا الدين ليدعو الناس من حوله إلى جنة الدنيا والآخرة فدعا أخويه فأسلما ودعا أختيه (زينب وحمنة) فأسلمتا ودخلوا جميعًا فى دين الله - جل وعلا - لتكتمل السعادة فى قلوبهم.

(١) أصحاب الرسول ﷺ / للمصنف (٢/ ٤٧٨- ٤٧٩).

هجرة وصبر واحتساب

فلما لامس الإيمان شغاف قلبها أخذت تنهل من معين القرآن والسُّنة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً وأخذت تتقرب إلى الله - جل وعلا - يومًا بعد يوم حتى أحسَّت بأنها تعيش في جنة حقيقية - ولكن الجنة لا بد لها من الصبر والتضحية -.

فما أن علِم كفار قريش بانتشار الإسلام حتى قاموا ليصبُّوا العذاب صبًّا على أصحاب الحبيب ﷺ . . . ولقد تحملت زينب ونساء قومها نصيبًا من أذى قريش.

ولما أذن الله بالهجرة إلى المدينة، هاجر بنو جحش بقيادة سيدنا عبد الله بن جحش ومعه أخوه أبو أحمد عبد ابن جحش، وكان أبو أحمد هذا شاعرًا ضرير البصر، وكان معهما محمد بن عبد الله بن جحش، وهاجر معهم نساؤهم: زينب بنت جحش بطلة ترجمتنا اليوم، وحمنة بنت جحش - زوج مصعب بن عمير - وأم حبيب بنت جحش - زوج عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

ولما خرج بنو جحش من دارهم، عدا عليها أبو سفيان ابن حرب، فباعها من عمرو بن علقمة، فلما بلغ بنى جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم، ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: **«ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها دارًا خيرًا منها فى الجنة ؟».**

قال: بلى، قال: **«فذلك لك».**

فى رحاب الأنصار

وعاشت زينب رضي الله عنها أجمل أيام حياتها فى رحاب أخواتها من نساء الأنصار.. وماذا نقول نحن عن الأنصار بعد قول الله عز وجل عنهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

واحتلت زينب مكانة عالية بين النساء فقد كانت كهفًا وملاذًا للمساكين والمحتاجين... تجود عليهم بالمال والمتاع

(١) سورة الحشر: الآية: (٩).

لأنها علمت يقينًا أن المؤمن لابد أن يغرس الخير فى الدنيا ليجنى النعيم فى الآخرة.

وكانت صوَّامة قوَّامة تصوم النهار وتقوم الليل تناجى ربها وتبكى بين يديه - سبحانه وتعالى - وكانت بارَّة بمن حولها تحب الخير لكل الناس وكأن الله عز وجل يؤهلها لتكون بعد ذلك أمًّا للمؤمنين.

زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه

وتعالوا بنا لنبدأ قصة زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه . . . . كان زيد بن حارثة يعيش فى سعادة وهناء مع أمه سُعدى بنت ثعلبة ومع أبيه حارثة بن شُرحبيل.

وفى يوم من الأيام أخذته أمه فى زيارة لبعض أقاربه فأغارت عليهم مجموعة من قُطَّاع الطرق وأخذوا زيد بن حارثة وهو يومئذ غلامٌ صغير وذهبوا به إلى سوق عكاظ وعرضوه للبيع فاشتراه حكيم بن حزام وأعطاه لعمته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

فلما تزوجها النبى ﷺ ورأت حب النبى ﷺ

لزيد بن حارثة وهبته له وكان ذلك قبل بعثة النبى ﷺ.

وظل حارثة والد زيد يبكى هو وأم زيد بكاءً مريرًا على فقد ولدهما زيد... وأخذا يبحثان عنه فى كل مكان ولكن دون جدوى.

زيد يختار النبى ﷺ على أبيه وأمه

وفى يوم من الأيام حَجَّ أناس من قبيلة زيد بن حارثة فرأوه فى مكة وعادوا ليخبروا والده بذلك الخبر السار.

فما كان من والده حارثة إلا أن أخذ أخاه كعب بن شرحبيل (عم زيد) وأخذ مالاً كثيرًا ليفدى ابنه وذهب إلى مكة فلما وصلا مكة سألا عن النبى ﷺ فقيل لهم: إنه فى المسجد فدخلا عليه وقال له: يا محمد يا ابن سيد قومه أنتم أهل حرم الله وجيرانه لقد جئنا إليك من أجل أن نفدى ابننا بالمال وسنعطيك كل ما تريد.

فقال النبى ﷺ: «من هو ابنكم؟».

قالوا: زيد بن حارثة.

فقال لهم: « ألا أخبِّركم بأفضل من ذلك؟».

قالوا: ما هو؟

قال ﷺ : «ادعوه وخيِّروه فإن اختاركم فهو لكم بغير مال ولا فداء وإن اختارنى فو الله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدًا» فقالوا له: لقد أحسنت إلينا وأنصفت.

فدعاه فقال: «هل تعرف هؤلاء؟» قال: نعم، هذا أبى وهذا عمى، قال: «فأنا مَن قد علمت، ورأيت محبتى لك فاخترنى أو اخترهما»، فقال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحدًا، أنت منى بمنزلة الأب والعم، فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك، وأهل بيتك؟ قال: نعم، إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذى أختار عليه أحدًا أبدًا، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجْر فقال: يا من حضر اشهدوا أن زيدًا ابنى يرثنى وأرثه، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا.



زواجه من زينب بنت جحش

لما أعتق النبي ﷺ زيد بن حارثة فأصبح زيدٌ مولى رسول الله ﷺ فأراد النبي ﷺ أن يُكرمه أكثر وأكثر، وذلك بأن يزوجه من فتاة حرة حسيبة نسيبة.

وأراد النبي ﷺ أن يُحطم الفوارق الطبقية حتى يشعر الناس جميعًا أنه لا فضل لأحدٍ على أحد إلا بالتقوى.

ولذلك قرر النبي ﷺ أن يزوج زيد بن حارثة من ابنة عمته زينب بنت جحش الحسيبة النسيبة الجميلة التي يتمناها كل حسيب ونسيب في أرض الجزيرة... فرفضت زينب في بداية الأمر أن تتزوج من زيد بن حارثة لأنه مولى من الموالي... فلما نزل قول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾(١)، قالت: يا رسول الله أترضاه لي زوجًا؟ قال: «نعم». قالت: إذن لا أعصي رسول الله ﷺ قد رضيته لنفسي.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٣٦).

وساق زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بني جحش عشرة دنانير وستين درهمًا، ودرعًا، وخمارًا، وملحفة وإزارًا، وخمسين مُدًا من الطعام، وعشرة أمداد من التمر، . . . أعطاه ذلك كله الحبيب المصطفى ﷺ.

واستمرت الحياة الزوجية بينهما قُرابة سنة ثم بدأت الخلافات الزوجية تنشأ بينهما مما جعل هذا الزواج يخلو من المحبة والصفاء والمودة.

وكان زيد يشكوها للحبيب ﷺ فكان يقول له: **«أمسك عليك زوجك واتق الله»**، فكان ﷺ ينصحه بإمساكها ولكن الله يريد خلاف ذلك «والله غالبٌ على أمره» فالله عز وجل يريد أن تكون زينب زوجة الحبيب ﷺ ليُبطل عادة التبنّي.

وازدادت الفجوة بين زيد وزينب رضي الله عنهما يومًا بعد يوم حتى وصلت الحياة بينهما إلى طريقٍ مسدود فكان لابد من الطلاق فجاء أمر الله عز وجل فأذن بطلاقها وأمر رسول الله ﷺ بزواجها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(١) .

وهكذا أصبحت أمًّا للمؤمنين

فلما طلق زيد زينب رضي الله عنها وانقضت عدتها تزوجها رسول الله ﷺ لتنال أعظم منقبة في الكون كله فتكون زوجة لسيد الأولين والآخرين ﷺ ولتكون أمًّا للمؤمنين.

وهنا أرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة إلى زينب بنت جحش ليخبرها بأن الله عز وجل قد أمر رسوله ﷺ بأن يتزوجها.

فذهب إليها زيد فوجدها تُخمِّر عجينها فلما رآها أحسَّ بخجلٍ شديد ولم يستطع أن ينظر إليها بعد أن علم أنها ستكون زوجة لرسول الله ﷺ وأمًّا للمؤمنين.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٣٧).

فأعطاها ظهره وأخبرها بهذه البشرى العظيمة: بأنها ستكون زوجة لرسول الله ﷺ ففرحت فرحًا شديدًا وسجدت شكرًا لله جل وعلا وجعلت على نفسها صوم شهرين شكرًا لله على هذه النعمة العظيمة.

وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن وعمل النبي ﷺ وليمة وأطعم أصحابه خبزًا ولحمًا.... فكان الناس يأكلون ويخرجون... وبقى ثلاثة يتحدثون في بيت النبي ﷺ.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتتبع حُجَر نسائه يُسلم عليهن ويقلن: يا رسول الله ﷺ كيف وجدت أهلك؟ قال: فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني قال: فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزلت آية الحجاب.

فكان من بركات زينب رضي الله عنها ومن فضائلها نزول آية الحجاب بسببها وذلك في صبيحة عُرسها.

وهكذا زوّج الله سبحانه وتعالى زينب من نبيه ﷺ

بِنَصٍّ كتابه بلا ولى ولا شاهد، حتى كانت تفخر بذلك على أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن وتقول: «زوَّجكن أهاليكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات»[1].

منزلتها عند رسول الله ﷺ

وكانت رضي الله عنها تحتل منزلة عالية فى قلب رسول الله ﷺ بعد عائشة رضي الله عنها ولذلك كانت أمنا عائشة تقول عنها: «وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ»[2].

لقد نالت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها مكانة عالية منذ دخولها ذلك البيت الطاهر فقد أكرمها الله عز وجل بصفاتٍ جليلة رفعت من قدرها ومكانتها عند رسول الله ﷺ.

وكانت زينب تقتبس من أخلاق الرسول ﷺ وتسير خلفه وتقتدى به فى كل أعمال الخير فكانت زاهدة عابدة

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٤٢٠) كتاب التوحيد.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧٥٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٧٧٠) كتاب فضائل الصحابة.

كريمة سخية النفس يُضرَب بها المثل فى الجود والكرم.

وكانت زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها كثيرة الصلاة، خاشعة القلب، موصولة دائمًا بالله عز وجل، وكان رسول الله ﷺ يحب هذه الصفات العالية فيها، وتعجبه صلاتها وصلتها بربها عز وجل.

وكانت زينب تفتخر على أزواج النبى ﷺ بثلاثة أشياء:

أولها: أن جدَّها وجدّ النبى ﷺ واحد.

وثانيها: أن الله عز وجل هو الذى أمر بزواجها من فوق سبع سموات.

وثالثها: أن السفير فى ذلك الزواج هو جبريل عليه السلام.

مع نساء النبى ﷺ

وشعر نساء النبى ﷺ بما لزينب من مكانة أولاها الله إياها، وشملها بها رسوله وشعرن بحب الرسول ﷺ لها، وأحسسن بميله إليها.

وكانت أكثرهن بهذا الشعور حسًّا ودراية، زوجة الرسول ﷺ المحببة إلى قلبه عائشة رضي الله عنها، فقد شعرت بما احتلت زينب من مكانة فى قلب الرسول ﷺ قاربت أن تساوى مكانتها هى فى قلبه، وأحست بما نالت زينب من رضاه، وحازت من إعجابه، حتى كانت عائشة تقول فى ذلك: لم تكن واحدة من نساء النبى ﷺ تناصبنى غير زينب.

كما كانت تقول عن حب الرسول ﷺ لزوجتيه: زينب وأم سلمة: كانتا أحب نسائه إليه فيما أحسب بعدي،... وكان لشعور زوجات النبى ﷺ بما لزينب من المكانة لدى الرسول أن شعرن بالغيرة من زينب، وعددنها أخطر منافسة لهن فى حب الرسول ﷺ، وكانت أكثر الزوجات أيضًا بهذا الشعور حساسية عائشة بنت أبى بكر، فلم تستطع عائشة أن تكتم ما بنفسها من غيرة من زينب، حينما كانت ترى رسول الله ﷺ يطيل المقام عند زينب فى أثناء دورته اليومية على نسائه لتفقد شؤونهن، فكانت تسعى إلى زوجة رسول الله حفصة

بنت عمر بن الخطاب وهى التى كانت عائشة تصطفيها وتتخذها صديقة.

وكانت أن اتفقت هى وحفصة، وأشركتا معهما فى هذا الاتفاق سودة بنت زمعة، على أن أيتهن يجيئها الرسول ﷺ بعد خروجه من عند زينب تقول له: رائحتك مغافير «والمغافير طعام حلو ذو رائحة كريهة».

وكان النبى ﷺ يكره الرائحة الكريهة.

فلما غادر النبى ﷺ زينب وجاء إلى عائشة فى دورته اليومية على نسائه قالت له عائشة: إنى أشم رائحة مغافير، هل أكلت مغافير؟ فلما أتى حفصة قالت له ما قالت عائشة، وهكذا سألته سودة، فلما أجابها بالنفى، سألت فما هذه الريح؟!

قال: «سقتنى زينب شربة من عسل».

فكان من هذه المؤامرة التى تآمرتها بعض زوجات الرسول نتيجة غيرتهن من احتباس الرسول عند زينب؛ أن حرّم الرسول ﷺ شُرب العسل عند زينب، وبذلك زال السبب الذى كان يحتبسه عندها أكثر من غيرها،

وحُرمت زينب من مقام الرسول لديها أكثر من ضرائرها.

وكما كانت عائشة الزوجة الحبيبة من الرسول تغار ممن ينافسها في حب زوجها، كانت زينب أيضًا تغار من شدة تعلق النبي ﷺ بعائشة رضي الله عنها.

مع عائشة رضي الله عنها

بالرغم من أن الرسول ﷺ كان يقسم أوقاته بالعدل بين نسائه، فيدور عليهن كل يوم يتفقد أمورهن ويرعى شؤونهن ثم يبيت عند كل واحدة منهن ليلة؛ وبالرغم من أنه يساويهن في النفقة، ويقسم بينهن ما يُهدَى إليه من هدايا المسلمين، كانت زينب ونساء النبي ﷺ ينقمن على عائشة تحرِّى المسلمين بهداياهم يومها، إذ يبعثون بها إلى الرسول في بيتها، ناشدين من وراء ذلك مرضاة الرسول، لما يعلمون من منزلة عائشة ومكانتها عنده.

وتزعَّمت زينب مجتمعًا لزوجات النبي ﷺ يتناقشن ويتشاورن في هذا الأمر، واتفقت معهن في هذا المجتمع على أن يطلبن من فاطمة بنت رسول الله ﷺ السفارة

بينهن وبين أبيهـا، بأن تطلب منه مساواتهن بعـائشة، بأن يأمر الناس أن يرسلوا إليه هداياهم أينما كان.

ودخلت فـاطمة على الرسـول (وعـائشة عنده) تقـول: إن نساءك أرسـلننى إليك، وهن ينشدنك العـدل فى ابنة أبى قحافة!!

وسأل النبى ابنته: «أي بُنية، ألست تحبين ما أحب؟».

قالت: بلى.

قال: «فأحبيها» يعنى عائشة.

وعادت فاطمة إلى زوجات الرسـول تُعرفهن ما كان، ولكن زوجات الرسـول لم يقتنعن بما جاءتهن به فـاطمة، وطلبن منها أن تعاود سفارتهـا بينهن وبين أبيها، ورفضت فاطمـة أن تعاود أباها فيـما ردَّها عنه، فلم تجـد زوجات النبى حينئذ أحدًا خيرًا من زيـنب يوفدنها سفيرة لهن إلى زوجهن الرسول ﷺ.

فذهبت تقوم بوساطتـها وهى تعلم حق العلم مكانتها عند الرسول ﷺ، وتحس بمقدرتها على مـواجهة عائشة الحبيبة المقـربة إلى قلب زوجها، ولما استأذنت زينب على

الرسول ﷺ قال: «**هذه زينب فأذنوا لها**».

وكلمت زينب الرسول ﷺ وعائشة معه واستطال بزينب الكلام حتى نالت بكلامها عائشة بمنال كبير، وغضبت عائشة لما نالتها به زينب، وتحفزت للرد عليها بما نالتها به، ولكن الرسول ﷺ أشار لها أن تسكت، وسكتت، ولكن زينب اندفعت بكل ما تحسه من غيظ وغيرة، وبكل ما تشعر به من أن مركزها ومكانتها يؤهلانها إلى المبالغة في النيل من عائشة حتى لم يجد معه الرسول بُدًا من أن يترك لعائشة حق الرد عليها(1)، فردت عليها عائشة حتى أفحمتها فتبسم النبي ﷺ وقال: «**إنها ابنة أبي بكر**»(2).

* * *

(1) أزواج النبي / أ. عبد المنعم الهاشمي (ص: ٣٦٤- ٣٦٧).
(2) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٨١) كتاب الهبة، ومسلم (٢٤٤٢) كتاب فضائل الصحابة.

مكانتها فى قلب عائشة رضي الله عنها

ولما كانت حادثة (الإفك) التى كادت أن تعصف بقلب أمنا عائشة رضي الله عنها وإذا بأمنا زينب رضي الله عنها تقف موقفًا عظيمًا جعلها تحتل مكانًا عاليًا فى قلب أمنا عائشة رضي الله عنها.

ففى الحديث الذى رواه البخارى فى حادثة الإفك - وفيه -:

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمرى فقال: «**يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟**» فقالت: يا رسول الله ﷺ أحمى سمعى وبصرى ما علمت إلا خيرًا. قالت عائشة: وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله بالورع[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٧٥٠) كتاب تفسير القرآن.

مع الرسول ﷺ فى الغزو والحج

لما خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف كان معه امرأتان من نسائه وهما: أم سلمة وزينب رضي الله عنهما وكان عليه الصلاة والسلام قد ضرب لزوجتيه قُبتين، ثم كان يصلى بين القبتين فى وقت حصار الطائف كله.

وفى حجة الوداع كانت زينب أم المؤمنين رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ، وقد قال عليه الصلاة والسلام لنسائه فى حجة الوداع: «هذه ثم ظهور الحُصُر»[1][2].

أى لا تخرجن من بيوتكن بعد ذلك وتلزمن الحُصر (والحصر جمع حصير).

وكانت نساء النبى ﷺ يحججن كلهن إلا سودة بنت زمعة وزينب بنت جحش قالتا: لا تحركنا دابة بعد رسول الله ﷺ[3].

❊ ❊ ❊

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٧٢٢) كتاب المناسك، وأحمد (٥/ ٢١٨)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (٢٤٠١).
(٢) أى: لا تعدن تخرجن من بيوتكن وتلزمن الحصر، والحصر جمع حصير.
(٣) الطبقات (٨/ ٢٠٨).

زهدها فى الدنيا وزينتها الفانية

لم تكن أم المؤمنين زينب رضي الله عنها تحفل بالمال أو بشىء من زخرف الدنيا، بل كانت تعمل بيدها، فكانت تدبغ وتخرز وتبيع ما تصنعه، وتتصدق به فى سبيل الله عز وجل، ومما يشير إلى كرامتها عند الله واستجابة دعائها، ويشير أيضًا إلى زهدها فى المال مهما كَثُر ما روته شاهدة عيان على ذلك، وهى برزة بنت رافع تحدثُنا عن هذا فتقول: لما خرج العطاء، أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها بالذى لها، فلما أُدخل عليها قالت: غفر الله لعمر، غيرى من أخواتى كان أقوى على قَسْمِ هذا منى. قالوا: هذا كله لك، قالت: سبحان الله! واستترت منه بثوب وقالت: صُبُّوه واطرحوا عليه ثوبًا، ثم قالت لى: أدخلى يدك فاقبضى منه قبضة فاذهبى بها إلى بنى فلان وبنى فلان - من أهل رحمها وأيتامها - حتى بقيت بقية تحت الثوب، فقالت لها برزة بنت رافع: غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا فى هذا حق، فقالت: فلكم ما تحت الثوب فوجدنا تحته خمسة

وثمانين درهمًا. ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم لا يُدركنى عطاءٌ لعمر بعد عامى هذا. قال: فماتت[1].

وحان وقت الرحيل

ظلت زينب رضي الله عنها على حالها بعد وفاة النبى ﷺ حتى ماتت، وكانت أول من لحقت بزوجها من زوجات النبى ﷺ، فقد ظلت تقية، بارة بالفقراء، متصدقة بما تعمل بيديها على الأيتام والمساكين.

وكان من أقوال النبى ﷺ لزوجاته، يبشرهن بأول من تلحق به منهن بعد موته: «**أسرعكن لحاقًا بى أطولكن يدًا**»[2].

فكان نساء النبى ﷺ إذا اجتمعن فى منزل إحداهن بعد موت رسول الله ﷺ يمدون أيديهن إلى الجدار، يتطاولن فى أيتهن أطول يدًا، فلم يزلن يفعلن ذلك حتى ماتت زينب ولم تكن بأطولهن، فعرفن حينئذ أن النبى

(١) الطبقات لابن سعد (٨/ ١٠٩- ١١٠) وصفة الصفوة (٢/ ٤٨- ٤٩) والسير (٢/ ٢١٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٥٢) كتاب فضائل الصحابة.

ﷺ إنما أراد بطول اليد الصدقة.

وكان من تصدُّق زينب على الفقراء وذوى الحاجة ومن حرصها على ألا تُخلِّف أو تترك شيئًا من بعدها دون صدقة أنها كانت قد أعدت كفنها الذى تُكفَّن فيه بعد موتها.

ثم خطر ببالها حين مرضت وحضرتها الوفاة، أن عمر ربما أرسل إليها بكفن. فقالت توصى من حولها من أهلها: إنى قد أعددت كفنى، ولعل عمر يبعث إلىَّ بكفن، فإن بعث فتصدقوا بأحدهما، فلما ماتت وبعث عمر إليها بكفن تصدقت عنها أختها حمنة بنت جحش بكفنها الذى كانت قد أعدته[1].

وفى اللحظات الأخيرة أوصت أن تُحمل على سرير رسول الله ﷺ، وماتت رضي الله عنها فكانت أول نساء النبى لحوقًا به.

ولما وصل نبأ وفاتها إلى سيدنا عمر بن الخطاب أمر مناديًا فنادى: ألا لا يخرج على زينب إلا ذو رحم من أهلها، وكان عمر رضوان الله عليه يطلع إلى شىء

(١) أزواج النبى (ص: ٣٧٠).

يسترها، فقالت أسماء بنت عُميس رضي الله عنها: قد رأيت بالحبشة يجعلون نعوشًا لموتاهم، فعملت نعشًا لزينب رضي الله عنها وغطته بثوب، فاستحسن هذا سيدنا عمر وأمر بعد ذلك مناديًا فنادى أن اخرجوا على أمكم، وخرج المسلمون يشيعون أم المؤمنين زينب، وخرج أخوها أبو أحمد بن جحش رضي الله عنه يحمل سرير أخته وهو مكفوف - أعمى - وكان يبكي بكاء شديدًا فقال له سيدنا عمر رضي الله عنه: يا أبا أحمد تنحَّ عن السرير لا يعنتك الناس - يشقون عليك - وكان يومًا صائفًا شديد الحر، وازدحم المسلمون على سريرها، فقال أبو أحمد: يا عمر هذه التي نلنا بها كل خير، وإن البكاء يُبرد حَرَّ ما أجد.

ودُفنت بالبقيع، وصلى عليها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونزل قبرها أسامة بن زيد ومحمد بن عبد الله بن جحش، وعبد الله بن أبي أحمد بن جحش، ومحمد بن طلحة بن عبد الله وهو ابن أختها حمنة،... فكلهم محارم رضي الله عنهم [1][2].

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٤٥، ٣٤٦).
(٢) نساء مبشرات بالجنة/ أ. أحمد خليل جمعة (ص: ٢٧٢- ٢٧٣).

وتوفيت رضي الله عنها سنة عشرين من الهجرة وخرجت من الدنيا أمنا الحبيبة التى زوَّجها الله جل وعلا من فوق سبع سماوات لتدخل جنة الرحمن التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فرضى لله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

❋ ❋ ❋

جويرية بنت الحارث رضي الله عنها

[illegible]

جويرية بنت الحارث رضي الله عنها

حبايبي الحلوين:

وها نحن على موعدٍ مع أمنا وأم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها التي كتب الله لها السعادة في الدارين في الدنيا والآخرة وكانت مفتاحًا للخير الذي حصل لقومها.

ولذا قالت عنها أمنا عائشة رضي الله عنها: ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع سيرة أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها التي كان اسمها بَرَّة فسمَّاها النبي ﷺ بعد أن تزوجها (جويرية).

❋ ❋ ❋

نشأة فى أحضان النعيم

لقد وُلدت جويرية بنت الحارث رضي الله عنها فى أسرة ذات مكانة ووجاهة.

فأبوها هو الحارث بن أبى ضرار سيد قومه وزعيم قبيلة بنى المصطلق وكان سيدًا مُطاعًا لا يستطيع أحدٌ أن يخالف أمره.

وظلت رضي الله عنها فى هذا النعيم وفى تلك الرفاهية زمانًا حتى اكتملت حيويتها ونضجت أنوثتها فكانت مضربًا للأمثال فى جمالها وحُسن خُلقها وأدبها حتى كان يتمناها البعيد والقريب والغنى والشريف فتزوجها أحد فتيان خزاعة ألا وهو (مُسافع بن صفوان).

ولم يخطر ببالها فى يوم من الأيام أن الله عز وجل سيختارها ويصطفيها لتكون مؤمنة بل ولتكون أمًّا للمؤمنين بزواجها من سيد الأولين والآخرين ﷺ.



شمس الإسلام تشرق على أرض الجزيرة

ولما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة وبُعث النبى ﷺ وقام يدعو الناس إلى عبادة الله - جل وعلا - فاستجاب أصحاب القلوب الطاهرة وأعرض أصحاب القلوب المريضة الذين لا يريدون إلا هذا الحطام الزائل الفانى.

وبدأت قريش تَصُبُّ العذاب صبًا على من أسلم من أصحاب الحبيب ﷺ فلما رأى النبى ﷺ ذلك أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة فهاجروا وعاشوا فى رحاب النجاشى ذلك الملك العادل.

* ولما اشتد الإيذاء بأصحاب الحبيب ﷺ أمرهم بالهجرة إلى المدينة المنورة ثم هاجر بعدهم بزمنٍ يسير لما أذن الله له بالهجرة.. فنزل الحبيب ﷺ وأصحابه فى رحاب الأنصار الذين بذلوا كل شىء لخدمة دين الملك - جل جلاله - وأراد النبى ﷺ أن يُرسى دعائم الدولة المسلمة فى المدينة المنورة لتكون قلعة للإسلام والمسلمين فتنشر عبير الإسلام وعطره على الكون كله[1].

(١) صحابيات حول الرسول/ للمصنف (ص: ٢٢٥).

ترسيخ دعائم الدولة المسلمة

ولما وصل النبى ﷺ إلى يثرب (المدينة المنورة) أراد أن يُرسخ دعائم الدولة المسلمة وذلك من خلال ثلاثة أشياء:

١ ـ صلة الأمة بالله.

٢ ـ صلة الأمة بعضها بالبعض الآخر.

٣ ـ صلة الأمة بالأجانب عنها، ممن لا يدينون دينها.

* ففى الأمر الأول بادر الرسول ﷺ إلى بناء المسجد لتظهر فيه شعائر الإسلام ولتُقام فيه الصلوات التى تربط قلب العبد برب العالمين جل وعلا.

* وأما عن الأمر الثانى فقد آخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار وهنا ظهرت عواطف الحب والإيثار والمواساة بصورة لا تخطر على قلب بشر.

* أما الأمر الثالث، وهو صلة الأمة بالأجانب عنها، الذين لا يدينون بدينها، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سَنَّ فى ذلك قوانين السماح والتجاوز التى لم تُعهد فى عالم ملئ بالتعصب والتغالى، عندما جاء النبى عليه

الصلاة والسلام إلى المدينة، وجد بها يهوداً توطنوا ومشركين مستقرين.

فلم يتجه فِكْرُه إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام، بل قَبِل وجود اليهودية والوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة النِّد للند، على أن لهم دينهم وله دينه.

واتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو. وأقرت حرية الخروج من المدينة لمن يبتغى تركها، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها (١).

مؤامرة من زعيم بنى المصطلق

وبعد أن أرسى النبى ﷺ دعائم الدولة المسلمة بدأ يفكر فى القبائل التى تعيش خارج المدينة ليدعوهم إلى الإسلام فلقد بعث الله حبيبه ﷺ ليُعبَد الكون كله لله - جل وعلا -. وكان النبى ﷺ ينتقل - بإذن الله - من نصر إلى نصرٍ حتى سمع الكون كله بالإسلام والمسلمين.

(١) بتصرف من فقه السيرة للغزالى.

وبلغ بنى المصطلق ما كان من أمر رسول الله ومقدار ما وصلت إليه دعوته للإسلام من انتشارٍ عَمَّ الكثير من قبائل العرب، فها هو ذا منذ هجرته من مكة إلى المدينة وهو يحقق للإسلام نصرًا كبيرًا، فهو فى مدى ست سنوات كانت رسالته تغمر الجزيرة كلها بالنور. . . نور التشريع العظيم والدين القويم، فدخل فى دعوته وفى دينه من العرب والعجم أفواج، من الرجال والنساء وحالفه كثير من القبائل.

وها هو ﷺ قد انتصر على أعدائه من قريش وحلفائهم فى غزوة الأحزاب، فانصرفوا عن المدينة مخذولين مدحورين بعد أن حاصروهم بجموعهم ما يقرب من الثلاثين يومًا؟

وها هو محمد ﷺ بنفسه يستأصل شأفة اليهود الذين حالفوه، وعاهدوه حين مَقْدِمه إلى المدينة، ثم نقضوا عهدهم، وأرادوا أن يغدروا شر غدر.

وها هو ذا يرسل بجيوشه ﷺ لتأديب العصاة من القبائل الذين حالفوه ثم غدروا به، ويبعث برسله لتأليف الناس، ودعوتهم إلى الإسلام.

فكّر الحارث بن أبى ضـرار سيد بنـى المصطلق فى أمر محـمد ﷺ ، وفى أمر انتشـار دعوته وقبول رسـالته، وفى مدى خطر انـتشار هذه الدعـوة على قبيـلته، وعلى أمثالهـا من قبائل المشركين، فـرأى أن يسعى إلى تحريض قبائل العرب، وجمع جمـوعهم، ليخرج بهم إلى محاربة محمد ﷺ عسى أن يقضى عليه وعلى دعوته.

وبلغ النبى بـالمدينة ما بـيَّت بنـو المصطـلق، ومـا دبر الحارث بن أبى ضرار فقـرر أن يسارع هو إلى غزوهم قبل أن يغزوه.

أعدَّ محمد ﷺ عُـدته، وجهَّز جيش المسلمين على عَـجَلٍ، وخرج على رأسـه يقـصد مـنازل بنى المصطلق، تصحبه من نسائه زوجته عائشة[1].

* * *

(١) أزواج النبى (ص: ٣٧٣- ٣٧٤) بتصرف.

المعركة

ولما خرج النبى ﷺ بالجيش كان الحارث بن أبى ضرار قد أرسل عينًا (جاسوسًا) ليأتيه بخبر الجيش الإسلامى، فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه.

ولما بلغ الحارث بن أبى ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقَتْله عينه، خافوا خوفًا شديدًا وتفرق عنهم من كان معهم من العرب... ووصل رسول الله ﷺ إلى ماءٍ لبنى المصطلق اسمه (المريسيع) وأمر أصحابه أن يتهيئوا للقتال وكانت راية المهاجرين مع أبى بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، فترامـوا بالنَّبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد فكانت النصرة.

وانهزم المشركون وقُتل مَن قُتل وسَبى رسول الله ﷺ النساء والذرارى والنعم والشاء، ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد، قتله رجل من الأنصار ظنًّا منه أنه من العدو[1].

(١) الرحيق المختوم (ص: ٣٥٣).

وكان مسافع بن صفوان زوج جويرية بنت الحارث من بين العشرة الذين قتلهم المسلمون وأما عن باقى الجيش فقد وقعوا أسرى فى أيدى المسلمين.

وغنم المسلمون غنائم كثيرة فقد غنموا أموالهم وسبوا نساءهم وذراريهم وأخذوا أغنامهم ونصرهم الله نصراً عزيزاً.

وكان من جملة السبى الذين وقعوا فى أيدى المسلمين (جويرية بنت الحارث) بنت زعيم القبيلة وقد ظهر الحزن على وجهها وامتلأ قلبها بالهم والغم لما تتوقعه من ذل الأسر وترك الأهل... وظلت تفكر فى مصيرها المجهول وكيف ستعيش بعد ذلك وهى التى كانت تعيش فى الرفاهية والنعيم.

الرحيل إلى المدينة وتقسيم الغنائم

بعد أن انتهى أمر غزوة بنى المصطلق بذلك النصر المبارك السريع، عاد الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة منصوراً مُظَفَّراً تُساق الأسرى والغنائم والسبى من النساء

والذرارى بين يديه، وكان ذلك شيئًا كثيرًا أنعش المسلمين، وأغناهم؛ وكان عدد الأسرى أكثر من سبعمائة وكانت غنائم الإبل ألفى بعير، وغنائم الشاء خمسة آلاف شاة، وكان السبى من النساء والذرارى أهل مائتى بيت.

هذا وقد قُسمت هذه الغنائم ووزعت الأسرى والسبايا والذرارى بين المجاهدين وكانت من بين السبايا السيدة العاقلة جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق؛ وكانت فتاة ما تزال فى زهرات العمر الأولى، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى رضي الله عنه[1].

فأرادت جويرية أن تنال حريتها فكاتبت ثابت بن قيس - أى اتفقت معه أن تعطيه تسع أواقٍ من الذهب على أن يعطيها حريتها فلا تكون أسيرة عند أحدٍ - فوافق ثابت بن قيس على ذلك.

فخرجت جويرية وذهبت إلى رسول الله ﷺ لتسأله أن يساعدها على تفريج همها وفكاكها من الأسْرِ.

جاءت جويرية إلى رسول الله ﷺ النبى الكريم،

(١) نساء أهل البيت / أ. أحمد خليل جمعة (ص: ٣٢٢).

الذى هزم قومها، وأسر رجالهم وسَبَى نساءهم وذراريهم بالأمس القريب، فكانت هى إحدى سبايا قومها، وهى ابنة سيدهم ورئيسهم.

وقفت جويرية أمام الرسول الكريم ﷺ تستعينه على الخروج من سجن حريتها لتتنفس عبير الكرامة، وتستشعر العزة التى كانت تتقلب بين أزاهرها، وطلبت منه ﷺ أن يعينها، وقصَّت عليه القصص فقالت: يا رسول الله إنى امرأة مسلمة، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخفَ عليك، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبنى على ما لا طاقة لى به، ولا يدان لى، ولا قدرة عليه، وهو تسع أواقٍ من الذهب، وما أكرهنى على ذلك إلا أنى رجوتك صلى الله عليك، وجئتك أسألك فى كتابتى[1].

وكانت جويرية فى غاية الحسن والجمال وكانت أمنا عائشة قد رأتها قبل أن تدخل على رسول الله ﷺ

(١) الإصابة (٤/ ٢٥٧) والسمط الثمين (ص: ١٣٥).

ورأت حُسنها وجمالها وبهائها فقالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسى، فجئتك أستعينك على كتابتى.

فنظر إليها النبى ﷺ نظرة عطفٍ وإشفاقٍ وتحركت عوامل الرحمة والنخوة والكرم فى قلبه فهو الذى قال عنه الحق (جل وعلا): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

فقال لها ﷺ فى رحمة وحنان: «فهل لك فى خير من ذلك؟».

فقالت متلهفة: وما هو يا رسول الله؟

قال: «أقضى عنك كتابك، وأتزوجك!».

فانشرحت أساريرها وتهلل وجهها الجميل، وكادت أن تطير من فرحتها، فهذه نقلة كبيرة وشرف عظيم، إنه على

(١) سورة الأنبياء: الآية: (١٠٧).

غير المتوقع، فمن سبيَّة أسيرة، جاءت إلى النبي ﷺ تستعينه على أمرها، فإذا بالنبي ﷺ يعرض عليها الحرية والزواج والشرف.

وانتبهت من مفاجآتها وأجابت الرسول على الفور: نعم يا رسول الله.

قال ﷺ: «قد فعلت»(1).

وانصرفت (بَرَّة) من حضرة رسول الله ﷺ بنفسٍ راضية مطمئنة، حتى يقضي رسول الله ﷺ عنها كتابها، ويؤدي ثمن خلاصها من الرِّق وحصولها على الحرية والشرف والمكانة الطاهرة.

كانت أعظم الناس بركة على قومها

وتم الزواج المبارك ودخلت بَرَّة بنت الحارث التي سمَّاها النبي ﷺ (جويرية بنت الحارث) بيت زوجها رسول الله ﷺ وأصبحت منذ هذه اللحظة أم المؤمنين.

---

(1) صحيح: رواه أبو داود (3931) كتاب المناسك، وأحمد (6/ 272)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الإرواء (1212).

فلما علم أصحاب الرسول ﷺ بخبر زواجها من رسول الله ﷺ قالوا: إن رسول الله ﷺ قد تزوج السيدة جويرية بنت الحارث فلا ينبغي أن يكون أهلها أسرى في أيدينا فهيا لنعتقهم جميعًا ونُطلق أسْرَهم فأرسلوا كل ما في أيديهم من الأسرى فأصبحوا أحرارًا ببركة هذا الزواج المبارك.

فبلغ ما أُعتقوا مائة أهل بيت منهم، حتى قالت عائشة عن جويرية في ذلك: لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

وهكذا أيضًا نال بنو المصطلق الشرف كل الشرف إذ صاروا أصهارًا لرسول الله وحظوا - وقد أسلموا - بنعمة الدنيا والآخرة.



ودخلت بيت النبوة

وبعد ما كانت جويرية رضي الله عنها تعيش في قصر أبيها ثم في قصر زوجها (مسافع) انتقلت الآن إلى بيت أعظم زوج في الدنيا كلها - محمد بن عبد الله ﷺ - الذي لم يكن يملك قصراً ولا متاعًا زائلاً، وإنما كان يملك سعادة الدنيا والآخرة - بإذن الله - تلكم السعادة التي تكمن في شيء واحد ألا وهو: أن نُحقق العبودية لله - جل وعلا -.

ودخلت رضي الله عنها إلى خدرها لتكون أمًّا للمؤمنين وزوجًا لسيد الأولين والآخرين.

وعاشت أجمل أيام عمرها في هذا البيت المتواضع ونسيت حياة الترف والثراء التي كانت تحياها من قبل .. فالدنيا كلها لا تساوي لحظة واحدة تقضيها بجوار الحبيب ﷺ الذي لو خُيِّر أي مسلم بين دنياه كلها وبين نظرة واحدة في وجه الحبيب ﷺ لاختار تلك النظرة الغالية فكيف بمن تعيش معه وتصبح زوجة له لتكون من أهل

البيت اللاتى قال الله تعالى فيهن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1][2].

إسلام أبيها (الحارث بن أبى ضرار)

لم يهدأ بال هذا الرجل العربى الأصل والأرومة، الخزاعى القبيلة، لم يهدأ بال الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق منذ أن أخذت ابنته أسيرة ضمن الأسرى الذين وقعوا غنيمة فى أيدى المسلمين، فراح يفكر ويدبر ويعمل على فدائها واستردادها بأسرع ما تمكّنه من ذلك ظروفه وموارده.

وعلى ذلك سار الحارث إلى المدينة، وقد ساق معه جمعًا من الإبل لفداء ابنته بها من المسلمين.

وبينما هو ينزل بمكان اسمه «العقيق» للراحة قبل دخوله المدينة، وقد سرحت الإبل التى جاء بها لفداء ابنته أمامه، أعجبه منها بعيران، ودّ لو احتجزهما وأبقاهما

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٣٣).
(٢) صحابيات حول الرسول / للمصنف (ص: ٢٣١- ٢٣٢).

لنفسه، ونفَّذ الحارث ما قامت نفسه إليه، فاحتجز البعيرين، وغيَّبهما في شِعبٍ من شِعاب العقيق، ثم أتى المدينة يسوق باقي الإبل معه لفداء ابنته.

وقصد الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق إلى النبي ﷺ ومعه الإبل يقول: يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فداؤها.

قال الرسول ﷺ: **«فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق؟»**.

فدُهش الحارث أشد الدهشة لمعرفة الرسول ﷺ بما كان منه، ولم يستطع إلا أن يهتف مسلمًا: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فو الله ما اطَّلع على ذلك إلا الله!.

وهكذا أسلم الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق الذي كان يجمع جموع العرب لمحاربة محمد ﷺ والقضاء عليه، كما أسلم معه ابنان له.

وأرسل الحارث فأتى بالبعيرين ليفدي ابنته قائلاً للرسول ﷺ: هذا فداء ابنتي، فإن ابنتي لا يُسبى مثلها!

فقال الرسول ﷺ: «أرأيت إن خيَّرناها؟ أليس قد أحسنَّا؟».

أجاب الحارث: بلى.

وسُئلت بَرَّة فيما تختار، فقالت: اخترت رسول الله ﷺ... وأسلمت برة، وأعتقها النبى ﷺ وتزوجها وسمَّاها «جويرية»(1).

وها هو النبى ﷺ يُعلمها الخير كله

كان بيت رسول الله ﷺ بيت طاعة وذكر وعبادة وخشوع.

وكانت جويرية رضي الله عنها من القانتات العابدات الصائمات القائمات... وكانت لا تفتر أبدًا عن ذكر رب الأرض والسماوات.

وكانت تقتبس كل يوم نورًا من الهدى النبوى فكان النبى ﷺ يُعلمها من القرآن ومن السنة ما يجعلها تعبد الله على علم، وكان النبى ﷺ كلما رآها يُعلمها شيئًا جديدًا لكى تزداد علمًا وإيمانًا وثباتًا على الحق الذى تحياه.

(1) أزواج النبى (ص: ٣٨٠- ٣٨١) بتصرف.

عن جويرية بنت الحارث: أن النبى ﷺ دخل عليها يوم جمعة، وهى صائمة، فقال لها، «أصُمتِ أمس» ؟ قالت: لا . قال: «أتريدين أن تصومى غدًا»؟ قالت: لا . قال: «فأفطرى» [1].

* وقد مَرَّ عليها رسول الله ﷺ وهى فى مُصلاها أول النهار، ثم مر عليها فى الظهيرة فوجدها جالسة خاشعة تُسبِّح ربها فقال لها: «ما زلت على حالك؟».

لقد مضى على حالها هذا وقت طويل، وهى خاشعة مُسبحة عابدة قانتة، عند ذلك أتحفها رسول الله ﷺ بخصوصية فى الذكر والدعاء والابتهال، أراد أن يعلمها تسبيحًا يليق بما رآه عليها من خشوع فى العبادة وإخلاص فيها فقال لها: «ألا أعلمك كلمات تقولينهن: سبحان الله عدد خلقه» ثلاث مرات، «سبحان الله رضا نفسه» ثلاث مرات، «سبحان الله زنة عرشه» ثلاث مرات، «سبحان الله مداد كلماته» ثلاث مرات.

هنيئًا لأم المؤمنين جويرية بنت الحارث ﵂ هذه

---

(١) صحيح: رواه البخاري (١٩٨٦) كتاب الصوم.

الأقوال الطيبة التي منحها إياها رسول الله ﷺ .

ونقول جويرية بنت الحارث رضي الله عنها: أتى عليَّ رسول الله ﷺ فقال: «لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»[1] .

راوية الحديث

كانت السيدة جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها مستمعة جيدة لحديث رسول الله واعية لما يقول، عالمة لما يريد وكانت تحب الخير للناس حبًا جمًا، وقد روى عنها حَبر الأمة عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعبد الله بن عمر رضوان الله عليهم أجمعين، وروى عنها أيضًا الطفيل ابن أخيها، ومجاهد، وآخرون.

ولأم المؤمنين جويرية رضي الله عنها سبعة أحاديث، منها حديث في صحيح الإمام البخاري، وفي صحيح مسلم حديثان[2] .

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٦) كتاب الذكر والدعاء.
(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦١).

وفاة الحبيب ﷺ

وهكذا تنقضى الأيام الجميلة مسرعة... فقد عاشت جويرية رضي الله عنها أغلى وأحلى أيامها فى رحاب الحبيب ﷺ ولكن سرعان ما جاءت الأحزان تطرق الأبواب ليفترق الأحباب... مات رسول الله ﷺ الذى كان لها زوجًا وحبيبًا ورسولاً ومُعلمًا.. ففقدت كل ذلك فى لحظة واحدة فحزنت عليه حزنًا كاد أن يمزق قلبها ولكنها احتسبته عند الله - جل وعلا - لتفوز بأجر الصابرين الذين ينالون الأجر يوم القيامة بغير حساب.

وعاشت فى ظل الخلافة الراشدة.. وكان الخلفاء يعرفون قدرها ومكانتها فكانت رضي الله عنها تحظى بكل تقدير واحترام.

❋ ❋ ❋

وحان وقت الرحيل

وعاشت أمنا جويرية بعد رسول الله ﷺ راضية مرضية، قضت شطر حياتها في أفياء عدل خلفاء النبي ﷺ ومع أزواج النبي الطاهرات، وكانت حياتها منعمة بالعلم والذكر والدعاء والتسبيح، وتلقين العلم لأهل العلم الذين ينشدون مآربهم العلمية في المدينة المنورة، ويقصدون منارات العلم، وشوامخ الرواة، ومن هؤلاء زوجات النبي الطاهرات رضي الله عنهن.

وكانت جويرية أم المؤمنين بما حفظته عن رسول الله ﷺ تحكي بعض الذكريات عن حياتها مع الرسول ﷺ، أو تتحدث عن قصة زواجها من رسول الله ﷺ.

وامتدت حياة أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها إلى خلافة سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وقد بلغت سبعين سنة.

ففي سنة خمسين[1] من الهجرة النبوية الشريفة،

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ١٢٠) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٦٣) والمواهب اللدنية (٢/ ٩١).

شعرت أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها بقرب لقاء الله عز وجل، وشعرت بالمرض يدب في جسدها، وفي شهر ربيع الأول من السنة نفسها توفيت أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها، وشُيِّع جثمانها إلى البقيع لترقد إلى جانب أمهات المؤمنين، وبنات الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم، . . . وصلى عليها مروان بن الحكم، وكان إذ ذاك أمير المدينة المنورة(١).

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

❊ ❊ ❊

(١) نساء أهل البيت (ص: ٣٣٧- ٣٣٨).

صفیہ بنت حُیی رضی اللہ عنہا

صفية بنت حُيى رضي الله عنها

حبايبى الحلوين:

وها نحن نفتح سويًّا صفحة جديدة نتعرف من خلالها على أم المؤمنين صفية بنت حُيى بن أخطب رضي الله عنها.

إنها الأم التى ملأت الدنيا زهدًا وورعًا وطاعة وحلمًا.

وحسبُها أن النبى ﷺ شهد لها بالصدق والوفاء فقال ﷺ: «**والله إنها لصادقة**»(١).

بل زكَّاها النبى ﷺ وقال لها: «**إنك لابنة نبى وإن عمك لنبى وإنك لزوجة نبى**»(٢).

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع سيرة أم المؤمنين صفية بنت حُيى رضي الله عنها.



(١) رواه عبد الرزاق فى مصنفه (١١/٤٣١)، ومعمر بن راشد فى جامعه (٤/٢٩٤).

(٢) صحيح: رواه الترمذى (٣٨٩٤) كتاب المناقب، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى المشكاة (٦١٨٣).

كيف كانت البداية

لقد كانت صفية رضي الله عنها من يهود خيبر وكان أبوها (حُيى ابن أخطب) سيدهم المطاع فعاشت معه فى رغدٍ ونعيم لكنها كانت تشعر أن النعيم الحقيقى هو نعيم القلب لا نعيم الجسد.

ولما اشتد عودها كان أشراف قومها يطمعون فى الزواج منها فتزوجها سلام بن مشكم ثم فارقها ليتزوجها من بعده كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهو من كبار بنى النضير أيضًا وصاحب حصن (القموص) أمنع حصون خيبر.

شمس الإسلام .... وعداوة اليهود

ولما أشرقت شمس الإسلام على أرض الجزيرة كان اليهود - كما أسلفنا - تقطر قلوبهم خبثًا وحقدًا وضغينة على النبى ﷺ ورسالته فقد كانوا يطمعون أن يكون النبى ﷺ واحدًا منهم لا من العرب. وكانت صفية رضي الله عنها ترى الحقد الذى كان يخرج من قلب أبيها (حُيى بن

أخطب) على النبى ﷺ وأصحابه.. ولعل الموقف الآتى يوضح لنا تلك الصورة واضحة جلية.

قالت صفية بنت حُيى بن أخطب: كنت أحبَّ ولد أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذانى دونه.

قالت: فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء، فى بنى عمرو بن عوف، غدا عليه أبى (حُيى بن أخطب) وعمى أبو ياسر بن أخطب.

قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس.

قالت: فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان فى ضعف وفتور فهششت[1] إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلىَّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمى، أبا ياسر، وهو يقول لأبى حُيى بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله؛ قال: أتعرفه وتُثبته؟ قال: نعم، قال: فما فى نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[2].

---

(١) هششت: أى بششت لهما فرحًا بهم.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٢٦- ١٢٧).

مؤامرات اليهود على الإسلام والمسلمين

لما أرسل الله - تعالى - محمدًا ﷺ من العرب - لا من اليهود - امتلأت نفوس اليهود بالحسد والغيرة، وأكل الحقد والغيظ قلوبهم، وجعلوا يشككون فى نبوته وفى دينه ويقولون: ليس محمد هو الرسول الذى كنا ننتظر، وليس دينه هو الدين الذى كنا نبتغى! وحرَّفوا ما جاء فى كتابهم عنه، وغيروا كل ما يدل عليه من اسم أو صفة أو إشارة، علمًا بأن النبى ﷺ جاء مُصدِّقًا لما بين أيديهم من الكتاب، موافقًا لكل ما يعرفون من صفة هذا النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة، ولكن طبيعة الأثرة غلبت على نفوسهم، إذ يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه وشعبه المختار فى الأرض، وأن الرسل والأنبياء لا يكونون إلا منهم، وعزَّ عليهم أن يكون هذا النبى من العرب، لذلك أضمروا له العداوة والبغضاء، وظلت العداوة كامنة فى صدورهم لرسول الله ﷺ ولدعوته منذ بعثته.

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة كانوا أول كافر به، بل إنهم منذ اليوم الأول الذى حَلَّ فيه رسول الله ﷺ المدينة واجهه اليهود بالعداوة والمكر، وشجعوا بعض العرب على النفاق وإلقاء أسئلة التعنت، وتواصوا بينهم بالكيد الدائم للرسول ﷺ والإسلام(١).

إجلاء يهود بنى قينقاع

وكان سبب إجلاء يهود بنى قينقاع أن امرأة مسلمة ذهبت إلى سوق بنى قينقاع لتبيع ذهبها فلما أعطت الذهب للتاجر اليهودي وجلست جانبًا جاءها يهودى خبيث وطلب منها أن تكشف وجهها فرفضت فأخذ طرفًا من ثوبها وعقده إلى أعلى الثوب دون أن تدرى فلما قامت انكشف جزء من جسدها فصرخت ووقف اليهود يضحكون فقام رجل من المسلمين على هذا اليهودى فقتله، فقام اليهود على هذا الرجل المسلم فقتلوه فلما علم النبى ﷺ بذلك أخرج يهود بنى قينقاع من المدينة وأجلاهم عنها.

(١) رجال مبشرون بالجنة (ص: ٢٦٨).

مؤامرة لقتل النبى ﷺ

وظل اليهود يتآمرون على النبى ﷺ وعلى المسلمين ويحتالون أشد أنواع الحيل لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقاتلوا المسلمين.

لكنهم خافوا من النبى ﷺ وأصحابه بعد الانتصار فى يوم بدر وبعد إجلاء يهود بنى قينقاع.

ولكنهم بعد غزوة أُحد تجرؤوا، فكاشفوا بالعداوة والغدر، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سرًا ويعملون لصالحهم ضد المسلمين.

وصبر النبى ﷺ حتى ازدادوا جُرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة، حتى قاموا بمؤامرة تهدف إلى القضاء على النبى ﷺ.

وبيان ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم فى نفرٍ من أصحابه، وكلَّمهم أن يعينوه فى دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى - وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة - فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضى حاجتك. فجلس إلى جنب جدار من

بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعليّ وطائفة من أصحابه[1] .

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمَن رجلٌ يعلو على هذا البيت فيُلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك. فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه، قاموا فى طلبه، فلقوا رجلاً من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم .

(١) الرحيق المختوم (ص: ٣١٧).

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير ليخبرهم أن رسول الله ﷺ يأمرهم بالخروج.

ولم تجد يهود مفرًا من الخروج، فأقاموا أيامًا يتجهزون للرحيل، لكن رئيس المنافقين - عبد الله بن أبي - بعث إليهم أن اثبتوا وتمنَّعوا، ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(1) وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

وهناك عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المواجهة، وطمع رئيسهم حُيي بن أخطب، فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنَّا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حُيي بن أخطب

---

(1) سورة الحشر: الآية: (11).

كَبَّر وكبَّر أصحابه، ثم نهض لمناجزة القوم، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم وعلى بن أبى طالب يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار.

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم فى ذلك، فأمر النبى ﷺ بقطعها وتحريقها.

واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أُبى وحلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيرًا، أو يدفع عنهم ضرًّا، ولهذا شبَّه سبحانه وتعالى قصتهم، وجعل مثلهم: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

ولم يَطُل الحصار - فقد دام ست ليالٍ فقط، وقيل: خمس عشرة ليلة - حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب، فاندحروا وتهيؤوا للاستسلام ولإلقاء السلاح فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: نحن نخرج عن المدينة، فأنزلهم على

---

(١) سورة الحشر: الآية: (١٦).

أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح.

فنزلوا على ذلك، وخربوا بيوتهم بأيديهم، ليحملوا الأبواب والشبابيك، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف، ثم حملوا النساء والصبيان، وتحمَّلوا على ستمائة بعير، فترحَّل أكثرهم وأكابرهم كحُيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلان فقط: يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما.

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم فوجد من السلاح خمسين درعًا، وخمسين بيضة (خوذه) وثلاثمائة وأربعين سيفًا[1].

* * *

(١) الرحيق المختوم: (ص: ٣١٩).

مؤامرة حقيرة

ولما اجتمعت كتائب الكفر في غزوة الأحزاب (الخندق) وأرادوا أن يبيدوا الإسلام وأهله.. وكان هناك معاهدة بين النبي ﷺ ويهود بني قريظة على أن يقفوا في وجه كل من أراد يثرب (المدينة).. لكن حُيي بن أخطب (والد صفية) ذهب إلى بني قريظة في ديارهم، فقال: قد جئتكم بعزٍّ الدهر، جئتكم بقريش على سادتها، وغطفان على قادتها، وأنتم أهل الشوكة والسلاح، فهيا حتى نقاتل محمدًا ونفرغ منه، فقال له رئيسهم: بل جئتني والله بذل الدهر، فلم يزل حُيي يخادعه ويعده ويُمنِّيه حتى أجابه بشرط أن يدخل معه في حصنه، يصيبه ما أصابهم، ففعل، ونقضوا عهد رسول الله ﷺ، وأظهروا سبَّه، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فأرسل يستعلم الأمر، فوجدهم قد نقضوا العهد، فكبَّر وقال: **«أبشروا يا معشر المسلمين»**.

فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، لم يكن إلا أن وضع سلاحه، فجاءه جبريل، فقال: «أوضعت

السلاح، والله إن الملائكة لم تضع أسلحتها؟! فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائرٌ أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب»، فسار جبريل في كوكبة من الملائكة، ورسول الله ﷺ على أثره في موكبه من المهاجرين والأنصار[1].

لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات

فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسة وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء، قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا (أبا لُبابة بن عبد المنذر)، فأشار إليهم أنه الذبح. فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ.

قال رسول الله ﷺ: «احكم فيهم».

قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم وتُسبى

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤١١٧) كتاب المغازي، ومسلم (١٧٦٩) كتاب الجهاد والسير.

ذراريهم وتُقسَّم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل وحكم رسوله ﷺ»(1).

وفي بني قريظة نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾(2).

* وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف، فإن بني قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع... كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفًا وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس وجحفة، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم.

وأمر رسول الله ﷺ فحُبست بنو قريظة في دار بنت الحارث امرأة بني النجار، وحُفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق جماعات، وتُضرب في تلك الخنادق أعناقهم.

(1) حسن: رواه أحمد (6/141)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (67).
(2) سورة الأحزاب: الآيتان: (26-27).

مقتل أبيها

وهكذا تم استئصال أفاعى الغدر والخيانة، الذين كانوا نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين فى أحرج ساعة كانوا يمرون بها فى حياتهم - وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمى الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام.

وقُتل مع هؤلاء شيطان بنى النضير، وأحد أكابر مجرمى معركة الأحزاب حُيى بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها... كان قد دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان؛ وفاءً لكعب ابن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب، فلما أتى به - وعليه حُلة قد شقَّها من كل ناحية بقدر أنملة لئلا يسلبها - مجموعة يداه إلى عُنقه بحبلٍ، قال لرسول الله ﷺ: أما والله ما لُمت نفسى فى معاداتك، ولكن من يغالب الله يُغلب. ثم قال: أيها الناس، لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر

وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس فضُربت عنقه[1].

صفية ترى رؤيا بزواجها من النبى ﷺ

ذاع خبر ما أصاب يهود بنى قريظة لدى سائر اليهود المنتشرين فى شتَّى أنحاء جزيرة العرب. وعلم يهود بنى النضير، بما كان من مقتل رئيسهم حُيى بن أخطب الذى خرج يُحزِّب الأحزاب ويجمع الجموع، للقضاء على محمد ﷺ، وأدركت ابنته صفية أن أباها الذى سمعته، وهى بعدُ طفلة صغيرة، يعلن لعمها أبى ياسر عداوته لمحمد ما بقى، قد ظل حقًّا على عداوته له حتى قتلته هذه العداوة وقضت عليه.

وكانت صفية حينذاك قد شبَّت فتاة نضرة حلوة تُجملها وضاءة أخَّاذة، ويُزينها عقل راجح ثابت، ويطبعها هدوء محبب، ورزانة مرغوبة.

وكانت حينذاك زوجة لرجل من كبار يهود بنى

(١) الرحيق المختوم (ص: ٣٤٣).

النضير، ومن أوائل أصحاب الرأى والمشورة فيهم، هو سلام بن مشكم، وفارقها سلام ليتزوجها من بعده كنانة بن الربيع بن أبى الحُقيق، وهو من كبار رجال بنى النضير أيضًا، وصاحب حصن (القموص) أمنع حصون خيبر، وصاحب كنز اليهود (أى: المتولى أمر أموالهم والمؤتمن على حُليهم وذهبهم).

وفى ذات يوم قامت العروس صفية من نومها تقصُّ على زوجها كنانة رؤيا رأتها فى المنام، كانت موضعًا لعجبها ودهشتها فقالت: رأيت فى المنام أن قمرًا أقبل من ناحية المدينة حتى وقع فى حجرى.

وما إن أتمت صفية ذكر رؤياها لزوجها، حتى رأته وقد تطاير شرر الغضب من عينيه ثم ما أحست إلا ويده تهوى بقوة وشدة على وجهها تلطمها وهو يقول: ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز: محمدًا.

واحتقن ما حول عين صفية من أثر اللطمة، ثم تحوَّل هذا الاحتقان مع مرور الزمن إلى كدمة زرقاء قاتمة[1].

---

(١) أزواج النبى/ أ. عبد المنعم الهاشمى (ص: ٣٩٤- ٣٩٥).

غزوة خيبر

لما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وأمِن منه أمنًا باتًا بعد الهدنة، أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء فى المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامى المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

ولما كانت خيبر هى وكرة الدسِّ والتآمر، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هى الجديرة بالتفات المسلمين أولا.

وكان أهل خيبر يتحينون الفرص للنيل من الإسلام ورسوله والمسلمين... وأثناء عودة المسلمين بعد صلح الحديبية إلى المدينة، وقد عُرف أن قريش لم تسمح لهم بدخول مكة، وظنوا بذلك الظنون من أنه لولا ضعف أصاب محمدًا ﷺ والمسلمين لما قَبِل شروط هذا الصلح المجحف، فهرولوا إلى غطفان وأعراب البادية ليدعوهم لحرب الرسول ﷺ ويؤلبوهم على المسلمين.

بلغت هذه الأنباء الرسول ﷺ فآثر أن يفاجئهم ﷺ قبل أن يفاجئوه.

وجاء المُخلَّفون عنه في الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، وكانوا من المنافقين الذين رجعوا عن الخروج معه يوم الحديبية.

وجاء أمر الله عز وجل بأنه لا يخرج إلى خيبر إلا المؤمنون حقًّا، وهؤلاء المنافقون لا يخرجون معه ولا يتبعوه أبدًا فقال عز وجل: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

لذلك فقد حدد رسول الله ﷺ من يخرج معه إلى خيبر وهم أهل الشجرة الذين بايعوه تحت الشجرة فرضي الله عنهم لأنهم لم يبايعوا الرسول ﷺ فحسب، بل بايعوا الله عز وجل - وذلك كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ

---

(١) سورة الفتح: الآية: (١٥).

السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا (١٨) ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما ﴾[١].

وقد قام المنافقون يعملون لليهود، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبي إلى يهود خيبر: أن محمدًا قصد قصدكم وتوجَّه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعُدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عُزَّل لا سلاح معهم إلا قليل، فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان، يستمدونهم؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، ومُظاهرين لهم على المسلمين، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين.

خرج جيش المسلمين يحمل الراية السوداء العظيمة المعروفة بالعقاب وهو النسر الأسود، سيد الطيور وكانت الراية من بُرْدٍ لعائشة رضي الله عنها، ولما أشرف الرسول ﷺ على خيبر قال لأصحابه الأبطال: «قفوا» فوقف الجيش.

ثم دعا دعاءه المستجاب فقال: «اللهم رب السموات وما

(١) سورة الفتح: الآيتان: (١٨، ١٩).

أظللن، ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها، أقدموا باسم الله»[1][2].

وأراد الرسول ﷺ أن يفاجئ أهل خيبر، فبات المسلمون تلك الليلة واليهود لا يشعرون بهم، فلما أصبح النبي ﷺ صلى الفجر وركب والمسلمون.

وبينما المزارعون من يهود خيبر يخرجون في هذا الصباح إلى بساتينهم ومزارعهم، وهم يحملون فؤوسهم وأدوات زراعتهم، إذ بأهليهم وأصحاب حصونهم، يسمعون صياحهم ونداءاتهم وهم مقبلون عليها في هرج ومرج واضطراب، واختلاط، لأنهم قد تملَّكهم الرعب، واستبدَّ بهم الفزع، وكانوا يقولون: هذا محمد قد جاء والجيش معه. لقد هتفوا: محمد والله، محمد وأصحابه.

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٩٥): رواه الطبراني وفيه راو لم يسم، وبقية رجاله ثقات.
(٢) ابن الأثير (٢/ ٢١٧).

أما النبي ﷺ فقد هتف قائلاً: «الله أكبر، خربت خيبر إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنذَرين»(١).

وخربت خيبر كما تنبأ الرسول ﷺ، فقد سقطت حصونها بعد قتال عنيف شديد حصنًا بعد حصن في أيدي المسلمين، واستولى المسلمون على ما بالحصون من عتاد ومؤن وسلاح، ووقع في أيديهم ما كان فيها من نساء وأطفال سبايا لهم وأسرى(٢).

مقتل كنانة بن الربيع زوج صفية

لم تجد اليهود بُدًّا من الصلح، فعرضوا الصلح على محمد ﷺ، فصالحهم على أن يكون للمسلمين نصف ثمار خيبر، ولليهود النصف الآخر نظير عملهم في الأرض.

وسأل النبي ﷺ كنانة بن الربيع عن أموال اليهود وذهبهم اللذين حملهما بنو قينقاع وبنو النضير معهم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧١) كتاب الصلاة، ومسلم (١٣٦٥) كتاب النكاح.
(٢) أزواج النبي (ص: ٣٩٦- ٣٩٧).

عندما غادروا المدينة، فأنكر كنانة وجودهما قائلاً: يا أبا القاسم، أنفقناهما فى حربنا، فلم يبقَ منها شىء.

فقال النبى ﷺ لكنانة: «برئت منكم ذمة الله، وذمة رسوله، إن كان عندكم شىء من أموالكم وذهبكم».

أجاب كنانة: نعم.

وقال النبى ﷺ: «أرأيت إن وجدناه عندك، أأقتلك؟».

قال كنانة: نعم.

فأشهد النبى ﷺ طائفة من اليهود، وطائفة من المسلمين على ذلك، ثم أمر بالبحث عن أموال اليهود وذهبهم اللذين أنكر كنانة وجودهما، وأقسم عليه.

واكتشف كنز اليهود، وقد خبَّأه كنانة فى خربة من خربات خيبر، وبذلك حَلَّ دم كنانة للمسلمين، فقتلوه.

❋ ❋ ❋

وأصبحت صفية من نصيب النبى ﷺ

وبعد هذا النصر الكبير الذى تم للمسلمين فى غزوة خيبر.

جاء الصحابى الكريم دحية بن خليفة الكلبى عندما جمع السبى فقال: يا نبى الله، أعطنى جارية من السبى.

فقال: «اذهب فخذ جارية».

فأخذ صفية بنت حُيى. فجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا نبى الله أعطيت دحية صفية بنت حُيى سيدة قريظة، وبنى النضير... وهى لا تصلح إلا لك.

قال: «ادعوه بها».

فجاء بها، فلما نظر إليها النبى ﷺ قال: «خذ جارية من السبى غيرها» وذهب دحية إلى حيث جمع السبى، وأخذ جارية أخرى هى أخت كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق زوج صفية(١).

وكان لرسول الله ﷺ سهم من الغنيمة يُدعَى الصَّفى، إن شاء عبدًا، وإن شاء أمة، وإن شاء فرسًا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٧١) كتاب الصلاة، ومسلم (١٣٦٥) كتاب النكاح.

يختاره قبل الخُمس.

قالت أم المؤمنين: عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها:

وكانت صفية من الصفي. فاختارها ﷺ(١).

وبينما كانت صفية تنتظر مع عمومتها ما يجريه عليهن حكم الأسر، أتاها بلال يدعوها لتقف بين يدى رسول الله ﷺ، وصحبت صفية بلالاً إلى الرسول ﷺ، ومعها إحدى بنات عمها، وفى الطريق مرَّ بهما بلال على جثث قتلى قومهم وأشلائهم ورأت صفية وابنة عمها قتلاهما، ورأيا شدّة ما فعلت قوة الحرب بهم جزاء خيانتهم.

لم تستطع صفية أن تمسك نفسها عن البكاء فانحدرت دموعها على خدها فى حين صرخت ابنة عمها وولولت وصاحت صياحًا شديدًا... ووقفت صفية وابنة عمها وهما على هذا الحال أمام الرسول ﷺ.

وعلم رسول الله بما كان من بلال حين مرَّ بالفتاتين على قتلى قومهما فاستنكر من بلال هذا الفعل، وقال له:

(١) نساء أهل البيت/ أ. أحمد خليل جمعة (ص: ٣٤٧- ٣٤٨).

«أنُزعت منك الرحمة يا بلال، حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟!»[1].

فقال بلال معتذرًا: يا رسول الله، ما ظننتُ أنك تكره ذلك، فأحببت أن يريا مصارع قومهما؟

وحينما هَمَّ الرسول ﷺ بمغادرة خيبر، بعد أن انتهى من تدبير أمر اليهود كانت صفية قد أسلمت وتخيرت رسول الله، فحينما خيَّرها الرسول ﷺ بين الإسلام واليهودية قالت: يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني إلى ذلك، فأعتقها رسول الله، وجعل عتقها صداق زواجه منها[2].

الزفاف المبارك

وبعد انتهاء الغزوة أمر النبي ﷺ أصحابه بالرحيل لمغادرة خيبر وخيَّر النبي ﷺ صفية بين أن يعتقها، فترجع إلى من بقي من أهلها في خيبر، أو أن تشهد

(١) الحديث من رواية إسحاق بن يسار والد محمد بن إسحاق صاحب «السيرة» معلقًا، انظر «السيرة النبوية» (٣/ ٤٦٨).
(٢) أزواج النبي/ أ. عبد المنعم الهاشمي (ص: ٣٩٩- ٤٠٠).

شهادة الحق فتُسلم، وحينذاك يتخذها لنفسه؛ فقالت: أختار الله ورسوله، . . . فأعتقها. وجعل عتقها مهرها وصداقها.

لقد اختارت صفية الله ورسوله، وعللت ذلك بقولها: يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعونى، حيث صرت إلى رحلك.

وبعد أن عرف المسلمون أن النبى ﷺ قد اختار صفية بنت حُيى لتكون زوجة له ولتكون من أمهات المؤمنين. . . . قام النبى ﷺ واقترب منها وقدم لها البعير لتركبه وثنى لها رجله لتضع قدمها على فخذه مساعدة لها على الركوب، فأبت صفية أن تضع قدمها على فخذ رسول الله، ووضعت ركبتها بدلاً من قدمها، وعلى بعد ستة أميال من خيبر حَطَّ النبى ﷺ يبغى الزفاف بعروسه فأبت عليه صفية ذلك.

ووجد النبى ﷺ فى نفسه وحزن لما بدا من صفية، فلما كان بالصهباء (وهى موضع على بعد مرحلة من خيبر) نزل النبى ﷺ، وطلب من أم سُليم أن تُعِدَّ

صفية لزفافها.

وبعد ذلك أعرس بها رسول الله ﷺ بعد أن حلَّت، فمشطتها أم سليم الأنصارية وعطرتها، وكانت أضوأ ما يكون من النساء.

ولما أصبح رسول الله ﷺ سأل صفية: «ما حملك على الامتناع من النزول أولاً»؟.

فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود.

فزادها ذلك منزلة ومكانة عند النبي.

ثم أمر النبي ﷺ أصحابه أن يأتوا بما عندهم من الطعام فجمعوا طعامًا كثيرًا وعملوا وليمة رسول الله ﷺ وزوجته صفية.

وما أجمل أن نتدبر سويًا كيف كان الحبيب ﷺ رحيمًا متواضعًا يخاطب كل من حوله برحمة وحنان ويدع له المجال ليُعبِّر عما يجيش فى نفسه ثم يخاطبه بكل رحمة ليزيل الشُّبه ويُجلِّى الحقائق.. وهذا هو الذى حدث مع أمنا صفية رضي الله عنها.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان بعينى صفية خُضرة، فقال

لها النبي ﷺ : «ما هذه الخضرة بعينيك؟».

قالت: قلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمرًا وقع في حجري، فلطمني، وقال: أتريدين ملك يثرب ؟ قالت: وما كان أبغض إليَّ من رسول الله ﷺ قتل أبي وزوجي، فما زال يعتذر إليَّ وقال: «يا صفية إن أباك ألَّب عليَّ العرب وفعل وفعل» حتى ذهب ذلك من نفسي[(١)].

ولا نجد تعليقًا على هذا الموقف العظيم إلا أن نتذكر قول الله عز وجل حيث يقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)].

في بيت النبوة

وعادت صفية رضي الله عنها مع الحبيب ﷺ بعد أن بنى بها في طريق العودة إلى المدينة المنورة.. وكانت في قمة السعادة فهي التي لم يخطر ببالها أن تكون واحدة من

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤ / ٦٧ / ١٧٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٧٩٣).
(٢) سورة التوبة: الآية: (١٢٨).

نساء المؤمنين فكيف وهى الآن من أمهات المؤمنين.

يا لها من لحظة سعيدة يعجز القلم عن وصفها!!!.

جاء البشير إلى أهل المدينة يُعلمهم بقدوم رسول الله ﷺ، فخرجت المدينة تستقبل رسول الله ﷺ عند عودته من هذه الغزاة... كانت وجوه الرجال تتهلل بالبِشر، والولدان يغمرهم الفرح، بينما كانت النساء على أسطح المنازل، وقد عمرت أفئدتهن بالسرور.

أما المنافقون، فقد كانوا فى كمدٍ رهيب، يُظهرون غير ما تُخفى الصدور، فقد امتلأت قلوبهم غيظًا بنصر رسول الله ﷺ، وفضحهم الله عز وجل، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا.

وكانت النسوة فى دور النبى ﷺ يتأهبن لاستقبال نبى الإسلام، وحبيب المسلمين الذى نصره الله عز وجل بقلوب سليمة، وعزائم صادقة، ونفوسٍ صافية.

ويبدو أن أمنا عائشة الصدِّيقة بنت الصديق رضي الله عنهما قد أخذت الغيرة من نفسها مكانًا واسعًا، بعد أن جاءها نبأ زواج رسول الله ﷺ من صفية بنت حُيى ملك اليهود،

تلك الشابة الجميلة، ذات السبعة عشر عامًا.

بلغ الرَّكْبُ الميمون المدينة المنورة، وآثر رسول الله ﷺ ألا يدخل على نسائه الطاهرات بصفية الصافية، وأحبَّ أن يُنزلها في بيت الصحابي النجيب حارثة بن النعمان الأنصاري رضي الله عنه.

وتسامعت نساء الأنصار بصفية زوج النبي ﷺ، وأم المؤمنين، تلك التي دخلت في عِداد أمهات المؤمنين الطاهرات، وجئن ينظرن إلى جمالها وكمالها [1].

الكريمة صاحبة القلب الرقيق

ولما انتقلت صفية رضي الله عنها إلى دور النبي ﷺ كانت تحمل كل الخير لأخواتها (أمهات المؤمنين) رضي الله عنهن فقد بدأت بتقديم الهدايا لهن ولكنها بدأت بريحانة رسول الله ﷺ (ابنته فاطمة) رضي الله عنها فقدمت لها هدية غالية... بل قدمت بعض الهدايا لأزواج النبي ﷺ ....

* ويالها من أمٍّ لبيبة عاقلة علمت كيف أن الهدية لها

(١) نساء أهل البيت (ص: ٣٥٢).

موقع وأثر عظيم فى قلوب الناس من حولها فقد قال ﷺ : «تهادوا تحابوا»[(١)] .

ولكنها مع ذلك كانت تشعر بغربة شديدة لأن أزواج النبى ﷺ الطاهرات لا يستطعن أن ينسين أصلها وأنها كانت فى يوم من الأيام يهودية ولكن الله أعزها وأكرمها بنعمة الإسلام.

إنك لابنة نبى ... وإن عمك لنبى ... وإنك لتحت نبى

بلغ صفية أن حفصة قالت عنها أنها: بنت يهودى، فبكت، فدخل عليها النبى ﷺ وهى تبكى، فقال: «ما يبكيك»؟ فقالت: قالت لى حفصة إنى بنت يهودى، فقال النبى ﷺ : «إنك لابنة نبى، وإن عمك لنبى، وإنك لتحت نبى، ففيم تفخر عليك ؟» ثم قال: «اتقى الله يا حفصة»[(٢)] .

---

(١) حسن: أخرجه البيهقى (٦/١٦٩)، والبخارى فى الأدب المفرد (٥٩٤)، وأبو يعلى (٩/١١)، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣٠٠١).

(٢) صحيح: رواه الترمذى (٣٨٩٤) كتاب المناقب، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى المشكاة (٦١٨٣).

بل وحدث ذات مرة أن قامت عائشة رضي الله عنها وعيَّرت صفية رضي الله عنها بأنها قصيرة فلم يرضَ النبي ﷺ منها ذلك ولم يُقره.

عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبُك من صفية كذا وكذا - تعني: قصيرة - فقال: **«لقد قلتِ كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته»** (١).

بل وحدث شيء قريب من ذلك من زينب بنت جحش رضي الله عنها فغضب النبي ﷺ لذلك وعتب عليها حينًا من الدهر.

فإنه لما حج النبي ﷺ بنسائه حدث شيء من أمنا زينب بنت جحش رضي الله عنها جعل النبي ﷺ يغضب عليها غضبًا شديدًا حتى هجرها ولم يأتها حتى كادت زينب أن تيأس من أن يعفو عنها النبي ﷺ.

وذلك أن النبي ﷺ لما حَجَّ بأزواجه اعتلَّ وبَرَك الجمل الذي كانت تركبه صفية فأعاقها ذلك عن مصاحبة

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٨٧٥) كتاب الأدب، والترمذي (٢٥٠٢) كتاب صفة القيامة، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥١٤٠).

سائر أزواج النبي ﷺ.

فلما علم النبي ﷺ بذلك جاء إليها فوجدها تبكي فأخذ يمسح دموعها بيده ثم ذهب إلى زينب بنت جحش وطلب منها أن تعطي صفية جملاً تركب عليه فقد كانت زينب تمتلك الكثير من الإبل.

فقالت له زينب: أنا أعطي هذه اليهودية؟!

فغضب النبي ﷺ غضبًا شديدًا وهجرها ولم يأتها... وظل النبي ﷺ على تلك الحالة ما يقرب من ثلاثة أشهر حتى كادت زينب أن تيأس من عفوه ورضاه عنها.

وبينما هي جالسة في بيتها في يوم من الأيام إذ وجدت النبي ﷺ واقفًا خلفها فكاد قلبها أن يطير من شدة الفرح والسعادة ولم تعرف ماذا تفعل لتعبِّر للنبي ﷺ عن سعادتها بعودته إليها.

وكان عند زينب جارية تحبها حبًّا شديدًا فوهبتها هدية للنبي ﷺ.

* * *

والله إنها لصادقة

كانت أم المؤمنين صفية رضي الله عنها ذات سريرة صافية، وعلانية نقية، فقد أحبت رسول الله ﷺ، وصدقت في حبها لله عز وجل، فجاءت تصرفاتها نابعة من معين الصدق، ومَعين الوفاء، مما جعلها متفردة في بعض المواقف العطرة، وشهد رسول الله ﷺ لأمنا صفية بالصدق بعد أن أقسم على ذلك[1].

عن زيد بن أسلم: أن نبي الله في وجعه الذي تُوفِّي فيه، قالت صفية بنت حُيي: والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي. فغمزها أزواجه؛ فأبصرهن. فقال: «مَضْمِضن». قلن: من أي شيء؟ قال: «من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة»[2].

فيا لها من منقبة عظيمة لأم المؤمنين (صفية) أن يشهد لها الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ بأنها صادقة بل ويقسم بالله على ذلك.

(١) نساء أهل البيت (ص: ٣٥٨).
(٢) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٢٨) ورجاله ثقات لكنه مرسل.

على رسلكما إنها صفية

وها هو موقف عظيم يوضح مكانة صفية رضي الله عنها في قلب النبي ﷺ ويوضح أيضا مدى شفقة النبي ﷺ ورحمته بأمته.

عن صفية بنت حُيي، قالت: كان النبي ﷺ معتكفًا، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت لأعود إلى البيت، فقام معي النبي ﷺ، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «**على رِسلكما، إنها صفية بنت حُيي**». فقالا: سبحان الله، يا رسول الله!

قال: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًا**»[(١)].

❋ ❋ ❋

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٣٨) كتاب الاعتكاف، ومسلم (٢١٧٥) كتاب السلام.

استدراك ما فات

وكانت صفية رضي الله عنها تجتهد في طاعة الله - جل وعلا - لتستدرك ما فات من عمرها فقد كانت تتمنى أنه لو كانت أسلمت مع أول لحظة بُعث فيها الحبيب محمد ﷺ لتغتنم كل لحظة في طاعة الله وفي جوار رسوله ﷺ .

ومن أجل ذلك كانت لا تترك لحظة من عمرها تمر إلا في طاعة الله.. وكان قُربها من النبي ﷺ يجعلها تتعلم على يديه كل ما ينفعها في دينها ودُنياها فكانت تنهل من النبع والمعين الصافي مباشرة فأخذت من أخلاق النبي ﷺ وهديه ورحمته وبصيرته وعلمه.. بل وجلست تحفظ الكثير والكثير من كتاب الله - جل وعلا - وراحت تنقل سنة النبي ﷺ إلى النساء من حولها عملاً بقول الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾(١) .

❊ ❊ ❊

(١) سورة الأحزاب: الآية: (٣٤).

فراق مؤلم

ومرت الأيام الجميلة مسرعة فقد كانت صفية رضي الله عنها تعيش مع النبى ﷺ فى جنة الدنيا التى يحفها الإيمان من كل جوانبها.

ولكن دوام الحال من المحال فقد جاء اليوم الذى أظلم فيه الكون كله بموت النبى ﷺ فحزنت (صفية) عليه حزنًا شديدًا كاد أن يمزق قلبها ولكنها صبرت واحتسبت النبى ﷺ عند الله لتفوز بأجر وثواب الصابرات.

والله يحب المحسنين

وبعد وفاة الحبيب ﷺ ظلت صفية رضي الله عنها على العهد قائمة صائمة عابدة لله عز وجل... وكان أبو بكر رضي الله عنه يعرف قدرها ومكانتها السامقة العالية... ولما توفى أبو بكر وتولى عمر الخلافة كان أيضًا يعرف فضلها ومنزلتها العالية.

وها هو موقف عظيم من مواقفها التى توضح كيف أنها كانت رحيمة بكل من حولها بل وتحمل الخير فى قلبها لكل الناس.

رُوى أن جارية لصفية أتت عمر بن الخطاب، فقالت له إن صفية تحب يوم السبت، وتَصِل اليهود. فبعث عمر يسألها. فقالت: أما السبت، فلم أحبه منذ أبدلنى الله به؛ وأما اليهود، فإن لى فيهم رحمًا، فأنا أصِلُها، ثم قالت للجارية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: الشيطان، قالت: فاذهبى فأنت حرة[1].

لقد كانت رضي الله عنها تستطيع أن تنتقم لنفسها ولكنها تعلمت العفو عند المقدرة من صاحب الخلق الرفيع محمد ابن عبد الله ﷺ.

موقفها الجليل مع عثمان بن عفان رضي الله عنه

كانت صفية رضوان الله عليها صاحبة مروءة ونجدة، وكان من مروءتها ونجدتها أن خرجت يوم مقتل عثمان رضي الله عنه من دارها على بغلة يقودها مولى لها، تحاول ردّ الثائرين وتدفعهم عن خليفة المسلمين عثمان بن عفان، وتصدّ الخارجين عليه، الذين حاصروه، ومنعوا عنه الطعام والشراب بغية قتله، فلما لم تستطع ذلك، وضرب

(١) الاستيعاب (١٣/ ٦٥).

الناس البغلة التى تركبها فى وجهها وهم لا يعرفون أن صاحبتها أمٌّ من أمهات المؤمنين قالت لمولاها: رُدَّنى ولا تفضحنى(١).

ثم وضعت بين دارها ودار عثمان جسرًا، كانت تعبره لتنقل إلى دار عثمان ما استطاعت نقله إليه من الماء والطعام.

وبهذا التصرف الكريم، عبَّرت أم المؤمنين صفية عن عدم رضاها عن الذين ظلموا سيدنا عثمان، وضيقوا عليه، ومنعوا عنه الطعام والماء، فرأت من واجبها أن تكون خير معوانٍ لذى النورين عثمان.

❊ ❊ ❊

(١) الإصابة (٤/ ٣٣٩) والطبقات (٨/ ١٢٨).

وحان وقت الرحيل

وعاشت أمنا صفية رضي الله عنها بعد وفاة الحبيب ﷺ قرابة أربعين سنة كانت كلها في طاعة الله عز وجل ما بين صلاة وصيام وصدقة وعلم ودعوة إلى الله.

ولقد حضرت عصر الخلفاء الراشدين من أوله لآخره وعاشت أحداث الفتوحات الإسلامية شرقًا وغربًا ورأت كل ما أخبر عنه الحبيب ﷺ من النصر والتمكين للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وفي سنة خمسين من الهجرة نامت أمنا صفية رضي الله عنها على فراش الموت لتلقى ربها راضية مرضية بعد أن مات الحبيب ﷺ وهو راضٍ عنها.

وماتت رضي الله عنها لتكون مثالاً وقدوة لكل مسلمة إلى يوم القيامة.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها[1].

❊ ❊ ❊

(١) صحابيات حول الرسول/ للمصنف (ص: ٢٦٧- ٢٦٨).

رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها

(أم حبيبة)

رملة بنت أبى سفيان رضي الله عنها
(أم حبيبة)

حبايبى الحلوين:

وها نحن نفتح صفحة جديدة نتعرف من خلالها على أمنا الغالية رملة بنت أبى سفيان - أم حبيبة - رضي الله عنها التى ضحَّت بكل شىء من أجل أن تظفر بنعمة الإسلام والتوحيد.

فقد كانت أم حبيبة (رملة بنت أبى سفيان) تعيش مع أبيها فى مكة... وكانت طيبة رقيقة القلب تحب الخير لكل الناس من حولها.

* وتمر الأيام ويرسل الله جل وعلا حبيبه محمداً ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور،... وكانت أم حبيبة فى ذلك الوقت قد تزوجها عُبيد الله بن جحش.

وما إن سمعا ببعثة النبى ﷺ حتى أسرعا إليه

وأسلما لله جل وعلا فهما يعرفان أن النبى ﷺ هو الصادق الأمين الذى يشهد بصدقه وأمانته كل أهل مكة.

* لكن أباها لما علم بإسلامها هى وزوجها امتلأ قلبه غلاً وحقدًا على ابنته وزوجها.

ثباتها على دينها

وأبو سفيان كان سيدًا من سادات قريش ولم يكن يخطر بباله لحظة واحدة أن هناك من يستطيع أن يخالف أمره أو يخرج عن سلطانه لكن ابنته (رملة) التى تُكنَّى بـ(أم حبيبة) شرح الله صدرها للإسلام فاستجابت لدعوة الحق من أول لحظة وأسلمت لله - جل وعلا - وتركت دين الآباء والأجداد ونبذت الأصنام التى كانوا يسجدون لها من دون الله عز وجل.

وحاول أبو سفيان بكل ما أُوتى من قوة أن يردَّ ابنته وزوجها إلى دين الآباء والأجداد فلم يستطع لأن الإيمان إذا لامس شغاف القلوب فلا يستطيع الكون كله - ولو اجتمع - أن يقتلع الإيمان من هذه القلوب التى رسخ فيها الإيمان وعمقت جذوره.

الهجرة إلى الحبشة

ولما تيقنت قريش من أن أبا سفيان عاجز عن أن يردَّ ابنته وزوجها إلى دين الآباء... وأنه أصبح ساخطًا على ابنته وزوجها اجترأت عليهما وبدأت تضيِّق عليهما الخناق.

ولم يكن هذا التضييق خاصًا بهما بل لسائر المستضعفين من المسلمين فلقد قرر المشركون ألا يألوا جهدًا في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام. ومنذ جهر الرسول بالدعوة إلى الله، وعالن قومه بضلال ما ورثوه عن آبائهم. انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلت عشرة أعوام تَعُدّ المسلمين عُصاة ثائرين، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستباحت في الحرم الآمن من دمائهم وأموالهم وأعراضهم(١).

فلما خشي النبي ﷺ على أصحابه من أن يُفتنوا في دينهم أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة، فهاجروا إلى الحبشة.

عندئذ خرج فوج من المسلمين مهاجرين إلى أرض

(١) فقه السيرة للغزالي (ص: ١٢٠).

الحبشة، مستخفين من أعدائهم المشركين، وكان فيمن خرج من مكة مهاجرًا إلى الحبشة عبد الله بن جحش، وأخوه عُبيد الله تصحبه زوجته رملة بنت أبي سفيان.

وعند خروج أم حبيبة من مكة، نظرت إلى ربوع مكة، وغطّت وجهها سحابة من الحزن، لأن مكة وطنها الحبيب، الذى بين ربوعه درجت وشبّت وكبرت وفيه آمنت، وأسلمت، وعلى يد محمد الأمين ﷺ الذى بعثه الله بالحق تبينت نور الهدى من بين ظلمات الضلال حتى أجبرتها قسوة قومها المشركين على مغادرة مكة هى وزوجها، وكثير من المسلمين.

وقد لاقت أم حبيبة والمسلمون فى رحلتهم من مكة إلى الحبشة صعوبات ومتاعب هوّنها عليهم إيمانهم بدينهم، وجهادهم فى سبيل الله، وكانت أم حبيبة حاملاً بطفلتها حبيبة، وكان الحمل يرهقها إرهاقًا شديدًا فكانت تضيق بمتاعبه وآلامه، إلا أنها تحملت المتاعب، وبددتها فى غمرة فرحتها وغبطتها بأن ما تقاسيه ما هو إلا فى سبيل دينها وحريتها فى عبادة الله، وفى سبيل فرارها

بعقيدتها الجديدة، وبدينها الجديد.

وقد استقبل النجاشي المهاجرين إلى بلاده بالحفاوة والترحيب، وأنزلهم بجواره في خير جوار.

* ولقد أرسل كفار قريش رجلين إلى النجاشي هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة - ليطلبا من النجاشي أن يرد هؤلاء المسلمين المهاجرين إلى أهل مكة مرة أخرى، لكن النجاشي رفض أن يفعل ذلك إلى أن يستمع لكلام المسلمين... فلما كلَّمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه علم النجاشي أن المسلمين على الحق ورفض أن يردهم إلى كفار قريش بل وأسلم بعد ذلك النجاشي سرًا.

* وهناك عاش المسلمون وعاشت أم حبيبة أجمل أيام حياتها في ظل دينها وإيمانها وفي ظل هذا الأمان الذي رأوه في أرض الحبشة.

* وكانت هناك تزور أخواتها المسلمات وتسعد بلقائهن بين الحين والحين.



محنة شديدة

وظنت أم حبيبة رضي الله عنها أن السعادة ستدوم طويلاً لكنها لم تعلم أن هناك ابتلاء شديد فى انتظارها وأنها ستعيش بسببه أصعب أيام حياتها فلقد عكف زوجها عُبيد الله بن جحش على شرب الخمر وأخذ يترك مجالس المسلمين ويجلس مع نصارى الحبشة إلى أن أصبح فى يوم من الأيام ليقول لها: يا أم حبيبة لقد نظرت فى الأديان فما رأيت دينًا خيراً من دين النصرانية... ثم خيَّرها بين أمرين: إما أن تتنصر معه وإما أن يُطلِّقها.

هنا تذكرت أم حبيبة ذات يوم رؤيا رأتها ذات ليلة أحزنتها، وأزعجتها، فقد رأت زوجها عُبيد الله بن جحش فى أسوأ صورة، وعلى أبشع خلقة؛ فهبَّت من نومها وقد أخذها الرعب، واستبدَّ بها الفزع وأخذت تفكر فيما رأتهُ من رؤيا، وتستعرض ما لحظته من تغيير وتبديل فى أحوال زوجها.

كانت هذه الكلمات بمثابة زلزال يهد كيان أم حبيبة المسلمة المؤمنة، فبُهتت لما سمعت من زوجها برغم ما

لاحظته وتبينته من حاله، فقد تغير بصورة ملحوظة منذ فترة بعيدة، فما كانت تظن أن زوجها عبيد الله بن جحش الذى جاهد طويلاً فى سبيل البحث عن دينٍ حقٍّ يعبد به الله، يخرج على هذا الدين بعد أن وجده! وما كان يخطر ببالها أن زوجها بعد أن ترك دياره، وخلَّف بلاده من أجل أن يتفرغ إلى دين الإسلام، سوف ينبذ هذا الدين ويدخل فى دين غيره!.

وحاولت أم حبيبة - وهى المسلمة القابضة على دينها - أن ترفض محاولة زوجها - الذى أصبح نصرانيًا - فى ردِّها عن دينها وإقناعها بدخول دين النصارى، فما كان منها إلا أن فارقت زوجها الذى تنصَّر، ففارقته، وعاشت وحيدة مع ابنتها حبيبة، ولا سلوى لها فى محنتها فى زوجها إلا أنها ما زالت على دين الحق، ولا عزاء لها فى غربتها إلا ما يضىء قلبها بنور الإسلام الذى هداه الله إليه، ومات زوجها عُبيد الله بن جحش على دين النصرانية الذى دان به وترك الإسلام.

* وعلم النبى ﷺ بما حدث لأم حبيبة وحزن لذلك

حُزنًا شديدًا.

* وفي تلك الأثناء كان النبي ﷺ قد وصله أخبار المهاجرين إلى الحبشة وعلم ما فعله النجاشي مع أصحابه من إكرام وأمان وسلام في بلاده فازداد حبًا وتوقيرًا لهذا الرجل العظيم وبخاصة بعدما علم أنه قد أسلم سرًا وأصبح مسلمًا وموحدًا.

وبدأت العلاقات تتعمق بين النبي ﷺ وبين النجاشي.

ففي سنة سبع للهجرة أراد النبي ﷺ أن يدعو ستة من عظماء الملوك إلى الإسلام... فكتب لكل واحد منهم رسالة رقيقة يحضُّه فيها على أن يُسلم لله جل وعلا.

واختار النبي ﷺ ستة من أصحابه ليذهبوا بتلك الرسائل إلى هؤلاء الملوك... فتعلَّم كل واحدٍ من هؤلاء الصحابة لغة البلد التي سيذهب إليها.

وكان الذي أرسله النبي ﷺ إلى نجاشي الحبشة هو عمرو بن أمية الضمري.

* وذهب عمرو بن أمية إلى النجاشي وما إن وصل

حتى استقبله النجاشي أحسن استقبال وأكرمه غاية الإكرام .

وما إن جلس معه عمرو حتى أعطاه الرسالة التي جاء بها من عند رسول الله ﷺ . . . وما إن أخذها النجاشي حتى نزل من على سرير المُلك ووضع الرسالة على عينيه إجلالاً لها وأعلن إسلامه مرة أخرى أمام الملأ ليُعلن استجابته لدعوة النبي ﷺ .

ثم قال: والله لو كنت أستطيع أن أذهب إلى النبي ﷺ لذهبت إليه الآن وجلست بين يديه ووضعت رأسي على قدميه .

ثم كتب إلى النبي ﷺ رسالة رقيقة يخبره فيها أنه قد استجاب لدعوته وأنه قد أعلن التوحيد لله عز وجل .

❊ وفي هذه اللحظة أخرج عمرو بن أمية رسالة أخرى من الرسول ﷺ إلى النجاشي يدعوه فيها إلى أن يُزوجه من أم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان) .

❊ ❊ ❊

زواج النبى ﷺ من أم حبيبة على يد النجاشى

فى صباح يوم مشرقٍ دَقَّ باب أم حبيبة فى مهجرها بالحبشة، فقامت أم حبيبة إلى الباب تفتحه لتنظر مَن الطارق، فإذا بالطارق (أبرهة) وهى جارية من جوارى النجاشى.

فحيتها أبرهة بتحية أهل الحبشة، وقالت لها:

«إن الملك يقول لك: إن محمدًا رسول الله كتب إليه أن يزوجك منه، فوكِّلى من يزوجك» كانت كلماتها بغتة، ودهشة أصابت أم حبيبة، . . . حقًّا لقد استولت عليها الدهشة، وتملَّكها العجب، وكان أن تبسمت قليلاً، وطاف بخاطرها رؤيا رأتها فى المنام منذ وقتٍ ليس بالبعيد، فقد رأت هاتفًا فى المنام يهتف بها، ويقول: «يا أم المؤمنين» هكذا سمعت الهاتف، وفهمت الكلمات على معناها، لكنها اضطربت من الرؤيا فى وقتها، وأبعدت عن خيالها أن يكون ما حدث فى الرؤيا أضغاث أحلام.

والآن صدقت الرؤيا ودخلت أبرهة تبشرها بما أخبرها

به سيدها النجاشى ملك الحبشة، ولكى يكون الخبر صادقًا، وحقيقة لا خيالاً، يطلب منها النجاشى فى التو والساعة أن تختار من الرجال وكيلاً عنها فى عقد الزواج، حتى تكتمل أركانه، عندئذ انتبهت أم حبيبة لأبرهة التى صبرت، وتحمَّلت لحظات الصمت هذه، وقالت لأبرهة تحية للنجاشى: بشَّره الله بالخير.

ونظرت فى شيء تهديه لأبرهة كهدية لهذه البشرى الطيبة فما وجدت غير سوارين من الفضة فى يديها، فخلعتهما، وأعطتهما لأبرهة هدية وبشارة لها على ما جاءت به من أخبار سارة، وأرسلت إلى شيخ المهاجرين من قومها وهو أموى قرشى، ألا وهو (خالد بن سعيد بن العاص) وأبلغته أنها توكله عنها فى زواجها من رسول الله ﷺ أمام النجاشى ولى هذا العقد بتكليف من رسول الله ﷺ.

وعادت أبرهة أدراجها، وقد حملت شيئين سارين، ألا وهما: موافقة أم حبيبة على الزواج واختيارها وكيلاً عنها فى عقد الزواج والثانى سوارين نفيسين هدية لها من أم حبيبة.

وبلغ خالد بن سعيد اختيار أم حبيبة له فى عقد العقد مع النجاشى، وقد استقبل الرجل هذا النبأ بالغبطة والسرور، لأنه يعرف ما مرَّت به أم حبيبة من محنة، وأدرك أن أم حبيبة قد أخذت مكانة رفيعة بهذا التكريم النبوى العظيم.

حفل الزواج

وجاء اليوم الموعود وفى بهوٍ كبير ومجلس مهيب فى قصر النجاشى بالحبشة اجتمع المسلمون المهاجرون إليها، ووجوههم يغمرها السرور والبهجة.

وكان اجتماعهم وسرورهم لأن النجاشى ملك الحبشة دعاهم إلى قصره لحضور الحفل الذى سيتولى فيه تزويج رسولهم من المهاجرة الكريمة الصابرة العظيمة أم حبيبة بنت أبى سفيان، وكان على مقدمة المهاجرين جعفر بن أبى طالب ابن عم رسول الله ﷺ، وكان من بين الحاضرين عمرو بن أمية الضمرى الذى أرسله الرسول ﷺ إلى نجاشى الحبشة ليخطب عليه أم حبيبة، كما أرسله إلى المسلمين المهاجرين بالحبشة يطلب منهم العودة

إلى بلاد الغرب بعد أن اشتد أزر المسلمين بها.

وبدأت إجراءات الحفل عندما وقف النجاشي يعلن بين الحاضرين ما أنابه محمد ﷺ فيه، فقال: لقد كتب إليَّ محمد بن عبد الله ﷺ في أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبت إلى ما دعا إليه، وأصدقتها أربعمائة دينار، ثم سكب النجاشي الدنانير وسأل: فمن أولاكم بها؟

قال الحاضرون: خالد بن سعيد بن العاص.

فقال النجاشي لخالد: فزوِّجها من نبيكم محمد ﷺ.

فتقدم خالد بن سعيد بن العاص وكيل أم حبيبة في زواجها من الرسول، فقال: قد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله، وزوَّجته أم حبيبة.

وقدم النجاشي ما أصدقه لأم حبيبة من دنانير، فقبض خالد الصداق، وبذلك صارت أم حبيبة أمًّا للمؤمنين.

وقد أعدَّ النجاشي وليمة ضخمة، قام إليها القوم جميعًا، فتناولوا طعامهم بمناسبة زواج الرسول ﷺ من أم حبيبة بنت أبي سفيان، فأكلوا ثم انصرفوا فرحين

مسرورين راضين، وحمل إلى أم حبيبة صداقها (مهرها) وأرسلت نساء النجاشي إليها هدايا من طِيبٍ وعنبر؛ حملتها إليها جارية النجاشي أبرهة، وتقبلت أم حبيبة هدايا نساء الملك، وأخرجت من صداقها خمسين ديناراً قدمتها لأبرهة وهي تقول لها:

إني كنت قد أعطيتك السوارين وما أعطيتك يومها ولم يكن عندي مال فهذه خمسون مثقالاً خذيها، فاستعيني بها.

فأبت أبرهة وأصرت وأخرجت صندوقًا كان فيه كل ما كانت أعطتها إياه، فردته، وقالت: عزم عليَّ الملك ألا أُثقل عليكِ، وألا أكلفك شيئًا وأنا التي أقوم على ثيابه وحاجاته، وقد اتبعت دين محمد ﷺ، وأسلمت لله، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر».

وتضيف أم حبيبة قائلة: «فلما كان الغد، جاءتني بعطر العود والعنبر فقدمت بذلك على النبي ﷺ.

ثم قالت أبرهة لأم حبيبة: حاجتي إليك أن تُقرئي رسول الله ﷺ مني السلام، وتُعلميه أني قد اتبعت دينه.

العودة إلى المدينة

قالت أم حبيبة: وتلطفت بي أبرهة وكانت هي التي جهزتني، وكانت كلما دخلت عليَّ تقول: لا تنسى حاجتي إليك، فلما قَدِمت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة وما فعلته بي أبرهة فتبسم رسول الله ﷺ، وأقرأتُه منها السلام، فقال: «**وعليها السلام ورحمة الله وبركاته**»(١)... وبعد مرور فترة من الزمان عاش المسلمون فيها في أمان.

تجهزت أم حبيبة، وتجهز المسلمون لمغادرة الحبشة إلى بلادهم وأوطانهم،... وودَّعهم النجاشي، وبعث برُسُلٍ من لدنُه ساروا معهم حتى ركبوا البحر على ظهر سفينتين أمر الملك النجاشي بإعدادهما لأم حبيبة والمسلمين جميعًا.

وهكذا غادر المهاجرون أرض الحبشة التي استقبلتهم، وأضافتهم وأقاموا فيها خير مقام عند ملكٍ كريم، وفيٍّ العهد، فقد أوفى بكل عهوده مع رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه بطوله الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٠) وما بعدها، وقد نقل البخاري الرواية بتصرف.

وعلى شاطئ الجزيرة العربية نزل القوم، وساروا مجتمعين نحو المدينة، وقد فرحوا فرحًا شديدًا لعودتهم إلى بلادهم، واشتد شوقهم إلى لقاء رسول الله ﷺ، ورؤية الأصحاب والأحباب، وكانت أم حبيبة فى هودجها وقد اشتد بها حياء المؤمنات من لحظة لقاء الزوج والحبيب رسول الله ﷺ.

اللقاء المبارك

ولما شارفت قافلة القوم على المدينة، وبدت فى الأفق رؤوس النخيل فى المدينة تظهر لهم، استقبلتهم الأخبار تقصُ عليهم نبأ خروج رسول الله ﷺ ومعه جيش المسلمين لغزو يهود خيبر، وتحكى لهم خبر النصر الذى نصره الله لنبيه على اليهود، وتُعرفهم قرب عودة جيش المسلمين، وعلى رأسه قائده الرسول ﷺ إلى المدينة،... ودخل العائدون من الحبشة فاستقبلهم أهلها بالفرح والسرور والترحاب. ثم لم تمض على ذلك بضعة أيام، حتى قَدِم الرسول المدينة على رأس جيش المسلمين الظافرين المنتصرين فكانت فرحة أهل المدينة فرحتين، وكان

سرورهم بمقدم الرسول على رأس جيشه الظافر، وبعودة مهاجرى الحبشة إلى أهلهم وأوطانهم لا يعادله سرور.

وقد فرح النبى ﷺ بلقاء المهاجرين إلى الحبشة العائدين؛ وبين مقدار هذا الفرح بلقاء ابن عمه جعفر بن أبى طالب الذى صوَّره الرسول حين لقائه بقوله وهو يعانقه: **«ما أدرى! بأيهما أسَرُّ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟»**[1].

وحظيت العروس أم حبيبة بحفاوة الزوج والرسول الكريم، وإكرامه لها، ودعا عثمان بن عفان أهل المدينة لوليمة حافلة تكريمًا للعروس أم حبيبة ابنة عمه أبى سفيان التى شرفها الله عز وجل ورسوله ﷺ، فرفعاها إلى مصافٍّ أمهات المؤمنين.

أما أبوها أبو سفيان بن حرب زعيم قريش، وكبير المشركين بمكة، فلم يسعه إلا أن يقول وقد بلغه زواج محمد من ابنته التى لم يرها منذ وقت طويل: هذا الفحل لا يُقدع أنفه! أى: أن محمدًا رجلٌ شريف لا يُرَدُّ أبدًا.

(١) حسن: رواه الطبرانى (٢/ ١١٠)، والبزار (٤/ ١٥٩)، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى تخريج فقه السيرة (ص ٣٤٧).

أبو سفيان يزور ابنته أم حبيبة

ورغم العـداوة التى كانت بين المشـركين والمسلمـين، ومع النفور والمقاطعـة التى كان لا يُرجَى معهـا أن يتقابل أبٌ مشـرك كافر مـع ابنةٍ مسلمة، فـقد أجـبرت الظروف وقضت الأوضاع على أبى سفيان أن يسير إلى المدينة على الرغم مما كـان بين المشركـين والمسلمين مـن عداوة، وأن يلتقى مع ابنته أم حـبيبة على الرغم من النفـور والمقاطعة التى لا يُرجَى بسببها أن يتقابل يومًا مع ابنته.

وقصد أبو سفيان إلى بيت أم حبيبة، ودخل على ابنته التى لم يرها ولم تره منذ وقتٍ طويل.

وفوجـئت السيدة أم حـبـيبة رضي الله عنها برؤية أبـيـها بدارها، فوقفت وقـد تملَّكتها الحيـرة، لا تدرى ماذا تعمل؟!! ولا ماذا تقول؟!!

وتقـدم أبو سـفيـان ليـجلس على الفـراش الذى مُـدَّ بجانب من جوانب الحجرة، فإذا بابنته تُسرع فتطويه عنه، حائلة بينه وبين الجلوس عليه.

ودُهش أبو سفيان لما فعلت ابنتـه، فسألها: يا بنية، ما

أدرى!! أرغبتِ بى عن الفراش، أو رغبتِ بالفراش عنى؟

فأجابت: بل هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه.

فغضب أبو سفيان من ابنته غضبًا شديدًا وقال لها: والله يا بُنية لقد أصابك شرٌ بعدى[1].

فأجابت قائلة: بل أصابنى كل الخير... أن هُديت للإيمان ونَعِمت بالإسلام.

وغادر أبو سفيان ابنته متأثرًا غاضبًا، وبقيت أم حبيبة واجمة آسفة ساكنة، وقد بلغ بها التأثر مبلغًا عظيمًا، فها هو ذا أبوها أبو سفيان الذى لم تره منذ سنين طويلة، منذ أن هاجرت إلى الحبشة، بعد أن فرَّق الإسلام بينها وبينه... ها هو ذا تراه بعد هذا الأمد الطويل فلا تستطيع أن تلقاه كما تلقى الابنة أباها بعد طول الغياب وطول الاغتراب، ويدخل دارها فلا تقدر أن ترحب به وتكرمه بما يجب أن تقدم البنت لأبيها من ترحيب وإكرام، ذلك أن شركه بالله قد حال بينها وبينه، ولأن كفره وعناده قد

(١) انظر طبقات ابن سعد (جـ ٨)، والسيرة لابن هشام، تاريخ الطبرى (جـ٣ ص ١١٣).

وقف عقبة بينه وبين ابنته لا تستطيع اجتيازها.

تملَّك الحزن قلب أم حبيبة، وربما فاضت دموعها من الحزن، ولكنها لا تملك لأبيها من شيء إلا أن تتجه بقلبها وروحها إلى الله عز وجل تطلب منه، وتبتهل إليه، أن يهدى أباها من الضلال، ويُنعم عليه بنعمة الإسلام، فينضم إلى قافلة الحق، ويترك قافلة الباطل إلى غير رجعة[(١)].

إسلام أبى سفيان رضي الله عنه

واصلت أم حبيبة الدعاء لأبيها بالهداية والإيمان والإسلام، ولم يطل انتظارها لما تمنَّت.

فقد عزم النبى ﷺ على فتح مكة ففتحها دون حرب... وكان من أجمل الأخبار التى وصلت أم حبيبة هو خبر إسلام أبيها (أبى سفيان).

سجدت أم حبيبة لربها شاكرة، وحمدت ربها، فقد اطمأن قلبها، وهدأت نفسها، ووجدت فى نفسها رغبة عارمة فى أن ترى أباها، (أبا سفيان)، وقد انضم إلى

(١) أزواج النبى/ أ. عبد المنعم الهاشمى (ص: ٤٢٨- ٤٢٩).

قافلة الحق وترك قوافل الباطل، بل وكرَّمه الإسلام فأصبحت داره في مكة دار أمان فجعل المنادي ينادي بأمر رسول الله: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمِن**»(١).

حزنها على وفاة النجاشي رضي الله عنه

وفي يوم من الأيام جاء جبريل عليه السلام ليخبر النبي ﷺ بموت النجاشي ملك الحبشة وليطلب منه أن يصلي عليه هو وأصحابه صلاة الغائب (صلاة الجنازة).

* وعلمت أم حبيبة أن النجاشي قد مات فحزنت عليه حزنًا شديدًا وعادت بها الذكريات إلى أيام الحبشة وكيف أحسن النجاشي استقبالهم وإكرامهم... وكيف أعطاهم الأمان في بلاده.

وتذكرت يوم أن أرسل إليها النجاشي ليبشرها بأن النبي ﷺ قد طلب منه أن يزوجه منها.... وكيف تم الزواج في قصر النجاشي وكيف أعطاها مهرها الكبير من ماله الخاص... فبكت أم حبيبة وقامت تدعو للنجاشي

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٨٠) كتاب الجهاد والسير.

بأن يرحمه الله رحمة واسعة كما كان رحيمًا بها وبالمسلمين الذين نزلوا فى رحاب النجاشى فى الحبشة.

حزنها على وفاة الرسول ﷺ

وعاشت أم حبيبة ﵂ أجمل أيام حياتها مع النبى ﷺ إلى أن جاءت اللحظة التى أظلمت فيها المدينة بموت الحبيب ﷺ فحزنت أم حبيبة حزنًا شديدًا على وفاة الحبيب ﷺ.

وعاشت من بعده أم حبيبة زاهدة عابدة خاشعة لله جل وعلا.

بعد وفاة الرسول ﷺ

عاشت أم حبيبة ﵂ إلى خلافة أخيها معاوية ﵁ حيث توفيت عام أربع وأربعين وقد ناهزت السبعين عامًا من عمرها.

فى هذه الرحلة العمرية الطويلة المباركة، كانت أم المؤمنين أم حبيبة ﵂ ممن يُحببن كتاب الله عز وجل، ويُقبلن على حفظه والتفقه فيه، كما أنها كانت راوية

لحديث رسول الله ﷺ.

ولم تنغمس أم حبيبة فى موقف خلاف مع أخواتها أمهات المؤمنين، فكانت تلزم بيتها عابدة ساجدة متهجدة، تقوم الليل وتصوم النهار، وتنفق من مالها بسخاء وكرم على المحتاجين والمساكين.

وحان وقت الرحيل

وبعد حياة طويلة مليئة بالزهد والورع والبذل والتضحية نامت أم المؤمنين رملة بنت أبى سفيان (أم حبيبة) على فراش الموت وفاضت روحها إلى بارئها جل وعلا لتكون فى صحبة الحبيب ﷺ فى أعلى درجات الجنة.

تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: دعتنى أم حبيبة عند موتها، فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك. فقلت: غفر الله لك ذلك كله وحلَّلك من ذلك، فقالت: سررتنى سرَّك الله،... وأرسلت إلى أم سلمة، فقالت لها مثل ذلك[1].

(١) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٠٠) والحاكم (٤/ ٢٢- ٢٣).

وتوفيت أم حبيبة رضي الله عنها سنة أربعة وأربعين في خلافة أخيها معاوية رضي الله عنه.

وهكذا تعايشنا بقلوبنا وأرواحنا مع أمنا (أم حبيبة) التي ملأت الدنيا بعبير سيرتها العطرة.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

❊ ❊ ❊

ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها

فهرس المطالب الكلامية

ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها

حبايبي الحلوين:

وها نحن نفتح صفحة جديدة لنتعرف من خلالها على أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها والتى كان اسمها بَرَّة فسمَّاها النبى صلى الله عليه وسلم ميمونة.

- إنها الدرة النفيسة التى دخلت البيت النبوى الطاهر الكريم.

- إنها ذات الحسب والنسب.

* فأختها هى أم الفضل بنت الحارث، زوج العباس ابن عبد المطلب - عم النبى صلى الله عليه وسلم - التى كانت أول من آمنت من النساء بعد أمنا خديجة رضي الله عنها.

- وبالتالى فأمنا ميمونة هى خالة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حَبر الأمة وتُرجمان القرآن الذى ملأ الدنيا فقهًا وعلمًا.

* وأختها لأمها سلمى بنت عُميس زوجة حمزة ابن عبد المطلب - عم النبي ﷺ - وأسد الله وأسد رسول الله ﷺ.

* وأختها لأمها أسماء بنت عميس زوجة جعفر ابن أبي طالب الشهيد الطائر وذي الجناحين الذي استشهد في غزوة مؤتة وقُطعت يداه فأبدله الله بجناحين يطير بهما في الجنة، ثم لما استشهد جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه تزوجها أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

* وأختها أيضًا لأمها زينب بنت خزيمة أم المؤمنين رضي الله عنها.

* وأما أختها الصغرى فهي لُبابة بنت الحارث زوج الوليد بن المغيرة وهي أم خالد بن الوليد رضي الله عنه.

وعلى ذلك فأمنا الغالية ميمونة بنت الحارث هي خالة سيف الله المسلول - خالد بن الوليد - رضي الله عنه الذي سطَّر على جبين التاريخ صفحات من النور لا ينساها الكون كله على مدار العصور والأزمان. . . فلقد قال عنه الحبيب

ﷺ : «خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلَّه الله على المشركين»(١).

فياله من نسبٍ عظيم.

ولكن أعظم منقبة فى حقها أنها زوجة رسول الله ﷺ.

فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع سيرتها العطرة.

تربة خصبة

كانت أمنا ميمونة رضي الله عنها تعيش فى هذه التربة الخصبة بين أفراد هذه الأسرة المباركة وكان نور الإيمان يملأ قلبها وجوارحها فكانت لا تطمع فى قصرٍ من قصور الدنيا ولا فى أى شىء من حُطامها الفانى لأنها تعلم يقينًا أن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة .. وأن موضع قدم المؤمن فى الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها.

لذلك كانت من السابقات إلى الدخول فى دين الله عز وجل وممن شهد لهن النبى ﷺ بالإيمان.

(١) صحيح: أخرجه عبد الرزاق (٥/ ٢١٢)، وابن أبى شيبة (٦/ ٥٤٧)، وابن سعد (٧/ ٣٩٦)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣٢٠٧).

من هنا كانت البداية

كانت برَّة (ميمونة بنت الحارث) قد تزوجها في بداية أمرها مسعود بن عمرو الثقفي... وكان ذلك قبل الإسلام ولم تَدُم العشرة بينهما فطلقها مسعود ثم تزوجها بعد ذلك (أبو رُهم بن عبد العُزّى) ولكن بعد فترة مات وتركها وحيدة.

لكنها كانت على يقين من أن الله عز وجل سيُعوضها خيرًا وسيرزقها بزوج يأخذ بيديها إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة.

وتمر الأيام وتُشرق شمس الإسلام على أرض الجزيرة ويُبعث النبي ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

فأسلمت أختها أم الفضل لُبابة بنت الحارث،... وكانت أول امرأة تُسلم بعد أمنا خديجة رضي الله عنها... وتبعها بعد ذلك أخواتها فأسلمن جميعًا وأسلمت معهن ميمونة بنت الحارثة رضي الله عنها.

وعاشت ميمونة أسعد أيام حياتها في ظل هذا الدين العظيم.

وبعد أن أكرمها الله عز وجل بنعمة الإسلام كانت تنتظر أن يُكرمها الله بزوجٍ صالح يُعينها على أمر دينها ودنياها. . . ولكن يا ترى من يكون هذا الزوج المبارك؟ إنها لم يخطر ببالها لحظة واحدة أن تكون أمًّا من أمهات المؤمنين وزوجة لسيد الأولين والآخرين محمد ﷺ ولكن الأقدار المباركة جعلتها تقترب شيئًا فشيئًا من هذه الأمنية الغالية التى كانت تتمناها أى امرأة مؤمنة فى هذا الكون الفسيح.

فها هو الحبيب ﷺ يأتى هو وأصحابه لأداء عمرة القضاء فكان هذا الزواج الميمون.

فلقد تزوج النبى ﷺ تلكم المرأة الميمونة «ميمونة بنت الحارث» بعد انصرافه من عمرة القضاء.

وتعالوا بنا لنتعايش مع قصة هذا الزواج المبارك.



عمرة القضاء وقصة الزواج المبارك

كان صلح الحديبية ينصُّ على أن يرجع المسلمون ثم يعودون فى العام المقبل ويدخلون مكة لمدة ثلاثة أيام يؤدون فيها ما يؤدون من شعائر دينهم على أن يُخليها لهم المشركون، وعلى أن لا يكون مع المسلمين من السلاح غير السيوف فى الغمد.

ولما هلَّ هلال شهر ذى القعدة سنة سبع من الهجرة أمر النبى ﷺ أصحابه أن يخرجوا لعمرة القضاء.

وسُميت بعمرة القضاء لأنها كانت عن عمرة الحديبية حينما رفض المشركون دخولهم.. أو لأنها وقعت حسب المقاضاة والمصالحة التى كانت فى الحديبية.

وأمر النبى ﷺ ألا يتخلف أى أحد ممن شهد الحديبية فخرجوا جميعًا إلا من استُشهد.. وخرج معه أُناسٌ آخرون حتى بلغ عددهم ألفين سوى النساء والصبيان.

وكان رسول الله ﷺ عند الدخول راكبًا على ناقته القصواء، والمسلمون متوشحوا السيوف، محدقون برسول الله ﷺ يُلبُّون.

وفى عمرة القضاء، انساب المهاجرون فى دروب مكة يستنشقون عبير أرض الذكريات الحلوة، ويتملَّون مراتع الصِّبا والشباب فرحين مسرورين، وكانت بعض بيوتهم خاوية لا حركة فيها، قد خيَّم عليها السكون فتبعث الأسى فى النفوس، ولكنهم ألقوا عليها نظرات عابرة دون أن تترك أثرًا فى قلوبهم التى عمرها الإيمان بحب الله ورسوله ﷺ .

النبى ﷺ يأمرهم بالجرى الخفيف ليرى المشركون قوتهم

كان المسلمون المهاجرون وهم فى المدينة المنورة يستشعرون شوقًا شديدًا إلى مكة أم القرى، وكانت أعز أمانيهم أن يعودوا إليها، وأن يروا أقرباءهم وأن يرووا ظمأهم من ماء زمزم، وأن يطوفوا بالبيت العتيق، فإذا بآمالهم كلها تتحقق، وها هم اليوم يطوفون بالبيت العتيق وهم بصحبة الحبيب المصطفى ﷺ .

* وكان المشركون يزعمون أن الصحابة لم يعد عندهم

قوة لأن حُمَّى المدينة أضعفت أجسادهم.. فلما دخل النبى ﷺ وأصحابه أمرهم أن يرملوا - أى يجروا جريًا خفيفًا - فى الأشواط الثلاثة الأولى حول الكعبة حتى يرى المشركون قوتهم ونشاطهم فامتلأت قلوب المشركين حقدًا على الصحابة.

كيف تم الزواج؟

لما دخل النبى ﷺ وأصحابه مكة لأداء عمرة القضاء كانت برة (ميمونة) فى مكة وما أن ملأت عينيها من النبى ﷺ حتى استولت عليها فكرة أن تنال شرف الزواج من رسول الله ﷺ، وأن تصبح أمًا للمؤمنين، وما يمنعها من أن تحقق حلمها الذى طالما راودها فى يقظتها وفى منامها.

وهى الشابة المسلمة المتعبدة، والتى ترمَّلت من زوجها أبى رهم بن عبد العزَّى وهى لا تزال بعد فى السادسة والعشرين فأسرَّت إلى شقيقتها أم الفضل بما تاقت إليه نفسها، فقد مال قلب برة (ميمونة) وهفت روحها، لأن تكون زوجة لنبى المسلمين ﷺ، تلمس عظمة الإسلام

عن قرب وتشارك النبى الكريم حياته وجهاده.

واستمعت أم الفضل إلى أمنية أختها بعطفٍ ورضا، ثم أفضت بهذا السر إلى زوجها العباس، وكان لأم الفضل أمر أختها، ففوضته إلى العباس.

وسار العباس إلى النبى ﷺ يحدثه عن برة المسلمة المؤمنة، ويقول له: ولقد تأيمت من أبى رهم ابن عبد العزى، فهل لك أن تتزوجها[1]؟

ارتضى الرسول ﷺ زواج برة (ميمونة) وأرسل ابن عمه جعفرًا زوج أختها أسماء يخطبها، وجاء طلب خطبة الرسول ﷺ إلى برة، وهى على بعيرٍ لها، فكان جوابها: البعير وما عليه لله ولرسوله.

وزوَّج العباس برة (ميمونة) من رسول الله، وأصدقها رسول الله أربعمائة درهم[2].

وانقضت الأيام الثلاثة التى نَصَّ عليها عهد الحديبية على أن يقضيها المسلمون بمكة، فأرسلت قريش إلى الرسول تقول: إنه قد انقضى أجلك، فاخرج معنا.

---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ٢ ص ٢٣٨) وما بعدها ترجمة (رقم ٢٧).
(٢) انظر طبقات ابن سعد (جـ ٨).

وأحسَّ النبى ﷺ أنه لو أطال المقام بمكة لكان ذلك خيرًا ولمالت إلى الإسلام قلوب كثيرة من أبناء قريش، فقال يرد على رسل قريش: «**ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بينكم وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه**».

فقالوا: لا حاجة لنا بطعامك، فاخرج عنا.

كان جوابهم فيه شدة وجفاء.

فخرج رسول الله ﷺ مغادرًا مكة، مُخلِّفًا بها مولاه أبا رافع ليصحب (بَرَّة) عند خروجها من مكة للحاق به.

وبمكان اسمه (سَرِف) على مسافة قريبة من مكة، نزل رسول الله فى انتظار عروسه، وخرج أبو رافع بعروس رسول الله من مكة ليلاً حتى لحق بالرسول ﷺ.

ولم يرضَ الرسول عن اسم برة اسمًا لزوجته، فسمَّاها ميمونة، تيمنًا باليوم الميمون الذى دخل فيه المسلمون مكة لقضاء عمرتهم بعد أن حُرِّم عليه دخولها عليهم سبع سنين، وكانت ميمونة آخر زوجة زُفَّت إلى رسول الله.

ثم انصرف عليه السلام بها راجعًا إلى المدينة[1].

(١) أزواج النبى / ص(٤٤٢-٤٤٣) بتصرف.

فى رحاب بيت النبوة

وبعد أن تم هذا الزواج الميمون المبارك دخلت ميمونة رضي الله عنها بيت النبوة لتكون أمًّا من أمهات المؤمنين... ويا له من شرفٍ ما بعده شرف.

دخلتْ ميمونة أم المؤمنين المدينة المنورة فأحسَّت بسعادة لا تعادلها سعادة، وكأن قلبها يعانق كواكب الجوزاء... وتخطَّت برجليها عتبة الحجرة التى أعدَّها لها النبى صلى الله عليه وسلم، والتى فاح منها الإيمان فنشر عبيره على الكون كله.

إنها غرفة وإن كانت بسيطة ومتواضعة إلا أن جدرانها أُسست على التقوى.

وعاشت ميمونة رضي الله عنها فى رحاب بيت النبوة فتعلمت بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم الخير الكثير فأخذت من هديه وأخلاقه وعلمه فكان إيمانها يزداد يومًا بعد يوم.

❊ ❊ ❊

شهادة غالية

وظلت ميمونة رضي الله عنها تتعايش بقلبها وجوارحها مع بركات الوحي المُنَزَّل على الحبيب ﷺ وتُحوله إلى واقعٍ عملي فكانت تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل الخيرات، حتى شهد لها النبي ﷺ ولأخواتها بالإيمان، ويا لها من شهادة عظيمة خرجت من فم الصادق الذي لا ينطق عن الهوى.

قال ﷺ: «**الأخوات الأربع: ميمونة، وأم الفضل، وسلمى، وأسماء بنت عميس، - أختهن لأمهن - مؤمنات**»[1].

حرصها على إقامة حدود الله (عز وجل)

وكانت رضي الله عنها حريصة كل الحرص على إقامة حدود الله لأنها تعلم يقينًا أن الحياة الطاهرة النظيفة لا تكون إلا في ظل التعايش مع شرع الله - جل وعلا - . . . فعن يزيد:

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٨٣٨٧)، وابن سعد (٨/١٣٨)، والطبراني (١١/٤١٥)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٧٦٤).

أن ذا قرابة لميمونة دخل عليها فوجدت منه ريح شرابٍ فقالت: لئن لم تخرج إلى المسلمين فيجلدوك لا تدخل عليّ أبدًا(١).

فراق مؤلم

وبعد فترة قصيرة من تلك الحياة الإيمانية المباركة نام رسول الله ﷺ على فراش الموت... وكان أول ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة رضي الله عنها.

وعندما شعر الرسول ﷺ ببوادر المرض الذي مات فيه، كان يطوف كعادته اليومية على سائر نسائه، فاشتد به المرض وهو في بيت ميمونة، فلما طلب أن يُمرَّض في بيت عائشة، قَبِلت ميمونة ذلك عن طِيب خاطر مرضاة للرسول.

وشاركت ميمونة في تمريض الرسول ﷺ والعناية به، وعاونت أختها أسماء على صنع الدواء، الذي أشار بصنعه العباس ليُصَبَّ في فم الرسول ﷺ وهو في

(١) أخرجه ابن سعد (٨/ ٩٩).

غيبوبة المرض ليستشفى به، وكانت أسماء قد تعلمت صنع هذا الدواء أثناء مقامها فى الحبشة.

* وما هى إلا ساعات معدودة حتى فاضت أطهر روح فى الدنيا كلها إلى بارئها جل وعلا.

مات رسول الله ﷺ وأظلمت المدينة كلها لموته ﷺ وحزنت عليه ميمونة حزنًا كاد أن يمزق قلبها ولكنها احتسبته عند الله لتنال أجر وثواب الصابرين... وحسبُها أن النبى ﷺ مات وهو راضٍ عنها.

وانتقل الرسول الكريم ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وهو راضٍ عن زوجاته الطاهرات... وكُن تسعًا.

راوية حديث النبى ﷺ

نستطيع أن نقول: إن أمنا ميمونة بنت الحارث واحدة من أمهات المؤمنين اللاتى نقلن لنا حديث رسول الله ﷺ.

هذا وقد كانت أم المؤمنين ميمونة ممن وعين الحديث الشريف، وتلقينه عن رسول الله ﷺ وكانت حافظة متقنة، وتشير أخبارها التى وصلتنا بأنها شديدة التمسك بالهدى النبوى، وبالآثار والشمائل المحمدية ومنها حفظ

الحديث النبوى الشريف، وروايته، ونقله إلى أئمة العلماء الذين كانوا يقصدون المدينة المنورة، ليأخذوا الحديث عن أمهات المؤمنين، وعن كبار الصحابة الذين عنوا برواية الحديث.

هذا وقد كانت أم المؤمنين من الحافظات المكثرات لرواية الحديث النبوى الشريف من أمهات المؤمنين الطاهرات، ولم يسبقها فى هذا سوى أم المؤمنين عائشة التى روت (٢٢١٠) حديثًا، وأم سلمة أم المؤمنين التى روت (٣٧٨) حديثًا، ثم تأتى ميمونة التى روت عن رسول الله ﷺ (٧٦) حديثًا [١].

* وكيف لا تكون بهذه المنزلة الغالية وهى التى عاشت فى رحاب بيت النبى ﷺ واقتبست من النبع الصافى مباشرة بغير واسطة فكانت تنهل من هذا الخير الكثير والكثير.



---

(١) المجتبى (ص ٩٦) وأعلام النساء (٥/ ١٣٩).

وحان وقت الرحيل

وبعد وفاة الحبيب ﷺ ظلت ميمونة رضي الله عنها عاكفة على العبادة والصلاة والصيام وقراءة القرآن حتى تاقت نفسها إلى لقاء الله - جل وعلا - «فإن مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه -».

وحانت اللحظة التي تترك فيها الدنيا بكل ما عليها من متاع زائل لتلقى ربها عز وجل... فنامت على فراش الموت بعد أن عاشت في رحاب الخلافة الراشدة وكانت تحظى باحترام الخلفاء والعلماء وامتدت بها الحياة إلى خلافة معاوية رضي الله عنه.

ولما أحسَّت قُرب منيتها ذهبت إلى مكة، وأوصت أن تُدفن عندما تموت في البقعة المباركة التي زُفَّت فيها إلى الرسول ﷺ.

وحين وافاها الأجل حُملت إلى (سَرِف) وفي مكان القبة التي ضُربت لها يوم زفافها حُفر قبرها الذي رقدت فيه راضية مرضية.

وتوفيت رضي الله عنها سنة إحدى وخمسين.

* وهنا تقول أمنا عائشة رضي الله عنها في حقها بعد وفاتها تلك الكلمة الخالدة: «ذهبت والله ميمونة... أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم»[1].

وهكذا رحلت أمنا ميمونة رضي الله عنها لتلحق بحبيبها وزوجها ونبيها ﷺ في جناتٍ ونَهَر في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

فرضي الله عنها وأرضاها وجعل جنة الفردوس مثواها.

* * *

(١) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٣٨) والحاكم (٤/ ٣٢) وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.



الفهرس

الفهرس

عائشة بنت أبى بكر رضي الله عنهما

حفصة بنت عمر رضي الله عنهما

زينب بنت خزيمة رضي الله عنها

الفهرس

زينب بنت جحش رضي الله عنها

جويرية بنت الحارث رضي الله عنها

صفية بنت حيى رضي الله عنها

رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها (أم حبيبة)

ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها

* * *